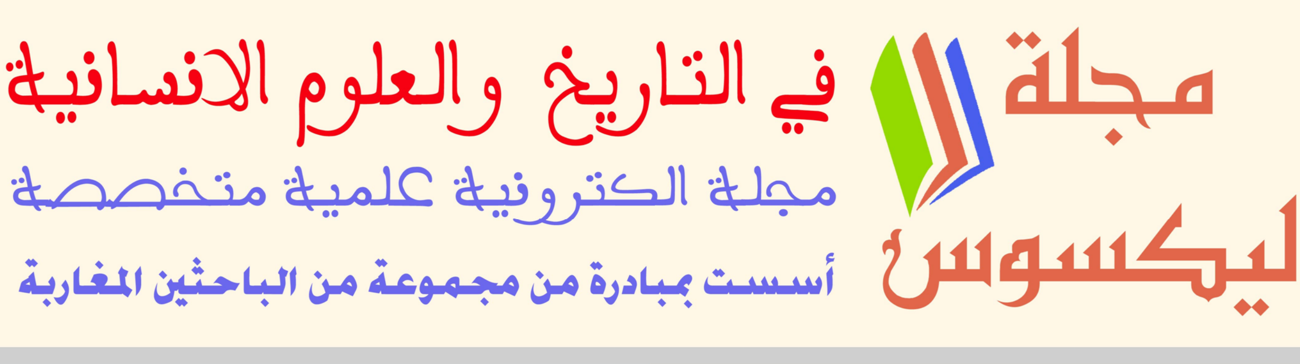


العدد الرابع - يوليوز 2016

أعمال مترجمة:دولة سودانية وسيطة غير معروفة: مملكة زافون (و)

مجلة ليكسوس تتمنى لكم عيد فطر مبارك سعيد

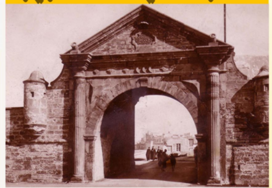
ضمن هذا العدد ذاكرة مجندو إيموزار مرموشة

المساهمون في هذا العدد:

- لمياء محمد سالم شرف الدين
- فاطمة حيدة
- عبد القادر مباركية
- محمد أبيهي
- عمر عمالكي
- فيصل فاتح
- خالد أوعسو
- نور الدين أغوثان
- نورالدين احميان
- وليد موحن



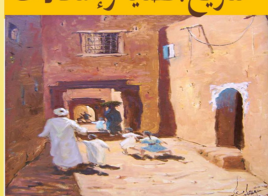
ذاكرة مدينة الصويرة











الرحلات والتاريخ

المغرب بعيون أجنبية



تاريخ مقاومة الحاحيين







جنود مغاربة في جبهة الحرب العالمية الثانية

www.maroc-histoire.net

البريد الالكتروني lixus@maroc-histoire.com

محاور العدد

- أهمية العلوم الإنسانية . التاريخ:قضايا وإشكالات . تاريخ مقاومة الحاحيين للتدخل الأجنبي .
- مساهمة المغاربة في الحرب العالمية الثانية . التاريخ البحري . تاريخ الاسلام تاريخ الحركة الوطنية المغربية .
- بني زروال في ذاكرة المستكشفين الأوربيين . مملكة زافون . تاريخ سلوان

تنسيق وتصميم:محمد أبيهي

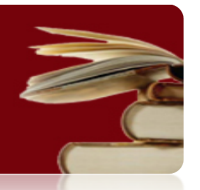


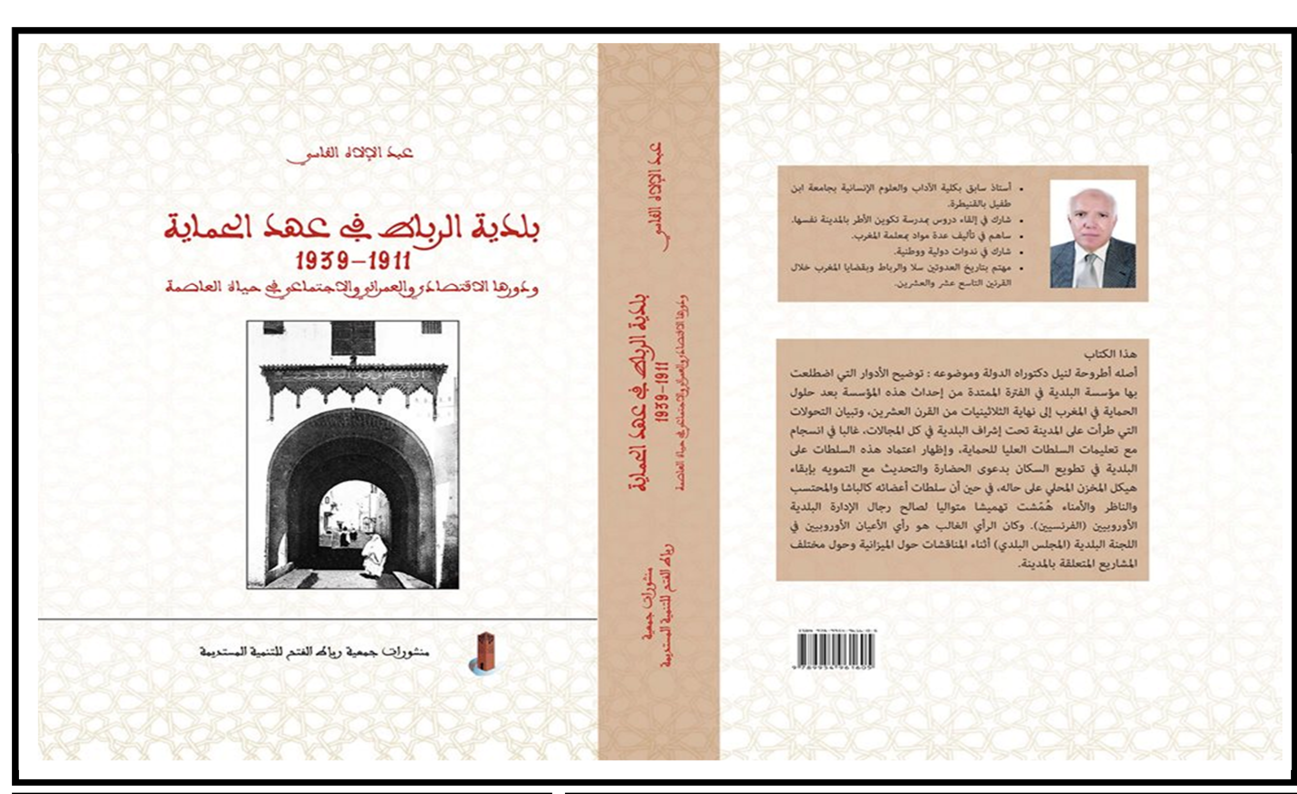
محاور العدد الرابع - يوليوز 2016

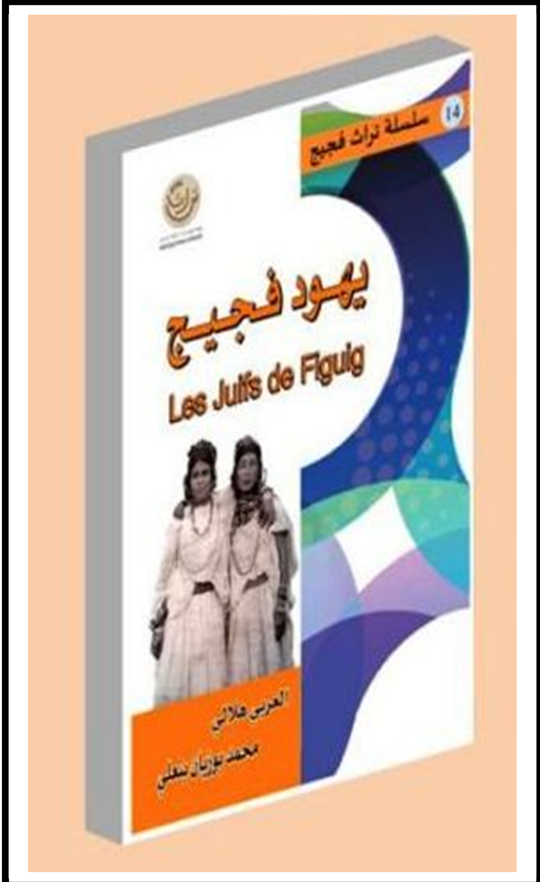
البريد الالكتروني lixus@maroc-histoire.com

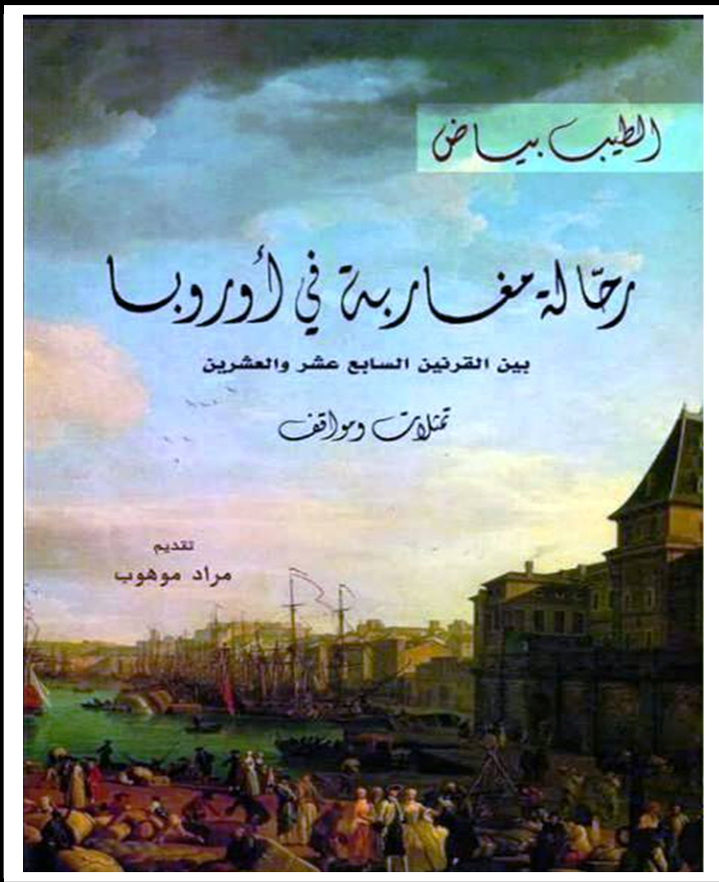
التصميم والاخراج الفني: محمد أبيهي

من ثمرات المطابع











فهرس محتويات المجلة

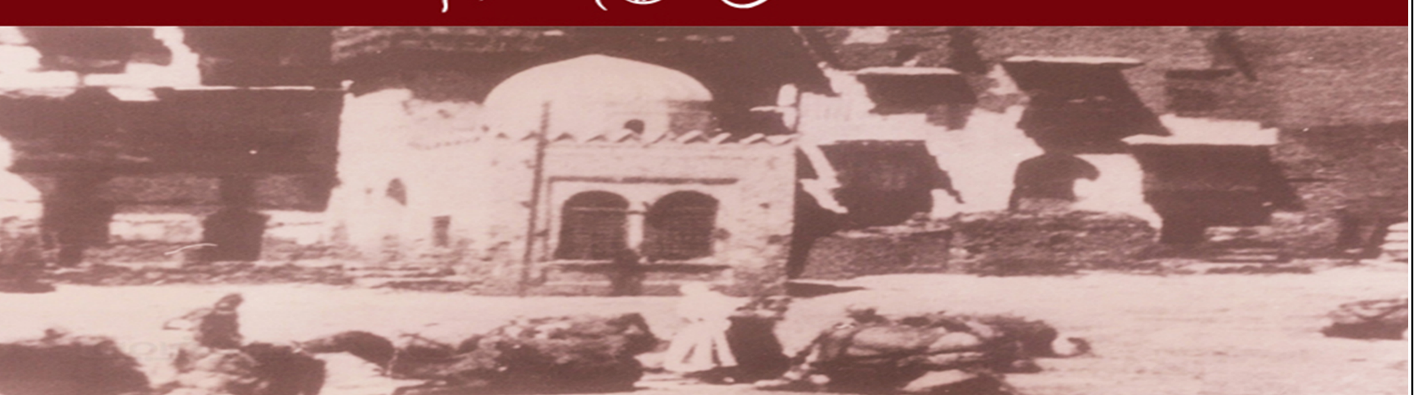
كلمة الافتتاح:

يسعد طاقم مجلة ليكسوس الالكترونية أن يضع بين يدي القارئ الكريم العدد الرابع من هذه المجلة الالكترونية الفتية، وأدرجت المجلة في هذا العدد ثلة من المواضيع المختلفة، وقد أسهم في اغناء محتوياتها باحثين من المغرب وخارجه،وهذا يعكس انفتاح مجلة ليكسوس على كل الباحثين بالمغرب وخارجه، وذلك لهدف تثمين التبادل المعرفي والعلمي بين الباحثين،وإيمانا من المجلة بضرورة ربط أواصر التعاون وتبادل الخبرات بين المهتمين في مختلف تخصصات العلوم الإنسانية، لتكون رافدا ومرجعا علميا للطلاب والباحثين بالمغرب وخارجه.

واشتمل هذا العدد على محاور تهم تاريخ الاسلام، حيث ساهمت ذ. لمياء محمد شرف الدين من جامعة طرابلس بليبيا بمقال علمي حول مساهمة التّجار المكيين في النشاط الزراعي في المدينة، كما أدرجت مواضيع أخرى تهم تاريخ افريقيا جنوب الصحراء من خلال العمل المترجم للأستاذ عبد القادر مباركية من جامعة عباس الغرور خنشلة الجزائر. ولإغناء النقاش المنهجي للتاريخ، أدرج مقالين حول قضايا التاريخ على ضوء مناهج العلوم الانسانية للأستاذ خالد أوعسو، وكذلك مقال للأستاذ فيصل فاتح حول أهمية العلوم الإنسانية و سبل تفعيلها في خدمة المجتمع، وخصصت المجلة جانبا من تاريخ المغرب المعاصر من خلال مقال للأستاذ محمد أبيهي حول موضوع مقاومة احاحان للاحتلال الفرنسي وأحداث دار لوضا، وكذلك مساهمة الطالبة الباحثة فاطمة حيدة بمقال حول مساهمة المغاربة في الحرب العالمية الثانية:مجندو إيموزار مرموشة نموذجا، كما ساهم الطالب الباحث وليد موحن بمقال يهم مسار عن مسار الحركة الوطنية في المنطقة الخليفية.وأما المساهمات الأخرى، فكانت لكل من الأستاذ عمر عمالكي، الذي ساهم بمقال حول جوانب من قضايا التاريخ البحري بالمغرب، ومقال للأستاذ نور الدين أغوثان، الذي ساهم بمقال حول بني زروال في ذاكرة المستكشفين الأوربيين، وكذلك مساهمة الطالب الباحث نورالدين، التي تمحورت حول تاريخ منطقة سلوان وقلعتها خلال بداية ق 20م.

وأملنا جميعا أن تكون هذه المساهمات العلمية إضافة بيبلوغرافية نوعية للقارئ الكريم، لتسليط الضوء عن بعض القضايا التاريخية، وكلنا أمل أن تكبر مجلة ليكسوس الالكترونية بفضل تفاعلكم معنا قراء وكتابا، وذلك لنشر المعرفة التاريخية على نطاق واسع، وننتظر مساهماتكم ومقالاتكم لاغناء هذا المشروع التاريخي الالكتروني، لكي يكون منارة وقنطرة للباحثين والتعريف بانتاجاتهم التاريخية. وفي الختام نشكر كل من ساهم في إثراء العدد الرابع من مجلة ليكسوس، وموعدنا سيتجدد إن شاء الله في العدد الخامس من هذا المولود الالكتروني الجديد ، ليواصل إصداراته الالكترونية لتعم الفائدة جميع المهتمين بالمعرفة التاريخية داخل وخارج المغرب.**مجلة ليكسوس الالكترونية المغرب في 2016/07/01م**

صفحات من تاريخ الاسلام





مساهمة التّجار المكيين في النشاط الزراعي في المدينة (1-23 ه/ 622-643م)



لمياء محمد شرف الدين
جامعة طرابلس-ليبيا

لقد نشطت أقلام الدّارسين لتاريخ العرب الاقتصادي في التأكيد على أهميّة النشاط التجاري بالنسبة لأهل مكّة، وجعلوه المحور الرئيسي الذي تقوم عليه شهرتهم الاقتصادية. ولا لوم عليهم، في الواقع، في اتخاذهم هذا المنحى إذا ما أخذنا في الاعتبار أنّهم استدلوا على ذلك بالظروف الجغرافية والمناخيّة لمكّة. إلا أنّ هذا التوجّه لا يعطي صورة حقيقية لما كان يزاوله المكيون من نشاط اقتصادي، خاصّة وأنّه كان من بينهم من كان يملك الأراضي الزراعيّة خارج مكة، علاوة على هجرة أكثرهم إلى يثرب/المدينة ذات الطابع الزراعي. وعلى الرغم من أن التجارة قد اعتبرت أحد الأنشطة الاقتصادية الهامة في يثرب، فإن غلبة النشاط الزراعي بها يحيلنا إلى التساؤل عن مساهمة المهاجرين ذوي العقلية التجارية الساعية وراء الربح فيه.

وفقا لهذا الطرح سوف تهتم هذه الدراسة بالبحث في مسألة مساهمة المكيين في النشاط الزراعي في المدينة (1-23هـ/622-643م) من خلال ثلاثة عناصر رئيسية. يتم في الأول منها التوقف عند خلفية أهل مكة التجارية. أما العنصر الثاني فخُصِّص لدراسة المحيط الزراعي في يثرب/

المدينة وكيفية امتلاك المهاجرين للأراضي الزراعية بها. في حين عني الثالث بالبحث في مدى مساهمة التجار المهاجرين في النشاط الزراعي بالمدينة/ يثرب.

حتّمت هذه الدراسة الرجوع إلى عدد غير قليل من المصادر والمراجع، منها مؤلفات تاريخيّة واقتصادية بالإضافة إلى كتب الحديث. ولقد حاولت من خلالها توجيه الاهتمام الأكبر إلى الأخذ عن المصادر الأولى، منها: السيرة النبوية لابن هشام، والسير والمغازي لابن إسحاق وتاريخ الرسل والملوك للطبري وسيرة ابن كثير وفتوح البلدان للبلاذري وغيرها. وإن زخرت هذه المصادر بالمعلومات عن التجار المكيين منذ ما قبل الإسلام فإنها لم تولِ نشاط المهاجرين الزراعي اهتماما يذكر، خاصة في الفترة قيد الدراسة مما حدا بي إلى محاولة التقاط المعلومات ذات العلاقة من مصادر متفرقة. أما عن أهم المراجع التي اعتمدت عليها فأذكر كتاب المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد علي، الذي بالرغم من اهتمامه بالفترة الجاهلية فإنه يسلط الكثير من الضوء على موضوع الدراسة، خاصة وأن مصادره إسلامية في الغالب. كما يمكن الإشارة إلى كتاب ياسين نجمان "تطور الأوضاع الاقتصادية في عصر الرسالة والراشدين" ومؤلّفي برهان الدين دلو "مساهمة في إعادة كتابة التاريخ العربي ما قبل الإسلام إلى ظهور الأمويين" و"حظيرة العرب قبل الإسلام".

خلفية أهل مكة التجارية

عدّت التجارة المصدر الأساسي لاقتصاد مكة خاصة قبل الإسلام. والجدير بالذكر أنّ أهميتها لا تقلل من النشاطات الاقتصادية الأخرى ونخص بالذكر منها الحدادة والنجارة وصناعة الأسلحة وصناعة الأواني[1]، إلا أنّ غلبة النشاط التجاري على أهل مكّة جعله يتبوأ المقام الأول في الاقتصاد المكّي

وتوّجه المكّيين في حقيقة الأمر نحو النشاط التجاري واهتمامهم به دون غيره من الأنشطة الاقتصادية الأخرى قد حكمته اعتبارات عدّة، لعلّ من أهمها العامل الجغرافي والعامل السياسي

---

[1] ياسين نجمان ، *تطور الأوضاع الاقتصادية في عصر الرسالة والراشدين*، دار الشؤون الثقافيّة العامة، بغداد، 1991، ص 47؛ خليل محسن، *في الفكر الاقتصادي العربي الإسلامي*، دار الرشيد للنشر، بغداد، 1982، ص 45؛ Ibrahim Mahmood, "Social and economic conditions in pre-islamic Mecca", in *International journal of Middle East studies*, Cambridge Univ press, n°12, 1982, p347.

والعامل الديني. فأما العامل الجغرافي فيتمثل في أنّ مكّة بلد في ﴿وَادٍ غَيرِ ذِي زَرْعٍ﴾.[2] فانعدام الماء – باستثناء وجود بعض الآبار الصالحة للشرب وخاصة بئر زمزم[3]- أساس العملية الإنتاجية الزراعيّة في مكة جعل أهلها يتجهون إلى التجارة. وأما العامل السياسي فيكمن في الأزمة السياسيّة التي شهدها اليمن وقد أثّرت على مسار اقتصادها، سانحة الفرصة لمكة كي تزدهر وتأخذ مكانها في التجارة الدوليّة. وقد ساعدها على ذلك أيضا، تحوّل الطرق التجاريّة بالقرب منها إثر تعطّل طريق التجارة عبر العراق نتيجة الحروب المستمرة بين الروم والفرس.[4]

كما كان للاعتبارات الدينية دورها في مزاولة المكيين التجارة. فكان لارتياد الحجيج السنوي الكعبة أثره في تنشيط الحركة التجارية. دون أن ننسى وجود بيت الله الحرام بين ظهراني مكة كان قد رفع من شأنها بين بقية المناطق، حاثا بذلك سكانها على العمل على استحداث مؤسسات دينية كان لها في ذات الوقت أبعاد اقتصادية (الرّفادة والسّقاية).

---

[2] القرآن الكريم، سورة ابراهيم، الآية 37.

[3] لمزيد من التفاصيل أنظر : الأزرقي، أبو الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد، *أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار*، تحقيق رشدي الصالح ملحس، دار الثقافة، مكّة المكرمة، 1965، ج2، صص 214-244.

[4] دلو برهان الدين، *مساهمة في إعادة كتابة التاريخ العربي ما قبل الإسلام إلى ظهور الأمويين*، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 1983، ص62.

فالرّفادة، يقول ابن الأثير **"هو خرج تخرجه قريش في كل موسم من أموالها فتصنع منه طعاما للحاج يأكله الفقراء."**[5] أمّا السّقاية فهي اسقاء الحجيج الماء العذب وكان عزيزا بمكة يجلب إليها.[6] وأهميّة هاتين المؤسستين على الصعيدين السياسي والاقتصادي تفسّر إلى حد ما صراع وجوه قريش عليها، وهم الممثلون للملأ والمسيطرون على دار الندوة.[7] فالمصادر[8] تشير إلى إنّ ظهور بعض الأحلاف[9] (حلف المطيّبين، حلف الأحلاف) كان سببه النزاع الذي شبّ بين بني عبد مناف وبين بني عبد الدار. فتضامن هذان الحيّان من أجل الرفادة والسقاية المرتبطتان أساسا بموسم الحج يعكسان أهميتهما الاقتصادية والسياسية.

كما أن الحلف يهدف إلى إضفاء الشرعية على هاتين المؤسستين، وهذه الشرعيّة وباتفاق الجميع يجب ألاّ تمس ومن يعتدي عليها يعتبر خارجا عن المجموعة. هذا وإن كانت الأحلاف قد عُقدت محليّا (داخل مكّة) وبين أهلها (بنو عبد مناف وبنو عبد الدار) فإنّ أحلافا أخرى أخصّ بالذكر منها حلف الفضول[10] قد ظهرت للوجود واتخذت الوجهة ذاتها، ألا وهي المحافظة على المصالح الاقتصاديّة.

---

[5] ابن الأثير الجزري، أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الملقب بعز الدين، *الكامل في التاريخ*، عُني بمراجعة أصوله والتعليق عليه نخبة من العلماء، دار الكتاب العربي، بيروت، 1980، ج2، ص 13.

[6] الأزرقي، المصدر السابق، ج1، ص114.

[7] يذهب الأزرقي إلى القول " إنّما سمّت دار الندوة لاجتماع النداة فيها، يندونها ويجلسون فيها لإبرام أمرهم وتشاورهم " وإنّه لا يدخلها إلا من كان عمره أربعين سنة فما فوق باستثناء أبناء قصيّ وحلفائهم (وهو امتياز لذوي السلطة). المصدر السابق، ج1، صص109-110.

[8] ابن الأثير، المصدر السابق، ج2، ص14؛ ابن كثير، أبي الفداء الحافظ، *السيرة النبويّة*، تصحيح وضبط أحمد عبد الشافي، دار الكتب العلميّة، بيروت، د.ت، ج1، ص52.

[9] ذكر ابن منظور أنّ " الحِلْف أو الحَلَف: القسم، حلف أي أقسم والحِلف بالكسر هو العهد يكون بين القوم. وقد حالفه أي عاهده. وتحالفوا أي تعاهدوا، قال ابن الأثير أصل الحلف المعاهدة على التعاضد والتساعد والاتفاق." ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن كرم، *لسان العرب*، دار صادر، بيروت، 1968، مج 9، صص55،53.

[10] لمزيد من التفاصيل أنظر: ابن الأثير، المصدر نفسه، ج2، ص9؛ المسعودي، أبو الحسن، *التنبيه والأشراف*، مكتبة خياط، بيروت، 1965، ص42، ومروج *الذهب ومعادن الجوهر*، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت، 1987، ج2، ص276.

وإن كان لحلف المطيّبين وحلف الأحلاف وحلف الفضول دور في تحقيق بعض الأمن والاستقرار الذين يحتاجهما النشاط التجاري داخل مكة، فإن التطلّع إلى التجارة الخارجية كان قد تطلّب اللجوء إلى ابرام اتفاقيات/ إيلاف[11] تدعّم تطلعات قريش السياسيّة والاقتصادية وانبثق عنها رحلتي الشتاء والصيف اللتين ورد ذكرهما في القرآن الكريم.

تجمع المصادر[12] على أنّ أصحاب الإيلاف أربعة أخوة، هم : هاشم وعبد شمس والمطّلب ونوفل بنو عبد مناف. وكان هاشم بن عبد مناف مستحدثها. فأخذ لتجار مكّة أمانا من ملوك الشام وفي طريق عودته إلى مكّة أبرم عهودا مع القبائل الواقعة على الطريق التجاري الرابط بين مكة والشام.[13] وعندما وصل مكّة كان هذا الإيلاف من أعظم ما جاء به هاشم إلى قريش[14]، وكان ذلك بدء إيلاف قريش. وأخذ عبد شمس أمانا من النجاشي والمطلب من ملوك اليمن ونوفل من ملوك العراق.[15] ومن الجدير بالتنويه أنّ التعامل مع القوى السياسيّة في كل من الشام والعراق واليمن والحبشة أوجد علاقات سياسيّة بينها وبين مكّة[16]، وكثيرا ما أعتبر التجار بمثابة سفراء وممثلين لبلدانهم في المناطق التي يرتادون للتجارة. كما ارتبطت القبائل الواقعة على طريق التجارة بمكة ارتباطا وثيقا حتّمته الظروف والمصالح الاقتصادية ونشأ عنه ارتباط سياسي إن صح القول.

---

[11] يقول ابن منظور أن " الإيلاف من آلف. وآلفت فلانا الشيء، أي ألزمته إيّاه." المصدر السابق، ج9، ص 10.

[12] الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير، *تاريخ الرسل والملوك*، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار سويدان، بيروت، د.ت، ج2، ص 252؛ ابن سعد، محمد، *الطبقات الكبرى*، دار صادر، بيروت، د.ت، ج1، ص75؛ البلاذري، أبو الحسن أحمد بن يحي، *أنساب الأشراف*، تحقيق محمد حميد الله، دار المعارف، القاهرة، 1959، ج1، ص 59؛ ابن كثير، المصدر السابق، ج1، ص 94.

[13] الثعالبي، أبو منصور عبد الملك بن محمد النيسابوري، *ثمار القلوب في المضاف والمنسوب*، مطبعة الظاهر، القاهرة، 1908، صص 89-90.

[14] العسكري، أبو هلال بن عبد الله بن سهل، *الأوائل*، دار الكتب العامة، بيروت، 1967، ص13.

[15] الطبري، المصدر السابق، ج2، ص 252؛ المسعودي، *مروج الذهب*، تحقيق يوسف أسعد داغر، دار الأندلس، بيروت، 1978، ج 2، صص 32-33؛ ابن الأثير، المصدر السابق، ج2، ص11.

[16] الأزرقي، المصدر السابق، ج1، ص149؛ ابن كثير، المصدر السابق، ج1، ص23؛

إن اعتماد المكيين على التجارة، النشاط الرئيسي (وليس الوحيد) حتّم عليهم العناية بما يدخل في إطارها من معاملات (الوكالة والقراض والشركة) وضرورياتها من تنظيم للأسواق والقوافل.لقد تعددت الأسواق التي كان يرتادها تجار مكّة داخل الجزيرة العربيّة وخارجها، فيذكر منها ابن حبيب على سبيل المثال : ومنها سوق دومة الجندل والمشقر وصحار ودبا والشحر وعدن وصنعاء والرابيّة وعكاظ وذي المجاز ونطاة وحجر[17]، ويضاف إليها عدد من الأسواق الأخرى مثل: هجر[18] والحزورة[19] وحباشة[20] وسوق بني قينقاع[21]. وانقسمت الأسواق إلى أسواق يوميّة وأخرى موسميّة. فالأولى تقع في مناطق التجمعات السكانية واشتهرت بأسمائها كسوق الحزورة بمكة وسوق بني قينقاع بيثرب. وتعرض في هذه الأسواق المواد الغذائية والاستهلاكية على وجه الخصوص. أما الأسواق الموسميّة فهي منوطة بالأشهر الحرم[22]، كسوق صحار بعمان وسوق عكاظ والرابية وذي المجاز ونطاة بخيبر، وسوق حجر باليمامة.[23] كما انتهز المكيّون موسم الحج لتنشيط حركة تجارتهم، "**فقالوا لا ينبغي لأهل الحل أن يأكلوا من طعام جاءوا به معهم من الحِلّ إلى الحرم. فكان أهل الحِلّ يأتون حجاجا أو عمارا، فإذا دخلوا الجرم وضعوا أزوادهم التي جاءوا بها وابتاعوا من طعام الحرم والتمسوا من ثياب الحرم إما عارية وإما إجارة.**"[24] فكان هذا ما ابتدعته قريش تبعا لأهميّة موسم الحج وهو بيع الطعام والسلع الأخرى للحجيج من غير أهل مكّة، واستفاد المكيّون من قيام الأسواق فكانوا يُعَشِّرون كل من دخل مكّة تاجرا[25]،

---

[17] ابن حبيب، أبو جعفر محمد، *كتاب المحبر*، تصحيح ايلتره ليختن تشيتر، دار الآفاق الجديدة، بيروت، د.ت، صص 263-268.

[18] القلقشندي، أبو العباس أحمد بن علي بن عبد الله، *نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب*، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت، ص 427.

[19] الطبري،المصدر السابق، ج2، ص248 ؛ ابن كثير،المصدر السابق، ج1، 390.

[20] الطبري،المصدر السابق، ج2، ص281.

[21] أبو داود، سليمان بن الأشعث السجستاني الأزدي، *سنن أبي داود*، مراجعة محمد محي الدين عبد الحميد، دار إحياء السنة النبوية، د.ت، ج3، ص 194.

[22] المسعودي، *مروج الذهب*، ج2، ص 205.

[23] ابن حبيب، المصدر السابق، صص 265، 267، 268.

[24] ابن اسحاق، محمد المطلبي، *السير والمغازي*، تحقيق سهيل زكّار، دار الفكر، دمشق، 1978، ص 102.

[25] المسعودي، *مروج الذهب*، ج2، صص49-58.

حماية لتجارهم. ولئن سيطرت تميم على سوق عكاظ فإن تدخّل قريش جعلها لا تفرض المكوس على التجار وتصبح عكاظ بذلك سوقا حرّة[26] بخلاف بعض الأسواق الأخرى.[27]

أمّا القوافل فقد انقسمت بدورها إلى قوافل جماعيّة وإلى قوافل خاصّة. فالقوافل الجماعيّة تلك التي يكون مالها لمجموعة من التجار[28]، وكلٌّ يسهم فيها حسب زفرة ماله وكلٌّ وفق خبرته. فكان كلٌّ يربح قدر ماله عند اقتسام الأرباح (وهي وجه من وجوه المشاركة). ومن الجدير بالذكر أن ممارسة النشاط التجاري لم تقتصر على أصحاب الأموال الأثرياء وحسب، بل مارسه أشخاص عاديون، وذلك من خلال اقتراض الأموال والمساهمة بها في إعداد القوافل على أن يعيدوا المبالغ المقترضة إلى أصحابها حالما تعود القوافل من رحلتها مع جزء من الأرباح. ففي إطار حديثه عن سرايا الرسول صلّى الله عليه وسلم، يورد ابن الأثير أن أبا العاص قد خرج متاجرا إلى الشام بأمواله وأموال رجال من قريش.[29] أما القوافل الخاصّة فتلك التي تخرج لصالح أسرة واحدة ذات مال كثير أو لصالح أفراد معينين[30]، ويكون خروجها في أي وقت شاء أصحابها، أي أن خروجها لا يقتصر على رحلتي الشتاء والصيف، سواء خرج فيها أصحابها أو أرسلوا عنهم وكلاء. فيذكر ابن الجوزي أنّ عبد الرحمن بن عوف قد قدمت له عير من الشام وقد كانت سبع مائة راحلة.[31] كما تفيد المصادر بأن للمرأة دور في النشاط التجاري المكّي ولعلّ في السّيدة خديجة خير مثال.[32]

---

[26] علي جواد، *المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام*، دار العلم للملايين، بيروت، 1971 ج7، ص379.

[27] ابن حبيب، المصدر السابق، صص265،266؛ القلقشندي، المصدر السابق، ص 427.

[28] ابن كثير، المصدر السابق، ج2، ص 152.

[29] ابن الأثير، المصدر السابق، ج2، ص 94.

[30] علي جواد، المرجع السابق، ج7، ص 294.

[31] ابن الجوزي، *صفوة الصفة*، تحقيق وتعليق محمد خافوري، فرح أمادين ومحمد رواس قلعة جي، دار الوعي، حلب، 1969، ج 1، ص352.

[32] يذكر كلّ من ابن هشام والطبري وابن الجوزي أنّ السيّدة خديجة كانت تاجرة تستأجر رجالا من قومها ليخرجوا في تجارتها وقد كانت تضاربهم بمالها. ابن هشام أبو محمد عبد الملك، *السيرة النبوية*، حققها وضبطها وشرحها ووضع فهارسها مصطفى السقا وإبراهيم الابياري وعبد الحفيظ شلبي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د.ت، مج 1، ص 199؛ الطبري، المصدر السابق، ج 2، ص 280؛ ابن الجوزي، المصدر السابق، ج 1ص 73. ويذكر الطبري أيضا أنّ " هند بنت عتبة قد اقترضت من عمر بن الخطاب مالا من بيت مال المسلمين وخرجت إلى بلاد كلب تاجرة، فاشترت وباعت." ولئن كان ذلك في عهد عمر بن الخطاب، فانه لا ينفي عنها

وتتكوّن القوافل عادة من عدّة فئات اجتماعية ففيها الرؤساء[33] والأطباء والبيطريين والحرّاس[34] والأدلاء.[35] وترتاد الشمال كما ترتاد الجنوب تحمل السلع المتوفّرة في المنطقة من جلود وزبيب ولبان وتمور. وتستجلب مالا يتوفر فيها من حبوب وزيوت وبُرد يمانيّة وثياب عدنية وطيب وتبر وصمغ وجواري.[36] دون أن ننسى أن البضائع المتاجر بها لم تكن لاستهلك مكّة فحسب، بل كانت تجارة عبور أيضا؛ ذلك أنّ قيمة السلع وحجمها أكبر بكثير من قدرة استيعاب مكة الاستهلاكيّة.

أما التجارة الداخليّة فتتكوّن بالدرجة الأولى من السلع الاستهلاكيّة الغذائيّة. وإلى جانب هذه الأخيرة تتم المتاجرة بالسلع التي تنتج داخل حدود الحجاز من ثياب وأثاث وأواني معدنيّة وفخاريّة. علما بأنّ المواد المستهلكة داخل مكة، الغذائية على وجه الخصوص كالتمور والزبيب ...، كانت تستجلب إليها من المناطق التي تجاورها، إذا ما استثنينا بطبيعة الحال كبار التجار (الممثلين لفئة مترفة) القادرين على استجلاب الثمين منها من الشام والعراق واليمن والحبشة. وربّما في تقسيم قريش إلى بطاح وظواهر ما يُستشف منه تفاوت اجتماعي.

شخصيتها التجارية قبل عهده وقبل الإسلام أيضا. الطبري، المصدر السابق، ج 4، ص 221؛ أما برهان الدين دلو فيذكر " أن أم أبي جهل كانت تتاجر في العطور تجلب لها من اليمن ." دلو، *جزيرة العرب قبل الإسلام*، دار الفارابي، بيروت، 1989، ج 1، ص 36.

[33] ابن حبيب، المصدر السابق، ص 136.

[34] Ibrahim Mahmood, *Op.cit.*, p 344.

[35] الطبري، *تاريخ الرسل والملوك*، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر، بيروت، 1987 ج2، ص 449.

[36] بيضون، إبراهيم، *الحجاز والدولة الإسلاميّة*، المؤسسة الجامعيّة للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، 1983، ص 70، علي جواد، المرجع السابق، ج7، ص 307.

إن حركة التجارة بين الشمال والجنوب عبر مسافات طويلة قد حتّم وجود محطات في كل المناطق التي يمر بها التجّار، حيث يتزودون منها بالماء والطعام من جهة ويستريحون فيها من جهة أخرى. تبعا لذلك وجدت الاستراحات وأماكن للنوم (الفنادق) والاصطبلات أين يريحون عيرهم.[37] كما حدّدت المسافات والأبعاد.[38]

تمكّن كبار تجار مكّة من خلال مزاولتهم للتجارة والأعمال المصرفيّة واستغلالهم لموارد الحج من الإثراء وتكوين رؤوس أموال طائلة مستقطبين بذلك المركزين الاقتصادي والاجتماعي. واتسعت ثروات العديد منهم مثل عبد الله بن جدعان الذي يعتبر من أثرى أهل مكّة لما لديه من أموال، حتى أن جفانه يأكل منها القائم والراكب لسعتها.[39] والعباس بن عبد المطلب الذي كان ماله متفرق في أهله[40] وبلغ رأس ماله مائتي ألف درهم.[41] وعبد الرحمن بن عوف الذي استطاع جمع أمواله من التجارة ، فكان قد "**تصدّق بشطر ماله أربعة آلاف، ثم تصدّق بأربعين ألفا ثم تصدّق بأربعين ألف دينار.**" [42] وأبو بكر الذي كان يتاجر بالبزّ والمنسوجات وقد بلغ رأس ماله أربعين ألف درهم.[43] وصفوان بن أميّة بن خلف الذي يعدّ أحد المطعمين، وقد كلن يقال له سدّاد البطحاء.[44]

---

[37] طلس، محمد أسعد، *تاريخ العرب*، دار الأندلس، بيروت، د.ت، مج 1، ص 82؛ أبو صوّة، محمود، " رؤية جديدة للفتح الإسلامي لليبيا"، في *مجلة البحوث التاريخيّة*، مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الايطالي، يناير 1986، السنة 8 ، العدد 6، ص 43.

[38] علي، جواد، المرجع السابق، ج7، ص 324.

[39] ابن كثير، المصدر السابق، ج 1، ص60.

[40] المصدر نفسه، ج 1، صص 496-499.

[41] ياسين، المرجع السابق، ص 288.

[42] ابن الأثير، *أسد الغابة في معرفة الصحابة*، تحقيق وتعليق محمد إبراهيم البناء، محمد أحمد عاشور ومحمود عبد الوهاب فايد، دار الشعب، القاهرة، د.ت، مج 3، ص 480.

[43] ابن الجوزي، المصدر السابق، ج 1، صص 240-241؛ طلس، المرجع السابق، مج 1، ص 60.

[44] ابن الأثير، *أسد الغابة...*، مج 3، ص 25.

لم يقتصر استثمار المكيين لأموالهم في التجارة وحسب، بل اتجهوا إلى الزراعة أيضا. فيذكر البلاذري أنّه "**كانت لعامة قريش أموال بالطائف يأتونها من مكة فيصلحونها.**"[45] وكان من بين هؤلاء المكيين العبّاس بن عبد المطلب وقد كانت أرضه تنتج الزبيب. فكان ينتبذه للحجيج.[46] وامتلك بها أيضا عبد الله بن عمرو بن العاص[47]، كما كانت لعبد الله بن عامر بن كريز أرض بنخلة[48]. وازداد توجه المكّيين نحو النشاط الزراعي بعد الهجرة إلى يثرب ذات الخاصيّة الزراعية[*].

---

[45] البلاذري، *فتوح البلدان*، تقديم إبراهيم بيضون، شرح وتعليق عبد الأمير مهنا، دار إقرأ، بيروت، 1992، ص 118.

[46] الأزرقي، المصدر السابق، ج 1، ص 114؛ البلاذري، المصدر السابق، ص 117.

[47] علي، جواد، المرجع السابق، ج 7، ص 441.

[48] ابن سعد، المصدر السابق، ج 2، ص 10.

[*] لم تفقد التجارة – كنشاط اقتصادي- أهميتها بالنسبة للمكيين بعد ظهور الإسلام وبعد الهجرة إلى يثرب، بل تحوّلت فاعلياتها من مكة إلى المدينة تبعا لتحوّل المؤسسة السياسيّة " دار الندوة" من مكة إلى المدينة " دار الإمارة-المسجد". وقد أولاها المكيون والمسلمون عامة عنايتهم وزاولوها وفق قوانين ونظم حددتها الشريعة الإسلاميّة. وزاد من أهميتها أن الرسول صلى الله عليه وسلّم كان تاجرا، وجمع من الصحابة كانوا كذلك.

الأرض الزراعية بمدينة يثرب وامتلاك المهاجرين لها: لئن وجّهت العوامل الجغرافيّة أهل مكّة لمزاولة التجارة، فإنّها ساهمت في تحديد نشاط سكّان مدينة يثرب الاقتصادي. فاشتهرت هذه الأخيرة بالزراعة، وذلك لوقوعها في أرض خصبة، **"كثيرة العيون والينابيع والمياه الجوفية قريبة لمن يريد أن يحفر آبارا, وهذا ما يجعل العمل الزراعي أول ما يتبادر لمن يستوطن المنطقة."**[49] كما تشقّها العديد من الأودية التي تعتمد على مياه الأمطار. ومن أشهر هذه الأودية، وادي مهزور[50] ووادي بطحان[51] ووادي مذينيب[52] ووادي العقيق[53] وقناة[54]. كما كانت لشراج الحرّة[55] بيثرب أهميّة كبرى في سقي الأراضي. كما زخرت يثرب بالآبار التي يستمد منها سكانها مياه الشرب ومنها أيضا يسقون زروعهم كبئر أنّا وبضاعة والدربك ورومة[56] وغرس[57] وحا[58] وأريس[59]. ولعلّه في ذكر الوديان والآبار ما يوضّح أن الزروع كانت تسقى سيحا من خلال ما يُمدّ من قنوات تصل إلى الأراضي الزراعية أو بالدّلاء. ولقد استخدم أصحاب الأراضي العبيد[60] لما تحتاجه العمليّة الزراعيّة من عمل (حرث، سقي، بذر للحبوب، غرس للثمار والحصاد) لا سبيل لصاحب الأرض أن ينجزه بمفرده.

---

[49] بدر، عبد الباسط، *التاريخ الشامل للمدينة المنورة*، د.ن، المدينة المنورة، 1993، ج 1، ص 99.

[50] الحموي شهاب الدين أبن أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله، معجم *البلدان*، دار صادر، بيروت، 1957، مج 5، ص 234.

[51] المصدر السابق، مج1، ص446.

[52] المصدر السابق، مج 5، ص91.

[53] المصدر السابق، مج 4، ص138.

[54] المصدر السابق، مج 4، ص401.

[55] يذكر ياقوت الحموي أن " شراج الحرّة - جمع شرج- وهو مسيل الماء من الحرّة إلى السهل، وهي التي خوصم فيها الزبير عند الرسول صلّى الله عليه وسلّم". المصدر السابق، مج 3، ص331.

[56] المصدر السابق، مج 1، ص298، 299.

[57] يذهب ابن النجار إلى القول بأنها بين الشجر. ابن النجار الإمام الحافظ محمد بن محمود، *أخبار مدينة الرسول (المعروف بالدرة الثمينة)*، تحقيق صالح جمال، دار الفكر، مكة المكرمة، 1971، ص 45.

[58] يذكر ابن النجار أنها " وسط حديقة صغيرة جدا، وعندها نخلات ويزرع حولها." المصدر السابق، ص 41.

[59] المصدر السابق، ص 43.

[60] يذكر ياقوت الحموي أنّ نخيل و زروع أهل يثرب " تسقى من الآبار عليها العبيد". المصدر السابق، مج 5، ص 82. ويذهب صالح أحمد العلي إلى القول بأنّ بعض أصحاب الأراضي الشاسعة منها على وجه الخصوص كانوا قد استخدموا العمّال. العلي، صالح أحمد ، *الدولة في عهد الرسولصلّى الله عليه وسلّم*، مطبعة المجمع العلمي العراقي، 1988، مج 1، ص 172.

وتنقسم الأراضي الزراعيّة إلى ضاحية وضامنة. فأمّا الضاحية فهي ما يكون خارج سور المدينة، وهي أوسع من الضامنة التي تكون داخله[61]. وتكون ملكية هذه الأراضي ملكيّة خاصّة ثابتة بما يوضع على حدودها من علامات[62] أو تحاط بحائط[63]. وتختلف مساحات هذه الملكيات من موقع إلى آخر في مدينة يثرب تبعا للمسيطرين عليها وقدراتهم المادية لمزاولة هذا النشاط (الزراعة) وتوفير أدواته الإنتاجية (مسحاة، معول، محراث، مخدّة...)[64]، وتوفير حيوانات الحرث والسقي أيضا (حمير، ثيران، ابل وكذلك الكلاب).[65] وقد يستعمل حيوان أو أكثر حسب مساحة الأرض. ولقد اشتهرت يثرب بإنتاج التّمور[66]، وإن أنتجت أراضيها الشعير والبصل والسلق والقثاء والثوم.[67]

سيطر يهود بني قريظة وبني النضير على الأراضي الزراعيّة بمدينة يثرب قبل الهجرة وبعيدها. فيذكر البلاذري أن مخيريق (أحد يهود بني النضير) كانت له سبع حوائط.[68] وقد كانت أراضي بني النضير تقع على مذينيب في حين كانت أراضي بني قريظة تقع على مهزور.[69] إجمالا، كانت أراضي اليهود بالسّافلة.

---

[61] علي جواد، المرجع السابق، ج 7، ص 28.

[62] المرجع السابق، ج 7، ص 135.

[63] أبو داود، ج 3، ص179.

[64] علي جواد، المرجع السابق، ج7، ص47.

[65] جاء في الحديث النبوي الشريف" من أمسك كلبا فإنه ينقص كل يوم من عمله قيراط، إلا كلب حرث..." اليوسفي، محمد حبيب الله بن الشيخ سيد عبد الله بن سيدي أحمد، *زاد المسلم فيما اتفق عليه البخاري ومسلم*، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د.ت، ج 3، ص106.

[66] الحموي، المصدر السابق، مج 5، ص 82.

[67] على جواد، المرجع السابق، ج 7، صص 58، 60،61.

[68] البلاذري، فتوح البلدان، ص 68.

[69] ابن النجار، المصدر السابق، ص 14.

وتفسيرا لسيطرة اليهود على الأراضي الزراعية بيثرب، كان من البديهي التطرّق لمكوّنات المجتمع اليثربي قبيل الهجرة النبوية. فقد كان هذا الأخير يتكون من اليهود والأوس والخزرج. وقد سبق اليهود هذين الأخيرين في التواجد في يثرب، ذلك أن مقدمهم كان على إثر تهديم بختنصر بيت المقدس وإجلائه لبني إسرائيل وسبيهم. وقد طرد اليهود حالما استقروا بيثرب من كان بها من العماليق[70]، الذين كانوا أوّل من عمّر بيثرب الدور والآطام* واتّخذ الضياع.[71] وتوسّع اليهود في نشاطهم الزراعي لما يحملونه من خبرة زراعيّة، خاصة وأنهم قدموا من بلد زراعي وهي الشام، فقد كانوا يزرعون ويحصدون في فلسطين[72]، إلا أنّ هذا لا ينفي عنهم ذهنيتهم التجاريّة التي وظّفوها في أسواق يثرب.[73]

---

[70] البلاذري، المصدر السابق، ص 64.

[71] الحموي، المصدر السابق، مج 5، ص 84.

* الأطام (مفردها أطم) وهي أحياء مُغلقة اقيمت كنوع من الدفاع الذاتي من هجمات القبائل العربيّة. بيضون، إبراهيم، الحجاز والدولة الإسلاميّة: دراسة في إشكالية العلاقة مع السلطة المركزية في القرن الأول الهجري، المؤسسة الجامعيّة للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، 1983، ص44.

[72] بدر، المرجع السابق، ج 1، ص 99.

[73] العلي صالح، المرجع السابق، مج 1، ص 88.

بقي اليهود مسيطرين على الأراضي الزراعيّة حتى مقدم الأوس والخزرج من اليمن إثر انهيار سدّ مأرب، وقد وجدوا الأموال والآطام والنخل في أيدي اليهود ووجدوا العدّة والقوّة معهم.[74] وأقام هؤلاء في ظلّ اليهود يعملون في أراضيهم حتى استطاعوا تكوين ثروة. فخاف اليهود منهم وضيّقوا عليهم. فاستنجد الأوس والخزرج بمالك ابن عجلان[75] الذي استطاع أن يطوّع لهم يثرب وتصبح تحت سيادتهم. فبنوا الآطام، وقد بلغ عددها مائة وسبع وعشرين أطما[76]، واتخذوا الأراضي حيث طبّقوا فيها ما يحملونه من بيئتهم من معرفة بالأرض والعناية. إلا أنّ التوتر بين القبيلتين (الأوس والخزرج) وما شبّ بينهما من حروب طويلة[77] أضعف من وحدتهما و لم تتمكنا من السيطرة على الأراضي الخصبة التي بقيت بيد اليهود، بني قريظة وبني النضير خاصة، حتى كان إجلاؤهم في عهد الرسول صلّى الله عليه وسلّم، وذلك بدءا من سنة 4 للهجرة إثر نقضهم لعهودهم[78] وما خلّف ذلك من توترات بينهم وبين المسلمين. وكان لهذا الحدث أثره البارز في تطور الأوضاع الاقتصادية بالنسبة للمهاجرين على وجه الخصوص.لقد زاول فريق من المهاجرين حالما وصل المدينة التجارة في أسواقها[79]، وكذلك مع الشام[80]، إلا أنّ عدد هؤلاء كان قليلا -وهم من كانت لهم أموال كانوا قد خرجوا بها من مكّة- أما الباقين ونتيجة لعدم امتلاكهم

---

[74] ابن النجار، المصدر السابق، ص 14.

[75] المصدر السابق، ص 17.

[76] المصدر السابق، ص 18.

[77] ابن الأثير، المصدر السابق، ج 1، صص 400 - 420 .

[78] البلاذري، فتوح البلدان، ص 66.

[79] يذكر ابن كثير أن الرسولصلّى الله عليه وسلّم آخى بين عبد الرحمن بن عوف وبين سعد بن الربيع الأنصاري، فعرض هذا الأخير على ابن عوف نصف ماله؛ إلا أن عبد الرحمن بن عوف رفض ذلك وطلب منه أن يدلّه على السّوق. فربح شيئا من أقط وسمن. ابن كثير، المصدر السابق، ج1، ص413.

[80] يذكر البخاري بسنده إلى ابن شهاب " أَنَّ رَسُولَ اللهصلّى الله عليه وسلّم لَقِيَ الزُّبَيْرَ فِي رَكْبٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ كَانُوا تُجَّارًا قَافِلِينَ مِنَ الشَّأْمِ، فَكَسَا الزُّبَيْرُ رَسُولَ اللهِ صلّى الله عليه وسلّم وسلم وأَبا بَكْرٍ ثِيابَ بَياضٍ." البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة الجعفي، *صحيح البخاري المسمّى الصحيح المسند من حديث رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وسننه وأيامه*، طبعة معتمدة على النسخة "السلطانية" المعتمدة على النسخة اليونينيّة ومصححة على عدّة نسخ ومرقمة على الأحاديث والأبواب ووفقا للمعجم المفهرس و"تحفة الأشراف"، اعتنى به أبو عبد الله عبد السلام بن محمد بن عمر علّوش، مكتبة الرشد، بيروت، 2006، ص 531، حديث 3906.

الأموال للمتاجرة بها نتيجة ضيق ذات اليد أو لأنهم لم يتمكنوا من إخراج أموالهم معهم عندما أرادوا الهجرة إلى يثرب "**كما حدث لصهيب الرّومي عندما تنازل عن كل ماله لقريش مقابل أن تتركه يهاجر**"[81]، ولا الأراضي أساس العملية الإنتاجية بيثرب، فقد عملوا إلى جانب الأنصار في أراضيهم، وكذلك في أراضي بعض اليهود لتلبيّة متطلبات عيشهم. فقد ورد في السنن أن عليّا بن أبي طالب قد عمل في بستان أحد اليهود، "**حدّثنا محمد بن عبد الأعلى الصنعاني ثنا المعتمد بن سليمان، عن أبيه حنش ابن عكرمة عن أبي عباس، قال: أصاب نبي الله صلّى الله عليه وسلّم خصاصة، فبلغ ذلك عليا. فخرج يلتمس عملا يصيب فيه شيئا ليُقيت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم. فأتى بستانا لرجل من اليهود، فاستقى له سبعة عشر دلوا. كل دلو بثمرة...**"[82] كما ساهمت بعض الشيء موارد الغزوات والسرايا (غنائم وفيء) التي سيّرها الرسول صلّى الله عليه وسلّم في تخفيف ما حاق بالمسلمين المهاجرين من ضيق معاش. ولبناء مجتمع مدينة جديد أساسه العدالة الاجتماعيّة، وزّع الرسول صلّى الله عليه وسلّم أراضي يهود بني قريظة وبني النضير على المهاجرين. ولا تذكر المصادر أنه أقطع أحدا من الأنصار إلا سهيل بن حنيف وسمّاك بن خراشة[83] لما كانا فيه من ضيق معاش. لئن كان إقطاع المهاجرين الأراضي محاولة لتحقيق العدالة الاجتماعيّة وتمكينهم من مستوى معيشي أفضل وربطهم بالمدينة، فإنّ لذلك بعدا اقتصاديا آخر وهو التشجيع على النشاط الزراعي.

---

[81] بدر، المرجع السابق، ج1، ص 228.

[82] ابن ماجة، الحافظ بن عبد الله بن محمد بن يزيد القزويني، *السُّنن*، تحقيق وتعليق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت ، د.ت، ج2، ص 818.

[83] ابن كثير، المصدر السابق،ج1، ص 611. البلاذري، فتوح البلدان، ص 68.

لقد أقطع الرسول صلّى الله عليه وسلّم بلال بن الحارث أرضا من العقيق "**ماأصلح فيه معتملا**"[84] و أبا بكر الصديق وعبد الرحمن بن عوف والزبير بن العوام وأبي سلمة بن الأسد وأبو دجانة وسهيل بن حنيف من أرض بني النضير.[85] وقسم أراضي بني قريظة بين المسلمين على السهام.[86]

أخذت إقطاعات الرسول صلّى الله عليه وسلّم وجهتان. إقطاع أراضي لا مالك لها وإقطاع أراضي موات. والجدير بالذكر أن إقطاع الأراضي الموات يحيلنا إلى القول بأنّ الرسول صلّى الله عليه وسلّم قد حثّ على الزراعة وشجّع عليها بجعل الأرض ملكا لمن يحييها، "**فمن أحيا أرضا فهي له**"[87]، يزرعها ويُزارعها ويُؤاجرها ويكري منها الأنهار ويعمرها بما فيه مصلحتها[88].

لقد سعى من له مال من المهاجرين لامتلاك هذه الأراضي. فيُروى أن الزبير بن العوام كان يسأل وبإلحاح بأن يقطعه الرسول صلّى الله عليه وسلّم، فأقطعه "**ركض فرسه من موات النَّقيع [البقيع]، فأجراه ثم رمى بسوطه رغبة في الزيادة. فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أعطوه منتهى سوطه".**[89] بالإضافة إلى ما أقطعه من أراضي زراعية من غير الموات من أراضي بني النضير.[90]

---

[84] ابن شبّة، أبو زيد عمر النميري البصري، *تاريخ المدينة*، تحقيق فهيم محمد شلتوت، د.ن، مكة المكرمة، 1979، ج 1، ص 151.

[85] البلاذري، فتوح البلدان، صص 67-68. العلي، المرجع السابق، ص 194.

[86] البلاذري، فتوح البلدان، ص74.

[87] أبو يوسف، يعقوب بن إبراهيم، *كتاب الخراج*، دار المعرفة، بيروت،د.ت، ص 63.

[88] المصدر السابق، ص 65.

[89] الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، *الأحكام السلطانيّة في الولايات الدينيَّة*، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت، ص 239..

[90] البلاذري، فتوح البلدان، ص 71.

*لئن ذكرت المصادر بإسهاب إقطاعات الرسول صلّى الله عليه وسلّم وإقطاعات عمر بن الخطاب، فإنّها صمتت عن إقطاعات أبي بكر الصديق؛ وربما يعود ذلك لقصر الفترة التي تولاها أبو بكر وما سادها من اضطرابات (حروب الردّة) شغلته عن تولّي هذا الأمر.

تابع الشيخان، أبو بكر وعمر سياسة الرسول صلّى الله عليه وسلّم في إقطاع الأراضي. فأقطع أبو بكر الزبير بن العوام مابين الجرف إلى قناة.[91] أمّا عمر بن الخطّاب فقد أقطع العقيق لخوات بن جبير الأنصاري[92] وقيل إلى الزبير[93] وأقطع عليّا ينبع[94].

لم تقتصر ملكية المهاجرين للأراضي الزراعيّة على ما أقطع لهم بل تذكر المصادر أنّ من التجار من سعى لشرائها إدراكا منهم بأهميتها. فيذكر البلاذري أن الزبير بن العوام قد سعى لشراء أرض خوات ابن جبير التي أقطعه إياها عمر بن الخطاب[95].

واتسعت ملكيات المهاجرين الزراعيّة في مدينة يثرب، وكان أغلبها قد جاء عن طريق إحياء الموات.[96] وقد عملوا فيها واستثمروا فيها أموالهم وأصبحت إحدى أسس معاشهم إن لم نقل أساسه، حتّى أن عمر بن الخطاب قال لرجل قد استعمله على حمى الرّبذة: **"دعني من نِعَم ابن عفان وابن عوف فإنهما أن تهلك يرجعا إلى الزرع."**[97]

انطلاقا من امتلاك التجار المهاجرين للأموال بالإضافة إلى الأراضي الزراعية نطرح السؤال التالي والذي ستكون محاولة الإجابة عليه محور النقطة التالية: ما مدى مساهمة التجار المكيين في نشاط المدينة الزراعي؟

مساهمة التجار المكيين في النشاط الزراعي

باشر التجار المكّيون حالما نعمت المدينة بالهدوء، بعد إجلاء اليهود عنها، العمل في أراضيهم مدركين أهميّة تكامل النشاطين الزراعي والتجاري.

---

[91] البلاذري، فتوح البلدان، ص72.
[92] ابن شبّة، المصدر السابق، ج 1، ص 151.
[93] البلاذري، فتوح البلدان ، ص59.
[94] ابن شبّة، المصدر السابق، ج 1، ص 220. البلاذري، فتوح البلدان، ص62.
[95] البلاذري، فتوح البلدان، ص.59.
[96] ياسين، المرجع السابق، ص 281.
[97] البلاذري، فتوح البلدان، ص 54.

ارتبط النشاط الزراعي بالمياه، فكانت أول ما استقطب اهتمام مالكي الأراضي الزراعيّة توفيرها؛ ولعلّ في ذكر ما وقع من نزاع بين الزبير بن العوام وأحد الأنصار حول الماء ما يعزز ذلك.[98] ولئن لا تقدّم لنا المصادر معلومات وافية عن أعمال الرّي التي أسهم فيها التجار المكيون، ملاك الأراضي الزراعية في الفترة قيد الدرس، فإنه الرجوع إلى بعض الدراسات[99] يحيلنا إلى القول بأن ضرورة توفر المياه في بيئة ذات خصوصيّة زراعيّة ولكنّها قليلة الأمطار حتّمت عليهم العناية بذلك. فكان أن عملوا على حفر الآبار مسخرين في سبيل ذلك الأموال وأدوات العمل وآلاته وقوى عاملة على قدر من الأهميّة، وفقا لصعوبة انجاز مثل هذا المشروع وصيانته الدائمة.[100] وقد شجّع الرسول صلّى الله عليه وسلّم على حفر الآبار فقال أن من حفر بئرا فهي ملكا له لا ينازعه فيها أحد.[101] واتجه مالكو الأراضي إلى مدّ القنوات التي تصل بين الأنهار والأودية وبين أراضيهم، معتمدين في ذلك على تقنيات تجعل من هذه الوسيلة في الريّ ذات جدوى. فكانوا يقومون بغلق فوهة القنوات بعد أن تحصل الأرض على كفايتها من الماء، وفتحها عند الحاجة.[102] وأقاموا السدود للاستفادة من مياه الأمطار.[103] بالإضافة إلى ذلك عمدوا إلى بناء الصهاريج لتخزين المياه، وإن اقتصر ذلك على مناطق البساتين المحيطة بالدور خاصة، فهي تمدّهم بماء الشرب أكثر مما تمدّهم بماء السقّي للمزارع.[104] ولاعتماد الزراعة بالمدينة على مياه الآبار في الغالب وما يتطلّبه استخراج المياه منها بالدلاء من جهد، استعان مالكو الأراضي الزراعيّة بالأيدي العاملة الفلاحية في سقي أراضيهم، وذلك مقابل أجرة يتفقون عليها. واستعانوا في حالات عدم امتلاكهم للآبار بأصحاب الماء، بأنّ

[98] المصدر السابق، صص 56،58.

[99] علي جواد، المرجع السابق، ج 7، صص 157، 215. واطون اندريو، *الإبداع الزراعي في بدايات العالم الإسلامي- انتشار المحاصيل والتقنيات الزراعية مابين عامي (700-1100م)*، ترجمة أحمد الأشقر، مراجعة نذير شكري، منشورات جامعة حلب، معهد التراث العلمي العربي، سوريا، 1985، صص226-228.

[100] علي جواد، المرجع السابق، ج 7، ص 190.

[101] علي، محمد عبد الباقي، "عناية المسلمين بالزراعة ووسائلها في صدر الإسلام" في *مجلة سيرتا*، معهد العلوم الاجتماعية، جامعة قسنطينة، الجزائر، سنة 1، العدد 2، 1979، ص 39.

[102] علي جواد، المصدر السابق، ج 7، ص 200.

[103] علي، محمد عبد الباقي، المرجع السابق، ص 39.

[104] واطون، المرجع السابق، ص 228.

يوجّه لهم هؤلاء الماء وفق معاملة بينهما ألا وهي المساقاة.[105] وكما اعتمد مالكو الأراضي على الأيدي العاملة لسقي أراضيهم فإنهم اعتمدوا عليهم أيضا في زراعتها. فمالكو الأراضي الزراعية المكيّون لم تكن لهم الدراية الكافيّة بتقنيات الزراعة من تنظيف للأرض وشقّها ونثر البذر فيها وحرثها وسقيها ومراقبة إنتاجها وأخيرا حصاده.

ولعّله من الجدير بالتنويه أن الحديث عن اعتماد التجار/ ملاك الأراضي على الأيدي العاملة الفلاحية يحيلنا إلى التساؤل عن مكوّنات هذه الفئة. وإن لم تذكر مصادر الدراسة (المحدّدة بالفترة الزمنيّة 1-23 ه/ 622-643 م) مهاجرين قد عملوا في أراضي التجار المهاجرين كأجراء، فإن محاولة إسقاط ما كان من أمر علي ابن أبي طالب عندما عمل عند أحد اليهود لُيقيت الرسول صلّى الله عليه وسلّم[106]، تدفعنا إلى القول بأن من المهاجرين من عمل في أراضي إخوانهم، فليس كل من هاجر إلى المدينة كان في سِعة، فمنهم من كان لا يمتلك إلا جهده.

انطلاقا من كون ملاك الأراضي الزراعية كانوا تجارا في الأصل و لم يكن باستطاعتهم متابعة أعمالهم التجارية والزراعية في ذات الوقت، فإنهم اعتمدوا بالإضافة لليد العاملة الأجيرة على العبيد[107] الذين كان تواجدهم في الأرض تواجدا مستمرا. ولقد ساهمت حركة الفتوح في عهدي أبي بكر وعمر في استجلاب الأسرى إلى المدينة. وزاول هؤلاء الزراعة لما يملكونه من خبرة ودراية وقد كانوا قد جاؤوا من مناطق زراعية كالشام والعراق فأدخلوا تطورات وتقنيات جديدة في الحرث والبذر وتسميد التربة. كما لا يفوتنا أن نذكر أن التقنيات الزراعيّة لم يستجلبها الأسرى والداخلون في الإسلام (الموالي) فحسب بل عمد التجار من خلال تنقلاتهم استقطاب كل جديد لتطوير أعمالهم سواء كانت تجارية أو زراعيّة.

---

[105] المساقاة هي معاملة على الماء وتتمثل في "أن يستعمل رجل رجلا في نخيل، أو كروم ليقوم بإصلاحها على أن يكون له سهم معلوم مما تُغِله." أبو جيب، سعدي، *القاموس الفقهي لغة واصطلاحا*، دار الفكر، دمشق، 1982، ص 167.

[106] ابن الجوزي، المصدر السابق، ج1، ص 320.

[107] ورد في صفوة الصفة ذكر لعبد نوبيّ كان عند أبي بكر الصديق، ابن الجوزي، المصدر السابق، ج 1، ص 265.

لقد انبثق عن النشاط الزراعي بالمدينة عدّة معاملات زراعيّة منها المساقاة والمزارعة والمخابرة وإكراء الأرض... وهي تتم وفق عقود ومواثيق بين أصحاب الأراضي وبين من سيقومون بالعمل فيها. وقد ورد في كتب الحديث ذكر لهذه المعاملات، التي لم تكن وليدة للإسلام بل كانت امتداد لما كان قبله، فمنها ما نهى عنها ومنها ما أقرّها.

فالمساقاة - التي أشرنا إليها في موضع سابق- فهي المعاملة على الماء بأن يقوم مالك الماء بسوقه نحو أرض زراعية لا يمتلك صاحبها وسيلة ريّ، ويكون ذلك باتفاق بينهما على جزء من الإنتاج. ولا يقتصر صاحب الماء في توجيه الماء إلى ارض واحدة بل إلى عدد من الأراضي، ذلك أن حاجة الأرض الواحدة إلى الماء لم تكن مستمرة. ولقد جرّ هذا الاشتراك في الماء إلى العديد من النزاعات بين أصحاب الأراضي، فكل واحد منهم يحاول الحصول على القدر الأكبر من ساعات الري. ولقد ورد في النصوص ذكر لهذه الخصومات.[108]

أمّا المزارعة فهي اتفاق بين مالك الأرض وبين المزارع على أن يقوم الثاني بالزرع مقابل نصيب معلوم يحدد بينهما.[109] ويقول جواد علي أنّها "**المعاملة على الأرض ببعض ما يخرج منها ويكون البذر من مالكها، فإن كان من العامل فهي مخابرة.**"[110] كما فسّر هذه الأخيرة، عطاء بن أبي رياح بقوله أنها "**الأرض البيضاء يدفعها الرّجل إلى الرجل فينفق فيها ثم يأخذ الثمر وفي رواية له والمخابرة الثلث والربع وأشباه ذلك.**"[111] وجاء في سنن أبي داود أن المخابرة تكون على الزرع وأن المزابنة تكون على النخل غالبا.[112]

---

[108] المصدر السابق، ص 58.

[109] أبو داود، المصدر السابق، ج 3، ص 262. المزارعة معاملة زراعية وهي عقد على الزرع ببعض الخارج. أبو جيب، المرجع السابق، ص 158

[110] علي، جواد، المرجع السابق، ج 7، 217. ويطلق على هذه المعاملة أيضا المحاقلة. أبو جيب، المرجع السابق، ص 95.

[111] اليوسفي، المصدر السابق، ج 5، ص 478.

[112] المصدر السابق، ج 5، ص 477.

تحيلنا هذه المعاملة على الأرض (المزارعة والمخابرة) إلى معاملة زراعية أخرى، ألا وهي إكراء الأرض. وهي استئجار من لم تكن له أرض أرضا لمدّة محدودة على أن يتعهدها بالعمل ويزرعها ويكون نصيب صاحب الأرض حصّة من الإنتاج يتفق عليها بينهما، **"قال سعد كنا نكري الأرض بما على السواقي من الزرع."**[113]

لقد ورد في كتب الحديث نهي الرسول صلّى الله عليه وسلّم عن المزارعة، **"فعن رافع بن حديج، قال أن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم نهى عنها."**[114] إلاّ أن ابن عبّاس يفنّد ذلك بقوله **"أن الرسول صلّى الله عليه وسلّم لم ينه عنها ولكنّه قال : فإن يمنح أحدكم أرضه خير من أن يأخذ عليها أجرا معلوما، وفسّر أن النّهي على الكراء لم يكن قطعيّا، ذلك أن الرسول صلّى الله عليه وسلّم أقرّ كراء الأرض بذهب وفضة."**[115] فكراء الأرض على الثمر يخل فيه الغرر، لعدم العلم بما سيكون عليه الإنتاج. ويحيلنا هذا النّهي إلى التساؤل التالي: كيف نهى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم عن المزارعة، وخابر أهل خيبر على نصف ما تنتجه أرضهم.[116] ولعلّ في نهي الرسول صلّى الله عليه وسلّم على هذه المعاملات الزراعيّة (المزارعة، المخابرة، المزابنة) ما يردنا إلى ما قد يقع بين مالكي الأراضي والمزارعين من خصومات حول الأنصبة.

تعدّ المعاملات الزراعيّة التي سبق ذكرها شكل من أشكال الاستثمار الزراعي. ولئن اعتمد مالكو الأراضي على الأجراء والعبيد والموالي في أعمالهم الزراعية، فإنهم لم يعاملوهم معاملة أقنان الأرض. فالرسول صلّى الله عليه وسلّم حضّ على الإيفاء بحق الأجير بقوله **"أعطي الأجير أجره قبل أن يجف عرقه."** وقد وفّرت المعاملات الزراعيّة للمزارعين أمانا أكثر ربما لأنّها تعتبر مرحلة راقية في التعامل بين أصحاب الأرضي وبين المزارعين. وقد دفعهم ذلك إلى تحسين الإنتاج خاصة وأن جزءا منه سيكون من نصيبهم.

---

[113] أبو داود، المصدر السابق، ج3، ص 258.

[114] المصدر السابق، ج3، ص 260.

[115] المصدر السابق، ج3، صص 258، 261.

[116] البلاذري، فتوح البلدان، ص 78.

كان لامتلاك التجار المكيين الأراضي الزراعيّة أهمية اقتصادية ذات بال، فإلى جانب كون هذه الأراضي قد فتحت إمامهم المجال لاستثمار أموالهم، فإنّها أسهمت في حركت السوق بتلبية حاجياته الغذائية التي كانت في ازدياد مطّرد نتيجة استقطاب المدينة للعديد من الفئات الاجتماعية وكذلك للتطور الذي طرأ على المجتمع اليثربي بورود مكاسب الفتوح وازدياد ثراء هؤلاء التجار ملكي الأراضي الزراعيّة وغيرهم من سكان المدينة. كما لا ننسى أن امتداد رقعة الدولة الإسلامية وانتشار الإسلام قد أدى إلى استقطاب جمع غفير من الحجيج والمعتمرين الذين يفدون على مكة كما يفدون على المدينة. فعمل أصحاب الأراضي على توفير الغذاء لهم فترة إقامتهم.

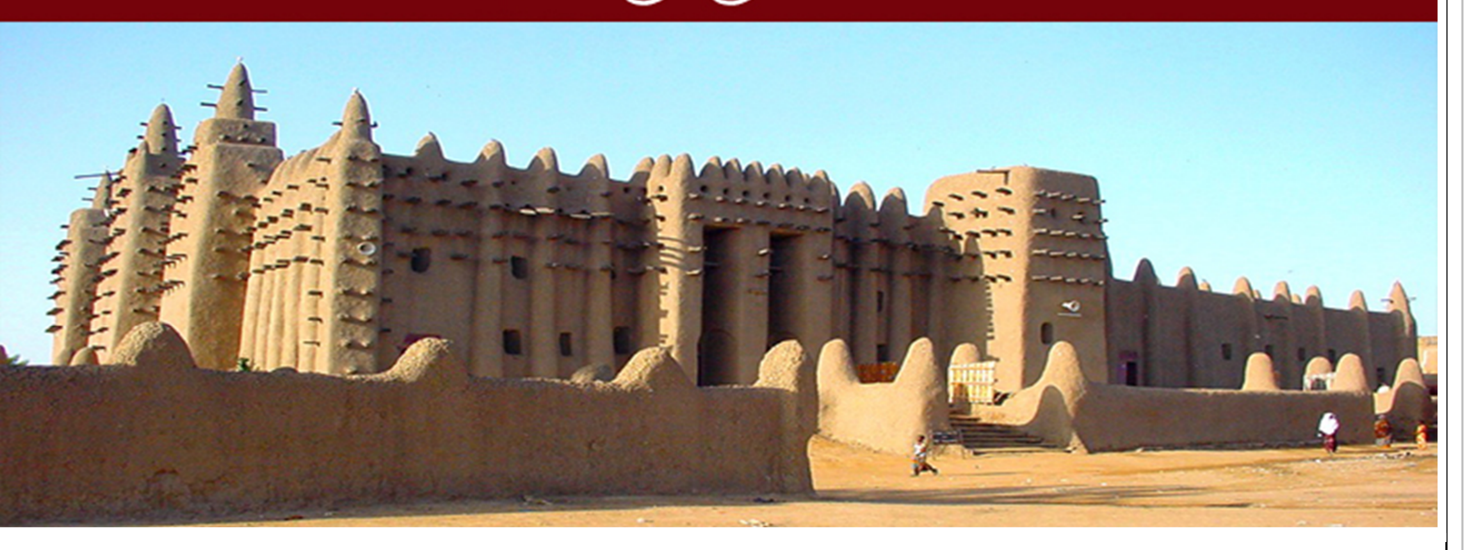
كانت مساهمة التجار المكيين في النشاط الزراعي في المدينة قد جعل منها مركزا إنتاجيا زراعيا وسوقا لتوزيع هذا الإنتاج داخلها وخارجها؛ فيُذكر أنه "**كان يحمل من مكة والمدينة والحجاز كل عام من العنبر ثمانون رطلا ومن الزبيب ثلاثمائة راحلة. ومن الطبيعي لكي تقوم صناعة تجفيف الزبيب على نطاق واسه لابدّ من أن يكون الإنتاج الزراعي ذا طابع اقتصادي-تجاري.**"[117]

لقد ازداد اهتمام التجار بالنشاط الزراعي بتواصل حركة الفتوح لمناطق زراعيّة؛ فاتجهت أنظار العديد منهم نحو الشام والعراق... وسعوا لامتلاك الأراضي بهما وتوسيع نشاطاتهم. وتذكر المصادر التاريخية معلومات ضافية عن هؤلاء التجار خاصة في أواخر عهد عمر بن الخطاب وعهد عثمان بن عفان، ومن بينهم الزبير ابن العوام وطلحة بن عبيد الله.

إن سعي تجار مكة لاستثمار أموالهم الزراعية إلى جانب التجارة لَيدحض الرأي القائل بأن العرب المسلمين لم يكونوا عنصرا فعالا في ميدان الزراعة رغم ما توفره من استقرار، لانشغالهم بالحروب والجهاد وما تحققه لهم من أموال متمثلة في الغنائم.

[117] خليل، المرجع السابق، ص 44.

أعمال مترجمة





عبد القادر مباركية
جامعة عباس لغرور
خنشلة الجزائر.



تاديوش لوفيتسكي

"دولة سودانية وسيطة غير معروفة: مملكة زافون(و)"

الملخص:

حاول الباحث في هذا المقال أن يكشف الغطاء عن مملكة سودانية عاشت خلال العصر الوسيط وكادت أن تختفي من المصادر التاريخية بسبب خطأ بسيط في كتابة اسمها، في مقاله هذا عاد الكاتب إلى كل النصوص التاريخية والجغرافية التي اهتمت بذكر هذه المملكة وصحّح تسميتها استنادا إلى تخمينات منطقية ثم جاء ليفصّل في تاريخ هذه المملكة وموقعها ضمن التجارة السودانية وعلاقاتها مع بلاد المغرب. قدرة الباحث على التحليل وتتبع المعلومات كان لها أثر كبير في نسج هذا المقال وإعادة مملكة إلى الوجود بعدما هددها النسيان والتجاهل. 118

---

[118]- عنوان النص الأصلي:

-Monsieur Tadeusz Lewicki, Un État soudanais médiéval inconnu : le royaume de Zāfūn(u).In: Cahiers d'études africaines. Vol. 11 N°44. 1971. pp. 501-525.url :

Abstract :

The researcher tried in this article to reveal the cover for the kingdom Sudanese lived during the middle ages and almost disappear from historical sources because of mis-typing. In this article the researcher returned to all geographical and historical texts, which focused on the remembrance of this kingdom and correct the call, based on the logical guesses, then he came to delve deeper into the history of this kingdom and its location within the Sudanese trade and its relationship with Maghreb. The researcher's ability to analyze and track informations had a significant impact in this weave, and bring the kingdom into being after he threatened her forget fullness and ignorance.

ياقوت (1179-1229م) عالم لامع ورحّالة عربي، إنه مؤلف معجم جغرافي كبير هو معجم البلدان[119]، الذي أتمه بين (1218-1224م)[120]. ضمن معلوماته المختلفة، نجد بعض المعلومات المهمة حول الأمكنة، البلدان وبعض شعوب الصحراء والسودان الغربي على الخصوص منه في الأوسط. توجد هذه المعلومات في حوالي عشرين موضعا من معجم البلدان، جزء منها مبنيّ جزئيا أو كليا على المعطيات الموجودة في المؤلفات الجغرافية العربية للقرنين 10-11م مثل ابن الفقيه الهمداني، المهلبي، ابن حوقل والبكري، وفي أغلب الأحيان فهي معطيات أصلية. لقد استخدم ياقوت روايات شفوية استقاها من إخباريّين مجهولين، وهي على الأرجح روايات رحّالة وتجار زاروا الصحراء وبلاد السودان ومن المحتمل أن مؤلف المعجم قد التقاهم في إحدى المدن التجارية الكبرى بمصر، سوريا أو العراق. تبدو المعلومات المستقاة من الإخباريين أكثر دقة من تلك المستخرجة من المصادر المكتوبة. على العكس من أوصاف الصحراء وبلاد السودان الموجودة في الكتب الجغرافية المنسوبة إلى ابن حوقل والبكري وكذلك في كتاب روجر الإدريسي (1154م)، وهو غير معروف

---

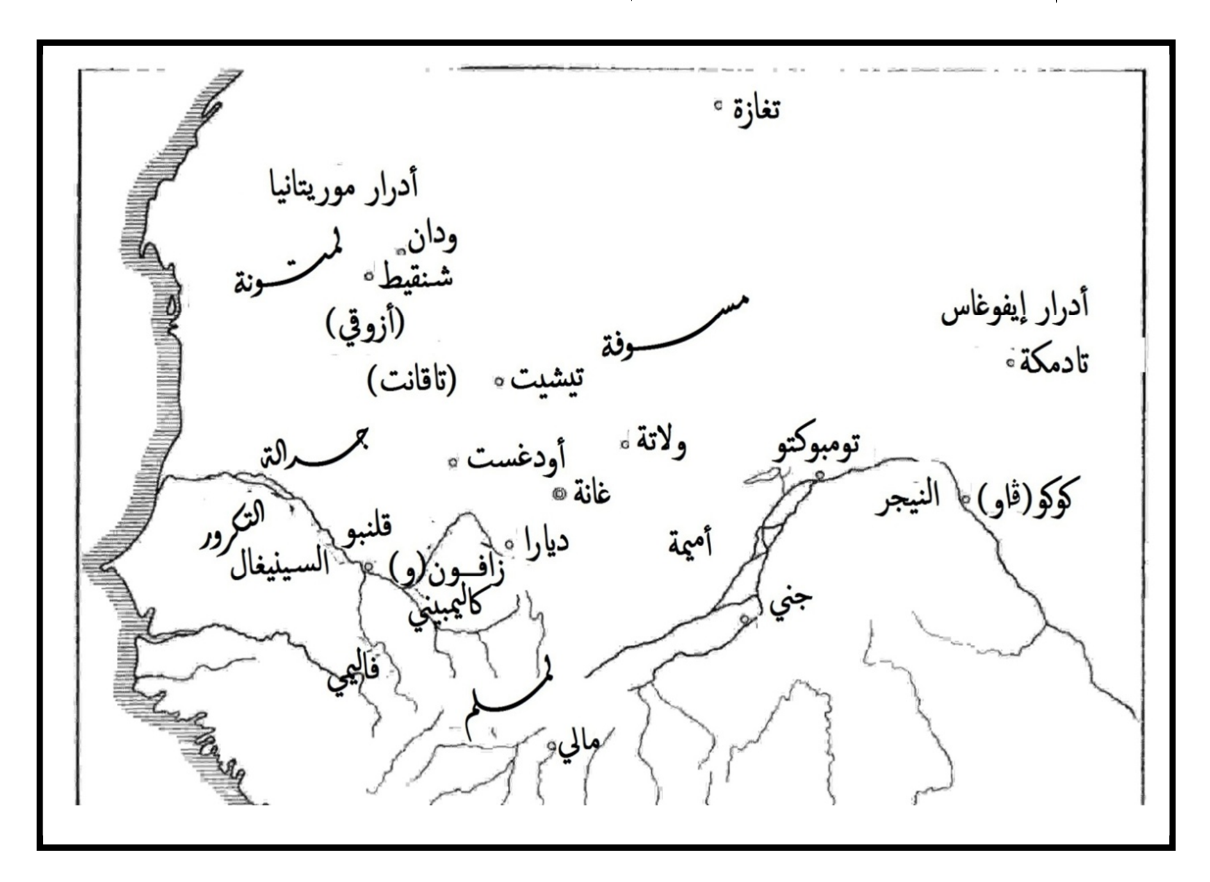
http://www.persee.fr/web/revues/home/prescript/article/cea_0008-0055_1971_num_11_44_2781

(119)- -F. Wüstenfeld, *Jacut's geographishes Wörterbuch*, Leipzig, 1866-1870, I-IV, passim.

(120)- ينظر حول هذا الكتاب:

I. Y. Krackovsky, "Arabskaya geograficeskaya literatura" *in Izbrannye socineniya Moscou-Leningrad*, 1955-1960, IV, pp 330-342; G WIET, *Introduction la littérature arabe*, Paris, 1966, pp. 207-208; LEWICKI, *Arabie External Sources for the History of Africa to the South of Sahara,* Wroclaw-Warszawa- Krakow, 1969, pp.68-70.

لدى ياقوت—أوصاف مترجمة ومعلّق عليها مرات عديدة من قبل المستعربين والأفارقة- فإن المعلومات التي تضمنّها معجم البلدان جذبت نسبيا شيئا من الاهتمام لدى المؤرخين المعاصرين.



من بين المنشورات التي أشارت إلى هذا الكتاب، نذكر كتابين جديرين بوقفة خاصّة. الأول ألّفه العالم المصري يوسف كمال الذي استشهد- وقد ضمنّاهم في ترجمة فرنسية للأسف تفتقد إلى تعليقات- بمواضع من نصوص مستخرجة من كتاب ياقوت تتعلق بمواضع بلدان، وشعوب إفريقيا(121). النشريّة الأخرى وهي أكثر أهمية من مؤلّف يوسف كمال تتمثل في الترجمة الألمانية للعالم الألماني المشهور المهتم بالشؤون الإفريقية ي. دامان(122). صحيح أنّ هذا الأخير انصبّ جهده على ترجمة حوالي ثمانية مقالات من المعجم الجغرافي لياقوت متعلقة بإفريقيا السوداء—"التبر"، "تكرور"، "زغاوة"، "غانة"، "كانم"، "كناوة"، "كوكو"، و"كوار"- لكنه أرفق ترجمته بعدد من تعليقات ذات أهميّة كبيرة بفضلها أصبح فهم المعلومات الموجودة في تلك النصوص أكثر سهولة.

(121)- Youssouf Kamal, *Monumenta cartographica Africae et Aegypti*, Leyde, 1932-1934, III, f^{0} 948 r^{0}-956 v^{0}, passim.

(122)- E. Dammann, *Beiträge zur arabischen Quellen zur Kenntnis des negerischen Africa*, Bordesholm, 1929, passim.

بالنسبة للمقالات التي مضت بصمت ضمن ترجمة دامان والتي تُركت دون تعليق في النشرية غير المكتملة ليوسف كمال، فالمكانة الأولى التي تعود للفظة زافون مهمة جدا لمعرفة تاريخ السودان الغربي وعلاقاته مع إفريقيا الشمالية خلال ق 12م. وهي فترة التجزئة السياسية لهذه المنطقة بعد انهيار دولة غانة في سنة 1076م الآهلة من طرف اثنية السونينكي ذات الاعتقاد الإحيائي. قبل أن تدمّر من قبل المرابطين البربر المسلمين[123]، امتدت سلطة هذه الدولة على كل أراضي السودان الغربي وأصبح تاريخها بعد 1076م نوعا ما غير معروف. قدّم لنا البحث الجغرافي للإدريسي في هذا الموضوع معلومة واحدة والتي من خلالها في سنة 1154م –يعني في فترة تأليف هذا الكتاب- أصبحت دولة مستقلة وقوية تحكمها عائلة دخلت الإسلام ومن أصول سونينكية، وممثليها يعودون إلى خلفاء علي صهر النبي (ص)[124]. في وصفه للسودان الغربي كتب الإدريسي أن ملوك غانة في منتصف القرن 12م قد بسطوا سيطرتهم على قسم كبير من هذه المنطقة وأشار إلى بعض الدول التي نجحت في الحفاظ على استقلالها. وفقا لمعيار معين بقيت هذه المعلومات محل جدال بسبب وجود رواية شفوية سونينكية. من خلال هذه الرواية فقد تجزأت مملكة غانة في القرن 11م إلى كيانات مستقلة كثيرة تشغل فيها مملكة الصوصو مقاطعة كانياڤا والأقاليم القريبة، ثم المملكة التي أسستها سلالة دوكوري على أراضي مقاطعات واڤادو وباكونو. وكذلك الدولة التي أسّستها سلالة نياكاتي وعاصمتها مدينة ديارا الواقعة في مقاطعة كينجي. ذكرت الرواية كذلك ممالك أخرى قامت على أنقاض غانة، يبدو أنها تأسّست كلها في نهاية القرن 11م من قبل سونينكيين هاجروا من هذه الدولة إلى أراضي محتلة من طرف مواطنيهم الذين استقروا هناك منذ زمن بعيد[125]. بالنسبة لغانة وبكل وضوح يمكننا القول أن الرواية التي استشهدنا بها سابقا تؤكد أنه في بداية القرن 12م كانت هذه المملكة صغيرة والوضعية لم تتحسن إلى الأفضل إلا في منتصف هذا القرن. في سنة 1203م ضُمّت غانة إلى مملكة الصوصو هذه الأخيرة بدورها احتلها ملوك مالي في سنة 1240م. خلال القرن 13م ألحقها هؤلاء الأخيرين بمملكة غانة لاسترجاع الوحدة السياسية للسودان الغربي في بداية القرن 14م وأسسوا مملكة اتسعت حدودها كثيرا عن حدود غانة خلال القرنين 8-9م أي في فترة ازدهارها[126].

واحدة من الممالك السودانية التي حققت أو استعادت استقلالها نتيجة لاحتلال غانة من قبل المرابطين في سنة 1076م هي مملكة زافون التي عرفنا وجودها بفضل المعجم الجغرافي لياقوت.

---

[123]- حول هذا الموضوع ينظر:

M. Delafosse, *Haut-Sénégal-Niger*, Paris, 1912, I, pp 122-124 et II, pp 12-59 et 154-170 ; R, Cornevin, *Histoire des peuples de l'Afrique noire*, Paris, 1960, pp. 242-247.

[124]- R. Dozy et M. J. de Goeje, *description de l'Afrique et de l'Espagne par Edrisi:texte arabe publié…avec une traduction*, *des notes et un glossaire*, Leyde, 1866, texte arabe, pp.5-11, trad. Franç. pp.6-11.

[125]- Delafosse, II, pp 55-56 et passim, Cornevin, p. 246.

[126]- Ibid, II, pp. 55-56 et passim, Cornevin, pp. 246-249.

قدم مؤلف معجم البلدان وصفا كبيرا لزافون في الفصل الذي يحمل العنوان نفسه(127)، بالإضافة إلى إشارة مقتضبة حول هذا البلد توجد كذلك إشارة في النص الذي تناول مدينة غدامس في ليبيا(128).

النص الأول: "زافون ولاية واسعة في بلاد السودان المجاورة للمغرب متصلة ببلاد الملثمين لهم ملك ذو قوة وفيه منعة وله حاضرة يسمونها زافون وهو يرتحل وينتجع مواقع الغيوث، وكذا كان الملثمون قبل استيلائهم على بلاد المغرب وملك الزافون أقوى منهم وأعرف بالملك، والملثمون يعترفون له بالفضل عليهم ويدينون له ويرتفعون إليه في الحكومات الكبار وورد هذا الملك في بعض الأعوام إلى المغرب حاجّا على أمير المسلمين ملك المغرب اللّمتوني الملثم فتلقّاه أمير المسلمين مترجّلا و لم يترل له زافون عن فرسه، قال من رآه بمراكش يوم دخوله إليها: وكان رجلا طويلا أسود اللون حالكه، منقّبا، أحمر بياض العينين كأنهما جمرتان، أصفر باطن الكفين كأنهما صبغتا بالزعفران عليه ثوب مقطوط متلفع برداء أبيض، دخل قصر أمير المسلمين راكبا وأمير المسلمين راجلا بين يديه". (النص مأخوذ من المصدر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، بيروت، دار صادر، 1988، ج3، ص:127)

لكن من الإشارة الموجودة في نص غدامس ينتج أن هذه المدينة تقع في الجزء الجنوبي للمغرب وعلى طريق بلاد السودان وكلها تقع على الضفة الأخرى من بلد زافون. دون شك تم استقاء هذه المعلومة من شخص وصل إلى زافون عبر المغرب الأقصى والصحراء الغربية يعني من الشمال الغربي ما يدل على وجود طريق آخر يربط هذا البلد بغدامس وبذلك يتجه نحو الشمال الشرقي لزافون. هذه القطعة لا تبدو واضحة كما ينبغي لذلك لن نأخذها بعين الاعتبار في تصوّراتنا اللاحقة.

دون جدال فالرواية حول مملكة وملك زافون(129) المنقولة بواسطة معجم البلدان أصلية إذ هي غير موجودة في أيّ من المؤلفات التي اعتمد عليها ياقوت في كتابه. كذلك لابد من الإشارة (على الأرجح من وسيط ثالث) إلى أن هذه الرواية الشفوية لإخباري مجهول ودون شك استقى منه الرواية المتعلقة بدخول ملك زافون إلى مراكش. ومن جهة أخرى هذه الرواية مؤرخة بفترة قديمة جدا عن زمن تأليف معجم البلدان. ومثلما ينتج من النص الذي سأستشهد به فالرواية التي تهمنا تعود إلى المرحلة التي حكم فيها المرابطون بلاد المغرب. في الواقع لا يوجد إلا أمير واحد من هذه السلالة يستطيع الاختفاء تحت اسم اللمتوني الملثّم وأمير المسلمين مثلما يسميه ياقوت الملك الذي يحكم مراكش في زمن زيارة ملك زافون. تنحدر سلالة المرابطين وتنتمي في الأصل إلى القبيلة البربرية لمتونة التي استقرت خلال العصر الوسيط في الصحراء الغربية وفي الوقت

(127)- Wüstenfeld, II, p. 980.
(128)- Ibid, III, p. 776.
(129)-يوسف كمال (III f° 960 r°) حيث كتب هذا الاسم زافونو بوضع الواو في نهاية الكلمة اعتمادا على ياقوت.

نفسه اكتسبت مركز قبلي في منطقة أدرار الموريتانية[130]. من هنا جاء اسم "أمراء لمتونة"[131] أو بكل بساطة "لمتونة"[132] التي قدّمها الكتّاب العرب القروسطيين لأمراء العائلة المرابطية. قبيلة لمتونة من بين القبائل البربرية المستقرّة في الصحراء الغربية والوسطى والتي يسميها الكتّاب العرب القروسطيين الملثمون (مفرده. الملثم)، والذي يعني "واضع اللّثام" من الاسم العربي لثام، "حجاب يعمل على تغطية أسفل الوجه وخاصة الفم"، وبذلك فهذه الكنية "واضع اللثام" (الملثّم)، استخدمت لوصف الأمير المرابطي الذي أشار إليه ياقوت. أود هنا أن أذكّر أن الإدريسي وهو جغرافي عربي من ق 12م كذلك يسمي أمراء العائلة المرابطية بالملثمين[133] وأن المؤرخ ابن خلدون في حديثه عن دولتهم بالمغرب وإسبانيا يطلق عليهم تسمية "دولة الملثمين"[134]. كذلك تجدر الإشارة إلى أن الرواية المتضمّنة وصول ملك زافون إلى مراكش والتي استخدم فيها ياقوت وصف ملك ومملكة زافون والموجودة في معجم البلدان مؤرخة –الروايتين- بفترة حكم العائلة المرابطية للجزء الغربي من بلاد المغرب يعني في سنوات 1053-1147م.

من جهة أخرى تتضح لي إمكانية تحديد هذه الفترة وربطها بالربع الأخير من القرن الذي حكم فيه المرابطون، يعني في زمن انهيار سلطتهم. من الأفضل أن نتحدث عن هذه الفرضية الأخيرة لوصف الصورة المحفوظة لملك زافون من قبل الأمير المرابطي الذي يبقى اسمه بالنسبة لنا مجهول. استقبال لا مثيل له كهذا مطبوع باحترام مبالغ فيه إن لم يكن تذلّلا مبتذلا للملك الأسود من قبل هذا الأمير لم يكن واردا في فترة الحكم اللاّمعة ليوسف بن تاشفين (1061-1107م) وحتى كذلك في بداية حكم ابنه علي بن يوسف (1107-1143م). إلى هنا سقطت سلطة المرابطين زمن يسير بعد قدوم المهدي بن تومرت (1121-1130م) وخليفته عبد المؤمن المؤسّس المستقبلي لدولة الموحدين الذي باشر أنشطته منذ 1128م. هؤلاء رفعوا الأسلحة في أيديهم ضد آخر أمراء المرابطين فهيّجوا الخمسة والعشرين سنة الأخيرة من حكم هذه العائلة[135]. ولوضع حد لهذه الثورات المستمرة من قبل القبيلة الجبلية القوية مصمودة، أصبح المرابطون بحاجة إلى كميات معتبرة من

([130])- Ibn Khaldoun, *Histoire des Berbères*..., trad. de l'arabe par le Baron de Slane… Nouvelle édition publiée sous la direction de Paul Casanova..., Paris, 1925-1956, II, pp 67-86 *et passim* ; R Mauny, *Tableau géographique de l'Ouest africain au Moyen Age*, Dakar, 1961, pp. 456, 521-522, passim.

([131])- Ibn Khaldoun, II, p. 175.

([132])- Dozy et De Goeje, texte arabe, p. 68 trad. franç, p. 78. Ibn Khaldoun, II, pp. 173 et 175.

([133])- Dozy et De Goeje, texte arabe, p. 66 et 67 trad. franç, pp.76 et 88

([134])-. Ibn Khaldoun, II, p. 110.

حول سلطان الملثمين (المرابطين) ينظر قطعة من كتاب الجغرافيا في الأقاليم السبعة لابن سعيد (ق.8م). In Kamal, III, f^{0}1083.

([135])- A.Bel, « Almohaden », in Houtsma et al. *Enzyklopaedie des Islam*, Leyden-Leipzig, 1913, 1, pp. 332-333.

الأموال وهذا يشرح جيدا وبوضوح الخضوع المتكلّف والمتبنّى لاحترام ملك زافون من قبل الأمير المرابطي الذي تحدث عنه ياقوت. في الواقع هذه الدولة الأخيرة كما قلت سابقا متاخمة لواحد من الأقاليم الرئيسيّة من السودان الغربي الغنية بالذهب، كما شكلت واحدة من المصدّرين الكبار للذهب ومواد سودانية أخرى مبحوث عنها كثيرا مثل: العبيد، العاج، خشب الأبنوس، إلخ...نحو بلدان المغرب. يشتري هذه المواد في عاصمة زافون التجار المغاربة القادمين من المراكز التجارية الرئيسية للدولة المرابطية مثل مقاطعة السوس الأقصى في جنوب المغرب الأقصى وناحية سجلماسة وتافلالت في الجنوب الشرقي من هذا البلد. كذلك ومع الأخذ بالحسبان كل ما قلناه سابقا فإنه يجدر بنا تحديد فترة تحرير رواية زافون التي استخدمها ياقوت في سنوات 1121-1147م. من جهة أخرى من المرجّح أن شاهد العيان على دخول ملك زافون إلى مرّاكش قد التقى بياقوت شخصيا. ومن موضع آخر يمكن الاعتقاد أن روايته قد انتقلت إلى مؤلف معجم البلدان عبر وسيط ثالث، والذي من الممكن أن يكون أكثر شبابا من الشاهد لكن أسنّ من ياقوت.

نحاول الآن أن نكتشف في أي جزء من السودان الغربي يمكن أن تتواجد فيه مملكة زافون. من خلال معجم البلدان فإنها ستكون قريبة من المغرب- في العصر الوسيط منح هذا الاسم للشمال الغربي من إفريقيا- وتتاخم بلدان الملثمين. تمنح المصادر العربية الوسيطة هذا الاسم للقبائل البربرية المستقرة بالصحراء الغربية والوسطى والتي من بينها قبيلة لمتونة التي ينحدر منها المرابطين. مثلما أشرت إليه في الأعلى فإن اسم الملثمين الذي منحه إياهم العرب جاء من باب التفاصيل المميزة لثياب رجال هذه القبيلة وهو وجود لثام يغطي الوجه وخاصة الفم. هذا اللثام لا يزال يوضع اليوم من قبل فروع هؤلاء البربر البدو الصحراويين وخاصة من قبل التوارڤ (أظن هنا في حلف توارڤ الأهقار، آجر، أوليميدن، كال وي) وعندهم تم أخذ الاسم البربري (تاماهق) لـــــــــــ تغلماست. إنها قطعة من قماش رقيق متجعد طويلة وضيقة يلفها التوارڤ حول الرأس بهدف تغطية الجبهة والفم، الأعين فقط تبقى غير مغطاة. لثام كهذا لا يمكن أن يضعه إلاّ الرجال البالغين. الرجال الأشراف لهم حق وضع ألثمة سوداء أو زرقاء، بينما القبائل التابعة والعبيد السود فعليهم القبول بألثمة بيضاء أو مختلطة[136]. الوصف الوحيد للثام الذي يضعه رجال القبائل البربرية الصحراوية ما نجده في المصادر العربية الوسيطة التي اعتمدت على البكري، جغرافي عربي كتب في 1068م. لقد قدم لهذا اللثام الاسم العربي "النقاب" وكله يؤكد أن هذا النقاب-لا يسمح برؤية سوى الأعين- يغطي الوجه أكثر من اللثام[137]. ليست لي هنا نية الاشتغال على أصل هذه العادة البربرية، والمهتمون سيجدون معلومات في دراسة

([136])- R. Corso, « Il velo dei Tuaregh », *Annali. Istituto Universitario Orientale di Napoli*, Nuova Serie, III, 1949, pp 151-166.

([137])- أبو عبيد البكري، وصف إفريقيا الشمالية، النص العربي، نشر دوسلان، ، ط2، 1911، الجزائر، ص:148-170.
Description de l'Afrique septentrionale par El-Bekri, trad. par DE SLANE, éd revue Alger, 1913, pp. 283 et 321.

واسعة مخصّصة لهذه الإشكالية للباحث الإيطالي ر. كورصو[138]. دائما أود أن أذكّر هنا بعادة وضع اللثام الملاحظة لدى رجال قبيلة أنبية التي تسكن مجالات موريتانيا الحالية قرب السودان الغربي، وهو ما أكده اليعقوبي مؤرخ وجغرافي عربي عاش في نهاية ق 9م[139]. الرحالة ابن حوقل الذي قام بجولة في الصحراء الغربية في منتصف القرن 10م لاحظ مما لاحظه هذه العادة عند رجال قبيلة مسوفة في ناحية ولاتة وتغازة وكذلك لدى رجال قبيلة صنهاجة (زناقة)[140]. تبعا لمؤلّفين عرب قروسطيين آخرين من بين قبائل الملثمين تصطف كذلك قبيلة جدالة ولمتونة وهم شعوب البدو المستقرين على أراضي موريتانيا الحالية[141]. يسكن الصحراء الوسطى قبائل أخرى من "واضعي اللثام" وخاصة لمطة في الهقار الحالي وطارقا التي جاء منها اسم الطوارق اليوم[142]. من بين واضعي اللثام يوجد كذلك سلطان بربري لمملكة تاكدا في منطقة إير الحالية[143]، ومن جهة أخرى كل الشعوب البربرية التي تسكن الصحراء من الأطلسي إلى غدامس[144].

بالنسبة للحدود الجنوبية للمجالات الصحراويّة الآهلة في العصر الوسيط بالبربر الرّعاة "ملثّمون" يظهر أنهم يتبعون خط المطر 300 ملم/س والذي حسب ر.موني يفصل الصحراء الجنوبية والساحل الشمالي عن الساحل الجنوبي[145]. شكلت المنطقتين الأوليين مجالا للرعاة البيض[146] المستقلين أو في بعض الأحيان تابعين بصورة متراخية لدول سودانية كبرى. بالضبط هذه المجالات كانت في العصر الوسيط آهلة بالقبائل البربرية المعروفة باسم "الملثمين". على العكس ساحل الجنوب الممتد بين خطّي المطر 300 و600 ملم وكذلك

حول النقاب ينظر:

Dozy, *Supplément aux dictionnaires arabes*, Leyde-Paris, 1927, II, p. 707.

حول اللثام الذي يضعه العرب القدامى في القرن 8م:

Masôudi, *Les prairies d'or*, texte et traduction par Barbier de Meynard et Pavet de Courteille, Paris, 1861-1877, IV, p. 334.

(138)- Corso, *passim*.

(139)- « Kitâb al-Boldân auctore Ahmed ibn abi Jakûb ibn Wâdhih al-Kâtib al-Jakûbî », in M.J.De Goeje, *Bibliotheca Geographorum arabicorum Lugduni Batavorum*, 2e éd. 1892, p. 360.

(140)- J.H.Kramers, *Opus geographicum auctore Ibn Haukal*... Lugduni Batavorum, 1938, p. 102 ; Ibn Hauqal, *Configuration de la terre (Kitab surat al-ard)*, trad par J.H.Kramers et G. Wiet, Beyrouth-Paris, 1964, p. 100.

(141)- Ibn Khaldoun, II, pp. 64 et 104.

(142)- Ibid, I, 275. et II, p. 64.

(143)- Ibid. II, p. 116.

(144)-ينظر المؤلف الجغرافي المجهول للقرن 12م المسمى كتاب الاستبصار. In Kamal, III, f⁰ 910 v⁰.

(145)- Mauny, pp. 216-219.

(146)- Ibid, p. 217.

مثّلت المنطقة السودانية الشمالية القريبة من الجنوب والتي تمتد إلى خط المطر 1000 ملم جزء من مجال دول سودانية كبرى: مثل تكرور، السنغال الحالي، غانة، ڤاو، يعني السونغاي، كانم بورنو، وممالك الهوصا. إنها منطقة الزراعة (يزرع خاصة الذرة البيضاء، السمسم) فيها نسبيا تلعب الزراعة دورا هاما بسبب التدهور المتفاوت ومحدودية الأراضي الخصبة. القسم الأكبر من هذه الأراضي مناطق للرّعي إذ تعد تربية الأبقار والأغنام العنصر المهم في الاقتصاد المحلي[147]. إذن هنا يجب أن نبحث عن دولة زافون التي فيها السلطان حسب ياقوت "يعتمد على حياة البدو، ويضع جنوده في الفضاءات الفلاحية المغلقة" ويملك إقامة ثابتة. نضيف إلى هذا أنه في الأراضي الصحراوية الجنوبية وفي الساحل الشمالي تنتشر القبائل البربرية نحو الشرق -الطوارق اليوم- لم يتجاوز إطلاقا السواحل الشرقية لكتلة إير. كذلك يجب أن نحدد المجالات التي فيها يمكننا تحديد موقع بلاد زافون القريب من هذه القبائل والمتاخم للصحراء وللسودان الواقعتين غرب 10°. موقع أكثر دقة لزافون في قطعة من الأرض طويلة كذلك ربما ممكنة بفضل وجود معلومات أخرى حول هذا البلد وهي معلومات متوزعة في مصادر عربية متعددة للقرنين 11-15م. ومن جهة أخرى جزء فقط من هذه المصادر أصلية واسم البلد الذي يهمنا يظهر بصيغ قليلة الوضوح.

تتواجد المعلومة الأقدم حول بلد زافون في المؤلف الجغرافي للبكري المذكور سابقا، والمعنون بـــــــــــــ: *كتاب المسالك والممالك* كتبه في 1068م[148]. هذا الكتاب في الأساس معروف لكن بالنسبة للفصول المتضمنة لوصف بلدان إفريقيا ومن خلال مخطوطة المتحف البريطاني (تحمل الرقم 374 واليوم الرقم 17 Bd-PSS/902) والتي شكّلت قاعدة للنشرية والترجمة الفرنسية لـــــــــــــ: ماك ڤوكين دو سلان[149]، وكذلك للترجمة الفرنسية الجزئية لفانسان مونتاي[150]. الاسم الذي يهمنا يظهر في كتاب البكري بصيغة مفككة **زافقو** وعند دوسلان تصبح هذه الكتابة العربية تصبح **زافكو** أما عند مونتاي **زاكفاوا**. هذه الصيغة الأخيرة تنطلق من الكتابة الصوتية العربية لاسم سوداني افتراضي "دياغفاوا" أو "دياغفو"[151]. إعادة التركيب هذه- على الرغم من أن مونتاي لم يقل ذلك بوضوح- تبين أن حرف الألف الموجودة في نهاية الكلمة العربية ليست إلا ألف الإطلاق وهي عادة كتابية بسيطة ليس لها أي أثر صوتي: توجد هذه العادة كثيرا في المخطوطات المغربية (ليس المغربية فقط) في الكلمات ذات الأصل الأجنبي المنتهية بـــــــــــــــ: وَ

(147)- Mauny, pp. 219-222.

(148)- حول البكري ووصفه لبلاد السودان ينظر: Lewicki, pp. 51-57.

(149)- Description…. Par Abou-Obeïd-el-Bekri.

(150)- V. Monteil, « Al-Bakrî (Cordoue 1068) routier de l'Afrique blanche et noire du Nord-Ouest », *BIFAN*, Série B, XXX, I, 1968, pp. 39-116. 2 cartes

(151)-.Description… par Abou-Obeîd-el-Bekri, texte arabe, p. 173. Trad franç. P. 326. Monteil, pp. 69 et 109.

أو أُو. قدم لنا المستعرب البولوني اللامع ت. كوفاتلسكي(152) عدد كبير من الأمثلة يستعمل فيها ألف الإطلاق في الأسماء الجغرافية ذات الأصل غير العربي، وقد استخرجها من كتاب البكري ومن عند مؤلفين عرب قروسطيين آخرين. كذلك هناك كتابة أخرى لـــــــــــــــــ "و" النهائية في اسم "زافقو" غير أنها قلما شكلت خاصية معزولة.

تتبعا لهذه الاعتبارات والأسباب، يسرني أن أشير إلى أن الحرف الرابع من الاسم الذي أناقشه في مخطوطة كتاب البكري والموجودة في مجموعات المتحف البريطاني، يأخذ صيغة **ق** لابد وأن يكون **ن** مشوهة شوهها ناسخ عربي والتي في رأيي مرسومة بطريقة صحيحة في النسخة الأصلية للكتاب. أودّ هنا أن أذكر بأن الخطأ ق=ن يتصادف غالبا مع الكلمات ذات الأصل الأجنبي(153). إذا قبلنا التصحيح المطروح في مكان **زافقو** (مثلما هو موجود في المتحف البريطاني) فسنحصل على **زافنو** والتي تكون حسب كل احتمال مرسومة في النسخة الأصلية لكتاب البكري. كتابة أخرى للاسم السوداني نفسه استشهد به ياقوت مثل زافونو. يظهر أنه وانطلاقا من الصيغة التي استشهد بها هذا الأخير يمكننا أن نرمم "و" حرف العلة الذي يلي مباشرة الحرف "ف" وهذا يشكل خطأ لدى البكري ما يعطينا في النهاية الاسم **زافونو.**

من خلال البكري زافونو اسم بلد يحدد هذا الجغرافي موقعه في الجزء الغربي من الساحل الجنوبي بين مدينة قلنبو (تنطق قلمبو) أو ڨالامبو من جهة وغانة عاصمة المملكة التي تحمل الاسم نفسه من جهة أخرى. حسب مونتاي قلنبو بلد من الممكن أن ينطبق على ڨالام المعروفة في يومنا الحالي(154). يتعلق الأمر إذن بالناحية ذات التبر الواقعة على المجرى الخارجي للنهر الذي يصب على يسار السنغال أين توجد مناجم الذهب المستغلة منذ ق 8م(155). في هذا الصدد نحاول التعريف بــــــــــــــــ قلنبو. في الواقع عبد الله باثيلي (IFAN de Dakar) وبعد تحققه فإن الاسم التاريخي لـــــــــــــــ ڨالام هو ڨادياڨا وأن ڨالام لم يستعمل إلا من قبل الأوروبيين وتجار ولوف في فترة قديمة، وهذا ما يقدم فرضية حسبها أن مدينة قلنبو عند البكري ليست إلا مدينة قديمة تسمى ڨالامبو تقع في ناحية المياه التي تصب في السنغال. شكلت هذه المدينة الإقامة الأصلية لعصبة

---

(152)-T. Kowalski, *Relacja Ibrahîma ibn Ja'kuba z podrozy do krajowia stowianskich w przekazie al-Bekrïego (Relatio Ibrahim ibn Ja'kuba de itinere slavico quae traditur apud al-Bekrî),* Krakow, 1946 pp 72-74.

(153)- T. Lewicki, *Polska i kraje sqsiednie w swietle « Ksiêgi Rogera » geografa arabskiego z XII w. al-idrisi'ego (La Pologne et les pays voisins dans le 'Livre de Roger' d'al-Idrîsî, géographe arabe du XII siècle),* Krakow, 1er partie, 1945, p. 104 no 16.

(154)- *Description...par Abou-Obeïd-el-Bekri*, texte arabe, pp. 173-174. trad franç. pp 325-327 ; Monteil, pp. 68-70 et 108.

(155)-Mauny, pp. 294-296, 300,302, 303.

باثيلي الذين حكموا ذات يوم ڤادياڤا(156). بالنسبة لمدينة غانة ومن خلال رأي على العموم مقبول فإنه يجب تعيينها في آثار كومبي صالح الواقعة في جنوب جمهورية موريتانيا الحالية جنوب غرب موقع نيما على الطريق المؤدية من تمبدرا إلى نارا(157).

معلومات أخرى حول بلاد زافون (و) قدمها لنا أبو عبد الله محمد بن أبي بكر الزهري، جغرافي عربي أصيل إسبانيا الإسلامية، مؤلف الكتاب المعنون بـــــــــــــــ: *كتاب الجغرافيا*، كتبه بين 1154-1161م. حقق الكتاب محمد حاج صدوق انطلاقا من تسع مخطوطات معروفة(158). يظهر البلد الذي يهمنا في ثلاث فقرات من هذه النشرية، لقد أشار إليه لأول مرة في الفقرة 314 بالقرب من غانة وكَوْكَوْ (اليوم ڤاو)، أين يحمل اسم لا يعدو إلا أن يكون تحريفا لزافور (و)(159)، الكاتب صنفه ضمن البلدان السودانية التي إليها تتجه القوافل التجارية من السوس الأقصى في جنوب المغرب الأقصى. تحريف إشارة الزهري ترتكز على تعويض **ن** المبدئية في المقطع المنتهي بـــــــــــــــ **ر**. الخطأ ر=ن من الأخطاء الشائعة عند النساخ العرب في العصر الوسيط، والأمثلة على ذلك كثيرة خاصة لما يتعلق الأمر بالكلمات غير العربية**(160)**. تصحيح الخطأ يسمح لنا بالحصول على صيغة زافون (و) وهو مماثل للاسم الموجود في معجم البلدان لياقوت الحموي.

في موضعين آخرين من كتاب الجغرافيا وخاصة في الفقرتين 340**(161)** و341**(162)** من نشرية محمد حاج صدوق تعرض الاسم الذي يهمنا لتحريف عميق جدا: كرافون**(163)**. هذه الصيغة الأخيرة مرسومة في ست مخطوطات لكتاب الزهري والتي استخدمها الناشر. بالنسبة للمخطوطات الثلاث الأخرى، المخطوطة التي تحمل الرقم 1552 والموجودة في المكتبة الوطنية للجزائر (نسخة سنة 1860) تنقل لنا الاسم الصحيح زافون (و)، بينما المخطوطة رقم 945 بالرباط (نسخة سنة 1738) والمخطوطة رقم 25143 بالمتحف البريطاني بــــــــ لوندرز (نسخة سنة 1739) هذه المخطوطات تتضمن صيغة **رافون** والتي لا تختلف عن الصيغة

---

(156)- Ibrahima Diaman BATHILY (1897-1947), « Notices socio-historiques sur ancien royaume soninké du Gadiaga présentées annotées et publiées par Abdoulaye Bathily », *BIFAN*, Série B, XXXI, 1969, pp. 42-47.

(157)- Mauny, pp. 72-74. *et passim*.

(158)- « Kitâb al-dja'rafiyya : mappemonde du calife al-ma'mun reproduite par Fazari siècles rééditée et commentée par Zuhrî (VI/ XII siècles) », texte arabe établi avec introduction en français (résumée en arabe) par Mahammad Hadj-Sadok, *Bulletin d'Études Orientales* (*Damas*), XXI, 1968, pp. 7-312.

(159)- Ibid. pp 189-190.

(160)- Lewicki, 1945, p104, n° 28.

(161)- Hadj-Sadok, p. 181.

(162)- Ibid. pp 180-181.

(163)- Ibid, p. 82 (p. Amima), p. 95 (p. Ghana) et p. 100 (p. Amima).

الصحيحة إلا بغياب نقطة فوق الحرف الأول[164]. هذا الخطأ الأخير غالبا ما يصادفنا لدى النساخ العرب القروسطيين. بالنسبة لهذه الصيغة الغريبة لـــــــــــ **قرافون** والتي لا نجدها أبدا في أوصاف عربية أخرى لبلاد السودان، لكن محمد حاج صدوق يعتبرها الصيغة الأصح، ففي رأيي الأمر يتعلق كذلك بتحريف لصيغة زافون (و). أعتقد خاصة أن الحرفين الأوليين لهذا الاسم **قر** يمكننا تعويضهما بالحرف الأول **ز** المكتوب باللامبالاة.

ينتج من الفقرة 340 أن بلاد زافون تتموقع في نواحي 20 فرسخا (حوالي 115كم) شرق غانة، لابد إذن أن نلاحظ أنه في مكان الفرسخ بعض مخطوطات الكتاب تقول "يوم". هذه المعلومة غير دقيقة. في الواقع، حسب البكري، إذا أخذنا كلامه بعين الاعتبار، فإن بلاد زافون (و) توجد غرب غانة على الطريق المارة بهذه المدينة باتجاه قلنبو يعني نحو مصب النهر وبالتالي لابد من تعويض كلمة شرق الموجودة عند الزهري بكلمة غرب.

يذكّر كتاب الجغرافيا بقوة النمط الملاحظ في البحث الجغرافي المجهول الذي يحمل عنوان مشابه، *كتاب الجغرافيا*، هذا البحث موجود ضمن مخطوطة 317-320 في مكتبة بودليين بأكسفورد. قطع كثيرة تضمنت وصفا لبلدان ومدن إفريقيا نشرها يوسف كمال[165] مرفقة بترجمة فرنسية. يجب أن نشير هنا إلى أن مقدمة هذا البحث تعود لأبي الحسن علي بن سعيد جغرافي عربي لامع من النصف الثاني من القرن 8م[166]. متعمدا التأثر بهذه الإشارة الخاطئة والتي تبدو منسوبة لنساخ الرسالة فقد نشر يوسف كمال القطع التي أشرنا إليها في الأعلى مع الكتاب الجغرافي الصحيح لابن سعيد. مع ذلك لابد من الإشارة هنا إلى أن يوسف كمال وبدقة أخذ في الحسبان اختلافات مهمة موجودة بين الكتابين، والذي ارتكز على مبادئ مختلفة متعلقة بتقسيم الأرض[167]. تبعا لمخطوطة أكسفورد[168] فإنه على 20 يوما من السير شرق غانة توجد **زاغون** (و) ودون شك هي **زافون** (و) الموجودة عند ياقوت. الحرف الثالث من هذه الكتابة **غ** في رأيي تحريف للحرف **ف** الأول[169]. وضعية هذه المدينة مقارنة بمدينة غانة (التي نجدها في كتاب الجغرافيا) خاطئة وتذكرنا بالوضعية المشار إليها في كتاب الزهري، الفرق يكمن في أن الأول من هذه الكتب لا يقدم المسافة بالفرسخ (1

---

(164)- Voir Hadj-Sadok, p. 181. Notes aux paragraphes 340 et 341. Voir aussi les manuscrits de Rabat et de Londres (Ibid, pp 17-19).

(165)- Kamal, f⁰ 1088 r°-1090 v⁰.

(166)-Ibid, f⁰ 1088 r°.

(167)-Ibid, f⁰ 1088 r° et f⁰1089 r°.

(168)- Ibid, f⁰ 1090 v⁰.

(169)-ينظر في هذا الموضوع: Lewicki, 1945, p. 105 n° 49.
حيث نجد تصحيف ف إلى غ وبذلك قرأ يوسف كمال هذا الاسم زاغون.

فرسخ=5762م) لكن بالأيام ما يجعلنا نعتقد مرات كثيرة أنها كبيرة جدا. من جهة أخرى أحب هنا أن أذكر أن الأمر نفسه في واحدة من مخطوطات رسالة الزهري، هذه المسافة ليست 20 فرسخا وإنما 20 يوما.

الإشارة التالية حول بلاد زافون (و) توجد في الكتاب الجغرافي المجهول المعنون بــــــــــــــ: *كتاب الاستبصار*، الذي يتضمن وصف مصر، المغرب والسودان. هذا الكتاب الذي يعود تأليفه إلى نهاية القرن 7 (بعد 1192م)، ليس إلا تعديلا لجزء من كتاب *المسالك والممالك* للبكري الذي يعالج إفريقيا وينتهي إلى تفاصيل جديدة وأكثر حداثة[170]. جزء من كتاب الاستبصار تم نشره[171]. الآخر لا يزال مخطوط خاصة وصف السودان التي لم نتعرف عليها إلا انطلاقا من قطع موجزة نشرها يوسف كمال[172].

من بين القطع التي وصفت السودان والموجودة في كتاب الاستبصار، توجد واحدة تستحق انتباه خاص: أشار الكاتب المجهول إلى شعب أسود **زفنو** يسكن بلد يقع بين قلنبو (ڤالامبو) وغانة (كومبي صالح)[173]. لهذا الشعب مدينة تسمى **زافون**[174]. هذا الاسم الأخير يتوافق كلية مع اسم مملكة زافون والتي أشار إليها ياقوت. بالنسبة لاسم زافونو فإنه مماثل للاسم المشار إليه أعلاه، فقط أشير إليه بطريقة مختلفة.

المعلومات اللاحقة حول بلد زافون (و) تعود إلى النصف الثاني من القرن 13م وتوجد في كتابين جغرافيين هما: *كتاب الجغرافيا في الأقاليم السبعة*[175]، *وكتاب البديع*[176] لأبي الحسن علي بن سعيد[177]. في الأول من هذه الكتب يظهر البلد الذي يهمنا تحت اسم رافون[178]، نعرف الفرق مع الصيغة الصحيحة بفضل معجم البلدان لياقوت، يكمن في غياب نقطة على الحرف الأول. يجعل ابن سعيد هذا البلد بالسودان في العرضية نفسها لأودغست[179] (اليوم تقداوست، في الجنوب الشرقي لتامشاكيت بجنوب موريتانيا)[180]. تبعا

---

(170)- Kraçkowskiy, pp 308-309.

(171)- Description de l'Afrique par un géographe arabe anonyme du sixième siècle de l'hégire, texte arabe publié pour la première fois par Alfred De Kremer, Vienne, 1852.

(172)- Kamal, f^0 915 r^0-915 v^0.

(173)- Ibid, f^0 915 r^0.Youssouf Karnal lit ce nom Zafnou

(174)-.Ibid, قرأ يوسف كمال الاسم الثاني زافون

(175)-بعض مقاطع هذا الكتاب المتعلقة بإفريقيا مع ترجمتها الفرنسية نشرها:

Kamal, f^0 1080 -1o88 r^0.

(176)- الترجمة الفرنسية لهذه القطعة من هذا الكتاب المتعلقة بإفريقيا نشرت من قبل:

E. Fagnan, Extraits inédits relatifs au Maghreb (géographie et histoire) traduits de l'arabe et annotés, Alger, 1924, pp. 6-22.

(177)-ينظر حول هذا المؤلف:

Kraçkovskiy, pp. 352-358. Lewicki, 1969, pp 73-76.

(178)-Kamal, f^0 1083 v^0. قرأ هذا الاسم رافون

(179)-. Ibid.

لكتاب البديع أين استخدم الكاتب خاصة المعطيات المستخرجة من كتاب الزهري فإن قوافل سجلماسة تصل إلى مدن سودانية عديدة، من بينها أشار ابن سعيد إلى **غافون**[181]. هذا الاسم الأخير لابد من تصحيحه وبالتالي سيأخذ صيغة **زافون**. في مقطع موازي للزهري توجد صيغة **زافور** التي توافقه والتي صححتها إلى **زافون** (و).

بهذه المناسبة أود أن أذكّر بموضع مشابه يتعلق بالعلاقات التجارية لسجلماسة مع السودان، على الأرجح مستخرجة من كتاب البديع لابن سعيد أو من الممكن أن تكون مستخرجة مباشرة من الكتاب الجغرافي للزهري، وتوجد كذلك في *تحفة الملوك* لابن زنبال، كتاب جغرافي ألف بعد 1554م. أجزاء هذا الكتاب المتعلقة بإفريقيا نشرها أ. فانيان[182]. تعرض اسم مدينة زافون لتحريف وأصبح راجون (فانيان: رادجون) ومع ذلك فإن المترجم يقارن ذلك مع العنوان، زافور فانيان مع زافور الزهري (مخ رقم: 1552 في المكتبة الوطنية الجزائر). التحريف يكمن في حذف نقطة من على الحرف الأول وتعويض **ف** بـــــــــــــــ **ج** وهو خطأ غالبا ما يرتكبه النساخ العرب القروسطيين[183].

آخر إشارة أصلية حول بلاد زافون (و) توجد في مسالك الأبصار كتاب لشهاب الدين أحمد بن يحي بن فضل الله العمري، كاتب عربي في النصف الأول من القرن 14م (1301-1349م)[184].

لدينا ترجمة فرنسية لبعض فصول هذا الكتاب والمتضمنة وصفا لبلاد المغرب وإفريقيا السوداء[185]. وكذلك نشرية لعدد من القطع بلغتها العربية الأصلية[186]. توجد إشارة لبلد زافون (و) في وصف مملكة مالي مبنية أساسا على المعلومات المستقاة من العمري من قبل المغربي أبو سعيد عثمان الدكالي الذي أمضى خمسة وثلاثين سنة من عمره في هذا البلد[187]. عرض العمري حالة اثني عشرة مقاطعة تتكون منها هذه المملكة ومن بينها أشار إلى، المرتبة الثانية مباشرة بعد غانة، مقاطعة **زاقون**. تتواجد هذه الصيغة الأخيرة في النشرية الجزئية

---

(180)-حول أودغست ينظر:

D et S Robert et J. Devisse, *Tegdaoust.I Recherches sur Aoudaghost*, Paris, 1970, passim.

(181)-Fagnan, p. 19.

عرف هذا الاسم بزفور وزافور في المخطوطة رقم 1552 بالمكتبة الوطنية الجزائر.

(182)- Fagnan, pp. 121-193.

ينظر خاصة الصفحة 79 أين عرف المترجم رادجون وراجون بالاسم زافور وزفور في المخطوطة رقم 1552 بالمكتبة الوطنية الجزائر.

(183)- ينظر حول هذا الموضوع: Lewicki, 1945, 105, n° 44

(184)-.ينظر حول هذا المؤلف: Kraçkovskiy, pp. 405-411 ; Lewicki, 1969, pp. 82-86.

(185)- ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، القسم الأول: إفريقيا، مصر السفلى، ترجمة وتعليق مع مقدمة و5 خرائط، ڤودفروي ديمومبين، باريس، 1927.

(186)-Kamal, f° 1236 r° -1243 r°.

(187)-. Lewicki, 1969, p. 85.

التي أعدها يوسف كمال[188]. ڤودفروي ديمومبيناس مترجم فرنسي لكتاب العمري كتبها "زاڤون" وقارنها بـــــــــ "زافاڤوا" (زافڤو/ زافونو عند البكري) لقد تكهن أن واحدا من هذه النصوص تقدم قراءة خاطئة لهذا الاسم[189]. على الرغم من أن هذه الملاحظة ليست مقبولة إلا جزئيا بسبب أنه ينتج من تدقيقاتنا أنه يستلزم تصحيح الكتابتين المشار إليهما أعلاه، وذلك بهدف الحصول على صيغة زافون أو زافونو.

استعمل كتاب العمري شهاب الدين أحمد القلقشندي (ت. 1418م) في موسوعته المعنونة بـــــــــ: *صبح الأعشى*، كتبها سنة 1412م، واحدة من أجزائها متعلقة بالجغرافيا[190]. من بين هذه القطع المتعلقة بإفريقيا نشرها يوسف كمال مرفقة بترجمة فرنسية[191]. في وصفه لمملكة مالي اعتمد القلقشندي على مسالك الأبصار للعمري وكتب أن هذه الدولة تتكون من أربعة عشرة مقاطعة ومن بينها في المرتبة الثانية مباشرة بعد غانة تعود إلى مقاطعة زافون[192]. كذلك قدم لنا القلقشندي الصيغة الصحيحة لهذا الاسم، من الممكن إذن أن تكون صيغة مشابهة للموجودة في مخطوطة كتاب العمري والتي استعملها القلقشندي.

نختصر كل ما نقلته إلينا المصادر العربية بين القرنين 11 و15م في موضوع أسماء بلاد زافون (و)، كل المعطيات جعلتنا نعتقد أن الكتّاب العرب استعملوا ثلاث كتابات مختلفة. الأولى زافون (و) وهي مرسومة في:

أ/ موضعين في معجم البلدان لياقوت.

ب/ واحدة من مخطوطات كتاب الجغرافيا للزهري.

ج/ العمل الجغرافي المجهول المعنون بـــــــــــــــــ: كتاب الاستبصار.

د/ كتاب القلقشندي.

هذه الكتابة تذكرنا بالصيغ المحرفة مثل **زافور** عند الزهري و**قارافون** عند الكاتب نفسه، **رافون** عند الكاتب نفسه وعند ابن سعيد، **زاغونو** (في مخطوطة أكسفورد لود.317-320 وفي الترجمة الفرنسية لكتاب العمري) و**زاڤون** (عند العمري، نشرية يوسف كمال). الكتابة الثانية المستقلة للاسم الذي يهمنا **زافونو**، لقد تمت الإشارة إلى هذا الاسم من قبل الكاتب المجهول للاستبصار. الكتابة الثالثة والأخيرة **زافڤو** التي أشار إليها

(188)- ينظر: Kamal, f⁰ 1241 r⁰ حيث كتب هذا الاسم زاكون.

(189)- العمري، القسم الأول، ص: 55.

(190)- ينظر حول القلقشندي وإشاراته لإفريقيا:

Kraçkovskiy, pp. 411-415 ; Lewicki, 1969, pp. 90-91.

(191)- Kamal, f⁰ 1399 r⁰-14o6 r⁰

(192)- Ibid, f⁰ 1405 v⁰. قرأ يوسف كمال هذا الاسم زافون.

البكري لا تعدو أن تكون تحريفا للإشارة الأولية **زافونو**. هذه الصيغ الثلاث المتباينة يمكن أن تنطق كلها وببساطة **زافونو**، دون أن ننشغل بمد حروف العلة الظاهرة في الإشارات العربية: حروف العلة المدية لا تلعب هنا إلا دور في القراءة وليست إلا مظهرا لعادة إملائية.

أما فيما يتعلق بالموضع الجغرافي لبلد زافون يظهر على ضوء المصادر العربية التي اعتمدنا عليها سابقا، أنه يمكن تحديد موقع هذا البلد كما قلنا آنفا، في الساحل الجنوبي بين نهر السنغال (في نواحي مصب النهر) وآثار كومبي صالح، يعني تقريبا بين 8° و12° غربا. في الجزء الغربي من هذا الإقليم توجد الناحية التاريخية لـــــــــــ ديافونو وفي رأيي معها يمكن تحديد **زافون**، **زافونو** المصادر العربية بين القرنين 11-15م. شكلت منطقة ديافونو جزء من الأقاليم الآهلة لقرون من قبل الشعب السونينكي أين تضمنت الروايات التاريخية لعدد من الإشارات حول موضعه. من خلال المعلومات التي قدمها الحاج عمر با (IFAN de Dakar) وتبعا لخريطة توزيع الاثنيات في جمهورية مالي الحالية منطقة ديافونو تقع في موضع التجزئة القديمة لـــــــــــ يليماني في حلقة نيورو على المجرى الأعلى لنهر كوليمبيني الذي يصب على يمين السنغال. إنها تشكل جزء من المنطقة الاقتصادية الحالية لكاييس. تقع ديافونو إذن في منطقة الساحل الجنوبي متاخمة للحدود الشمالية لموريتانيا الحالية وغرب مناطق سيرو وديومبوكو (هذه الأخيرة تكون منطقة خلفية لمدينة كاييس) في جنوب منطقة ترينڤا وفي الشرق ڤويديومي وفي الشمال الشرقي كانياڤا.

إذا جعلنا الصيغ العربية زافون، زافونو، وزافونوا تعود على الاسم المحلي لمنطقة ديافونو الآهلة بالشعب السونينكي، بقي لنا كذلك أن نشرح مشكلة تعويض د الأولية بالحرف ز الموجودة في المصادر العربية القروسطية. يوجد شرحان ممكنان. من خلال الشرح الأول يسمع العرب في اسم بلد سوداني صوت لغوي غير معروف لدى الأسلوب الصوتي العربي، وهو يعود على حرف ز. بفضل هذه الفرضية توجد كتابة للاسم السوداني دياديّ من طرف غازي الموجود في التاريخ العربي للسودان المعنون بـــــــــــــــ *تاريخ الفتاش* (ق 15-16م) حيث نجد الحرف د الأول يمكن تعويضه بـــــــــــ ج والدال الثانية ربما تعود على ز[193]. إلى هنا يظهر أن الشرح الثاني أكثر احتمالا من حيث الصحة. من خلال الشرح نفسه المعلومة حول ديافونو وكذلك اسم هذا البلد وصل إلى الكتّاب العرب القروسطيين بوسيط إخباري يتحدث لغة لها أسلوب صوتي فيه الصوت اللغوي د هو ز بطريقة متعارضة. إذا أخذنا بهذه الإمكانية الأخيرة سنكون مجبرين على الاعتقاد بأن هؤلاء الإخباريين السودانيين يتحدثون لغة آزر والتي كانت في فترة ازدهار ممالك أودغست وغانة

[193]- أ. هوداس و.م.دولافوس، تاريخ الفتاش أو تاريخ الباحث عن تاريخ المدن، الجيوش والشخصيات المشهورة في التكرور لمحمود بن الحاج المتوكل كعت وواحد من أبنائه، باريس، 1919، ص:38-39. هوداس ودولافوس، تاريخ الفتاش، ترجمة مرفقة بتعليقات، فهرس وخريطة، باريس، 1919، ص:70.



مستعملة في كل أقاليم الساحل السوداني كلغة تجارية ذات خصائص عشائرية متعددة[194]. إنها واحدة من اللهجات السونينكية التي وظفت بعض الألفاظ البربرية، هذه اللغة تستخدم من قبل السونينكيين أفضل من البربر. هذه اللغة لا زالت متحدث بها إلى وقت قريب في جنوب ووسط موريتانيا: تيشيت، ولاتة، وادان، وشنقيت. فيما يخص أمثلة موضع د و ز في لغة آزر أشير هنا إلى كلمتين متطابقتين تصفان الأرنب: (كانديان) و(كازانان)[195]، الأمر نفسه بالنسبة لاسم المدينة القديمة لديارا في السودان الغربي ففي لغة آزر تصبح أحيانا زارا (توجد لهجة كذلك هذا الاسم ينطق آدير كما ينطق آزر)[196]. كذلك الكتاب العرب القروسطيين الذين أشاروا إلى هذا الاسم لمنطقة ديافونو على الأرجح لم يستخرجوه مباشرة من اللغة السونينكية ولكن من اللغة المختلطة آزر أين ينطق هذا الاسم كذلك دافونو وزافونو.

نحاول الآن وباختصار أن نعيد بناء تاريخ بلاد زافون (ديافونو) على ضوء المعلومات النادرة التي قدمتها لنا المصادر العربية المذكورة سابقا. سأقارنها فيما بعد مع الروايات الشفوية للسونينكيين المتعلقة بديافونو.

من خلال كتاب المسالك والممالك للبكري كتبه في 1068م، وهو أقدم المصادر العربية حول هذا الموضوع، فهي بلد آهل بشعب أسود عبد أفعى (يشبه في تفاصيله التنّين)[197]. أكّد مونتاي أنه توجد هذه العبادة في رواية سونينكية تصور أفعى سوداء تسمى بيدا. بقيت هذه الأفعى محترمة من قبل السونينكيين إلى يومنا هذا[198]. للأسف الشديد لم يطلعنا البكري أبدا على الوضعية السياسية لزافون إذ نجهل حتى إذا كان هذا البلد مملكة مستقلة. أحيانا ومن باب الحتمية يجب أن نؤمن بطريقة أو بأخرى وفي الفترة التي كتب فيها هذا الجغرافي أن دولة غانة وإلى الغزوة المرابطية البربرية في سنة 1076م قد جمعت تحت سيطرتها قسم كبير من السودان الغربي. الروايات القبلية السونينكية تعلمنا فقط أن الفروع الأولى من هذا الشعب عاشت بديافونو، نحو نهاية القرن 7م. فروع أخرى يقودها ديا فوني (منه جاء اسم المنطقة) بدأت تستقر منذ 759م، قسم ثالث التحق في نهاية القرن 8م بعد سقوط دولة واقادو التي أسسها السونينكيون[199]. من خلال دولافوس الذي له فضل تقرير تاريخية الروايات، استطاعت مستعمرة ديافونو السونينكية التخلص من تبعية ملوك غانة (من

([194])- Monteil, « La langue azer après les documents recueillis par Th Monod et D Brosset » *in Contribution à l'étude du Sahara occidental*, Paris, 1939, II, pp 212-343 ; voir surtout pp. 215-216.

([195])-Ibid, p.233.

([196])-Ibid, p.245.

([197])- وصف.... أبو عبيد البكري، النص العربي، ص: 173-174. الترجمة الفرنسية، ص:326. مونتاي، ص:69.

([198])- V. Monteil, p. 109, n° 8.

([199])- Delafosse, pp. 256-257. et 319, et II, p. 154.

الممكن بطريقة غير مباشرة) بين نهاية القرن الثامن وسنة 1076م تاريخ الغزو المرابطي[200]. تبعا لهذا الحدث الأخير، الكثير من البطون السونينكية غادرت غانة. حسب الرواية واحدة من هذه البطون التي يقودها شيخ عصبة دوكوري وهو أخ مؤسس دولة باكونو ڤومبو (تقع شرق نيورو) استقرت بديافونو[201]. للأسف، سكتت الروايات السونينكية عن تاريخ ديافونو نحو القرن 11م وهنا يظهر أن هذه الدولة وبسرعة أصبحت ذات أهمية ووضعت تحت سلطتها خلال العقود الموالية من الزمن النواحي القريبة الآهلة بالعصبية السونينكية. في الوقت ذاته اتجه قادة ديافونو لاستغلال عدم قدرة ملوك غانة الذين أصبحوا -بعد الغزو المرابطي في سنة 1076م ودخولهم إلى الإسلام- (يعني إثارة بعض المشاكل الداخلية) وقتيا غير قادرين على رؤية ارتفاع هيمنتهم على الأقاليم التي أخضعوها لسيطرتهم سابقا. حتى المساعدة العسكرية التي قدموها للمرابطين لم تكن شيئا ذا أهمية حسب موضع من كتاب الزهري[202].

يظهر أن اعتناق السلالة السونينكية بغانة للإسلام كانت في الوقت نفسه الذي أسلمت فيه العائلة الحاكمة بزافونو. في كل الحالات وفي فترة الرواية التي أشار إليها ياقوت الحموي يعني في سنوات 1121-1147م كان ملك هذا الدولة مسلما وحج إلى مكة مرورا بالمغرب[203].

يعتبر الربع الثاني من القرن 12م في رأيي فترة الازدهار الكبير لدولة زافون. حسب الرواية التي أشار إليها ياقوت الحموي فإن السلطان الذي حكم هذا البلد كان ملكا قويا وكفءً ويعلم كذلك كيف يبسط سيطرته على بربر الصحراء الغربية البدو (الملثمون). يتعلق الأمر خاصة بـــــــ: لمتونة، مسوفة، وجدالة. في بعض الأحيان تشكل هذه القبائل قسم من كونفدرالية المرابطين، وأغلب فروعها زحفوا نحو الشمال تبعا لغزو غرب بلاد المغرب في سنة 1053م من قبل أمراء المرابطين أبو بكر بن عمر وابن أخيه يوسف بن تاشفين[204]. لما نشبت اضطرابات بين فروع لمتونة ومسوفة التي بقيت بالصحراء ترك أبو بكر المغرب بعد استتبابه للأمن تاركا القيادة ليوسف بن تاشفين. هذا الأخير نجح في الاستقلال على أبي بكر الذي وبعد أن حاول استرجاع سلطته دون فائدة انسحب إلى السودان الغربي واقتصرت سيطرته على فروع لمتونة وجدالة ومسوفة التي بقيت هناك ودخلت في صراع وقتال مع الملوك السودانيين[205]. بعد أن حقق عددا من الانتصارات الكبيرة منها

---

(200)- Ibid, I, pp. 265-266, et II, pp. 27 et 154-155.

(201)- Delafosse, I, pp. 265-266.

(202)- Hadj-Sadok, pp. 181-182, § 338.

(203)- ينظر في الأعلى ص:5.

(204)- Ibn Khaldoun, II, pp. 69-72.

(205)- Ibid, p. 72; Paulo Fernando De Moraes Farias, « The Almoravids Some Questions Concerning the Character of the Movement during its Periods of Closest Contact with the Western Sudan », *BIFAN*, Série B, XXIX, 3-4, 1967, pp. 848-849.

غزو غانة وأسلمتها في سنة 1076م دخل أبو بكر في سنة 1087م في حملة ضد الزنوج[206]. بعد وفاته ضعفت كونفدرالية القبائل المرابطية بالصحراء بسبب هروبها إلى المغرب الأقصى في سنة 1077-1078م في حين بعض فروع لمتونة، جدّالة، ومسوفة قد تصدّعت نهائيا[207]. التحطم الصحراوي لهذه الفروع الضعيفة والمتروكة مثلما يتضح من رواية ياقوت عرضة لتأثير الجيران، مملكة زافونو السودانية، والتي خلال العقود التالية عوضت غانة كمسيطرة على السودان الغربي.

كذلك ارتأينا إعادة الوضعية قبل 1054-1055م لما كانت مملكة أودغست البربرية الواقعة في الشمال الشرقي لموريتانيا تابعة لملك غانة[208]. وضعية مماثلة تنتج بصفة متأخرة في القرن 14م أين أصبحت مدن إيوالاتن (ولاتة) وتونبوكتو (تومبوكتو)، المراكز القبلية لمسوفة، إقامات للحكام الممثلين للسلاطين السودانيين بمالي[209].

يظهر أن القبائل البربرية المستقرة في الجنوب الغربي والتابعة لملوك زافون قد مارست نوع من التأثير الحضاري على سكان هذا البلد. لقد أشرنا قبل هذا إلى دخول ملوك زافون للإسلام الأمر الذي يفسر فقط بتأثير القبائل المرابطية التي كانت دائما تتغذى بالحمية الدينية التي تميز بها أبو بكر بن عمر لكنها بعد 1087م لم يعد لها سوى غايات هادئة. تفصيل آخر شاهد على التأثير البربري على سكان زافون، وهو ما أشار إليه ياقوت الحموي أن ملك هذه الدولة يغطي وجهه على الطريقة البربرية. بالمناسبة فالكلمة العربية –منقّب- تمت الإشارة إليها في رواية ياقوت وتعني حرفيا –واضع اللثام، النقاب-. إنه قماش يغطي إلى النقطة التي يريد الشخص أن يرفعه إليها، وبالتالي لن يصبح معروفا حتى عند والديه الأكثر قربا منه. من خلال البكري الذي وجدنا عنده هذا الوصف للنقاب، فهذا النقاب لا يضعه فقط بدو القبائل البربرية المستقرة بالصحراء[210]، لكن كذلك يضعه سكان سجلماسة وهي مدينة تقع في الجنوب الشرقي للمغرب الأقصى وآهلة بالبربر الذين دخلوا في علاقات تجارية نشطة جدا مع الصحراء الغربية والسودان الغربي[211].

التقدير الكبير الذي قابل به الأمير المرابطي ملك زافون أثناء زيارته الأخيرة إلى مراكش ينتج على الأغلب كون هذا الحاكم يراقب أغلب الطرق التجارية الرابطة بين السودان الغربي وغرب المغرب. لقد

---

(206)-.Ibid, pp. 848-850.

(207)- Ibid., p. 849.

(208)-أبو عبيد البكري، وصف....، النص العربي، ص:168. الترجمة الفرنسية، ص: 317. مونتاي، ص:62-63. ص: 104. رقم 23.

(209)-نستدل بذلك من خلال رحلة ابن بطوطة الذي زار هذه المدن سنة 1252-53 ينظر:

الترجمة مع التعليق موني، مونتاي، جنيدي، روبار، دوفيس، نصوص ووثائق متعلقة بتاريخ إفريقيا، قطع مستخرجة من رحلة ابن بطوطة، داكار، 1966، ص: 41-42 و69-70

(210)-أبو عبيد البكري، وصف....، النص العربي، ص:170. الترجمة الفرنسية، ص:320-321. مونتاي، ص: 64-65 و105-106

(211)-أبو عبيد البكري، وصف....، النص العربي، ص:148. الترجمة الفرنسية، ص: 282-283. مونتاي، ص: 42.

شكلت عاصمته في النصف الأول من القرن 12م نقطة انطلاق القوافل التي تنقل الذهب ومواد أخرى لا تقل أهمية من السودان الغربي إلى سجلماسة، أكبر مركز تجاري للدولة المرابطية بالمغرب الأقصى- المهتمة على الخصوص بالتجارة مع بلدان الزنوج. وجود طريق تجاري في هذه الفترة يربط مباشرة عاصمة مملكة زافون بسجلماسة أمر مؤكد في أحد مواضع كتاب الزهري الذي كتب عن كل المدن السودانية وهذه العاصمة تعتبر الأقرب من مدينة سجلماسة**.**(212)

كيف يربط هذا الطريق في النصف الأول من القرن 12م عاصمة زافونو (ديافونو) بسجلماسة وبغرب المغرب؟ يظهر أنها توافق في قسمها الجنوبي بطريق القوافل التي تربط أدرار موريتانيا بمدينة ڤوغي (ڤوري)، عاصمة ديافونو في منتصف القرن 19م وقد وصلنا وصفها من خلال ه. بارث**(213)**. هذه الطريق المارة بـــــــــــ ڤوغي عبر كيفا وتيدجيڤجا (تدجيكجا، تيجيكجا) في بلاد تاڤانت في مدينة أتار عاصمة أدرار الموريتانية. أتار موضع قديم جدا وقد احتل في العصر الحديث الموقع الوسيط القريب من أزوڤي (أزوڤي، أزوكي عند الكتاب العرب خلال القرنين 11-13م)، وهي عاصمة قديمة لقبيلة لمتونة ومرحلة مهمة من على الطريق التجارية المؤدية من السودان الغربي إلى المغرب**(214)**. بالنسبة لمدينة تيدجيكجا فقد أسست متأخرة نسبيا ولذلك وجدناها في سنة 1413م على خريطة ميسا دي فيلادستس (تحت اسم توتيڤا)**(215)**. يظهر أنها كذلك احتلت موضع آخر قديم جدا على الأرجح المركز الرئيسي لـــــــــــ تاڤانت. في رأيي هذا المركز وجد بالقرب من واحة أشاريم الواقعة في الشمال الغربي لتدجيكجا. في مارس 1968 تم العثور في هذه الناحية على كنز يتكون من الحلي ونقود ذهبية عربية. هذه الأخيرة تحمل اسم الأمير المرابطي علي بن يوسف الذي حكم الجزء الغربي من المغرب وإسبانيا الإسلامية بين سنتي 1107-1143م**(216)**. وحسب الرواية فإنه في المنطقة نفسها في إلديبا موضع بعيد عن تدجيكجا بيوم ونصف يوجد ضريح أبي بكر بن عمر**(217)**.

فيما يتعلق بالقسم التابع للطريق الرابطة لعاصمة مملكة زافون بسجلماسة يظهر أنه بعد أزوڤي تأخذ اتجاه كدية إدجيل قرب حصن ڤورو الحالي لكي تتجه بعيدا نحو جنوب المغرب الأقصى والجنوب الشرقي

---

(212)- Hadj-Sadok, p. 180. p. 340.

(213)- H .Barth, *Reisen und Entdeckungen in Nord- und Central-Africa in den Jahren 1849 bis 1855*, Gotha, 1857-1858, V, pp. 500-501 et 523-525.

(214)- Mauny, p. 429 et passim.

(215)- C. De La Roncière, *La découverte de l'Afrique au Moyen Age*, Le Caire, 1925-1927, p. 135.

(216)-حول هذا الكنز ينظر:

Nouakchott-Information. Bulletin Quotidien du Service de l'Information, n° 506, II, octobre 1968, pp. 2-3.

(217)- Delafosse, I, p. 57.

وتصل إلى سجلماسة. قدم لنا البكري وصف هذا الطريق بطريقة معاكسة. لقد أكد[218] أن هذه الطريق تؤدي إلى وادي درعة إلى جبل إزال (كذلك، إيزال، إزيل) والتي ربطها الباحثون بكدية إيدجيل[219] ثم يتجه بعد ذلك إلى أراضي قبيلة لمتونة وبالتالي نحو أزوكي (أزوقي) وذلك لما كانت عاصمة لهذه القبيلة في أدرار الموريتانية. إنه من الصعب إعادة بناء هذا القطاع من الطريق المؤدية إلى كدية إدجيل في ضفاف وادي درعة وإلى سجلماسة. وإلى هنا يمكن تعريفه وربطه بقطاع الطريق المسماة "الطريق اللمتوني" والذي من خلال الروايات الموريتانية فقد كان مستعملا في القرن 11م ومما يعبر به بئر مغرين (حصن ترينكات في الخرائط الحالية)، عين بن تليلي وتندوف[220].

تحدث الزهري كذلك عن العلاقات التجارية لزافون مع مركز تجاري آخر بالمغرب وهو السوس الأقصى الواقع في جنوب المغرب الأقصى[221].

على عكس المصادر العربية فالروايات السونينكية لا تقدم لنا أية معلومة تتعلق بالتطور الكبير للقوة السياسية والاقتصادية لحكام ديافونو في النصف الأول من القرن 12م. وعلى عكس كل هذا[222] فإنها تخبرنا في نهاية القرن 11م وبداية القرن 12م بأنها قد خضعت منطقة ديافونو والمناطق القريبة منها لتأثير ملوك السونينكي من عائلة نياكاتي. بعد سقوط غانة في 1076م قام هؤلاء الأخيرون بتأسيس دولة مستقلة في دائرة كينقوي الواقعة شرق ديافونو مع مدينة ديارا كعاصمة للدولة. آخر أمراء هذه العائلة (الوحيد الذي تقدم عنه الروايات السونينكية تفاصيل في هذا الموضوع) المسمى مانا ماغان نياكاتي، الذي حكم حسب م. دولافوس في النصف الأول من القرن 13م، وأسّس دولة هامة جدا تمتد على نواحي عديدة قريبة إلى غاية كارتا بالجنوب وإلى باكونو في الشرق. أصبح مانا ماغان نياكاتي غني إلى درجة كبيرة بفضل التجارة مع التكرور (على السنغال الأدنى) من جهة ومع تاقانت من جهة أخرى وقد استطاع إخضاع عدد من عصابات المقاتلين التي أصبح عليها قائدا. حفظت صورة هذا الحاكم في الروايات السونينكية التي تتوافق بصدق مع صورة ملك زافون التي وجدناها عند ياقوت. في هذه الحالة لا يجب علينا أن نطرح إذا ما كان مانا ماغان نياكاتي لم يعش في النصف الأول من القرن 13م لكن مئة سنة قبل ذلك، وأنه لم يقم في مدينة ديارا ولكن في عاصمة مدينة ديافونو؟ وإذا ما كان هو نفسه ملك زافون الذي تحدث عنه ياقوت والذي فرض أوامره على القبائل البدو

([218])- أبو عبيد البكري، وصف...، النص العربي، ص: 163-164. الترجمة الفرنسية، ص: 309-310. مونتاي، ص: 58 و99-100.

([219])- V. Monteil, p. 99 n°3

([220])-حول هذه الطريق ينظر:

F. De La Chapelle, « Esquisse d'une histoire du Sahara occidental », *Hespéris*, XI, 1931, pp. 35-95.

([221])- Hadj-Sadok, pp. 189-190, p314.

([222])- Delafosse, II, pp. 154-155 et 266-267.

بالصحراء الغربية؟ الإجابة عن هذه الأسئلة لا يمكن أن تكون إلا من قبل الباحثين المتأخرين عن الروايات التاريخية لقبيلة السونينكي.

سيطرة ملك زافون على الدول الزنجية الصغيرة بالسودان الغربي كانت على الأرجح سنة 1150م. بعد ذلك خرجت من الأيدي التي سيطرت عليها قرون كاملة يعني ملوك غانة. في كل الحالات وحسب وصف بلاد الزنوج الموجود في الكتاب الجغرافي للإدريسي (1154م) فإن ملوك غانة في هذه الفترة أخضعوا لرقابتهم الأقاليم المتاخمة لغرب بلاد ماقزارا (أقاليم على السودان الغربي والأوسط) وفي الشرق على ناحية مداسا (على النيجر في مقر مدينة كابارا الحالية) وفي الجنوب تلامس أراضي الذهب وانقارا (وانقارا) وناحية بوري الحالية[(223)]. من المهم أنه من بين كل الممالك ونواحي السودان الغربي التي تخضع لملك غانة لم يشر الإدريسي إلاّ إلى بلد زافون. هذه الحالة من الاختيارات نتجت على الأرجح بسبب ثغرات في المعلومات التي طرحها هذا الجغرافي. على كل حال فإن هذا البلد معروف جدا عند الزهري الذي ألف كتابه في الفترة نفسها التي ألف فيها الإدريسي كتابه يعني سنوات 1154-1161م.

حكما على المعلومات حول السودان الغربي التي أشار إليها الزهري وكلها تعود بإحكام مثلما عند الإدريسي لنهضة قوة غانة منذ سنة 1150م. من خلاله[(224)] فالعاصمة الثقافية والتجارية لهذه المملكة أسلمت في هذه الفترة والتي كانت في الوقت نفسه عاصمة لبلاد جناوة وهذا الاسم ليس إلا التسمية البربر-عربية للسودان الغربي. على الرغم من أنه كان كذلك في مجرى وجود وأهمية مملكة زافون والتي أشار إلى اسمها محرفا. حسب الزهري[(225)] فإن سكان هذا البلد كانوا مسلمين. لقد هجموا على بلاد أميمة الواقعة في الجنوب الغربي لتومبوكتو، وكانت هذه الهجمات بهدف قنص العبيد. بعيدا عن ذلك كتب الزهري أن الكل مثلما في البلدان السودانية الأخرى كغانة، أميمة أو كَوْكَوْ، فإن تجار سجلماسة (التي تسمى تافلالت) وبلاد السوس في جنوب المغرب الأقصى يصلون إلى غاية زافون(و) بحثا عن الذهب، العبيد، العاج، خشب الأبنوس...إلخ. كذلك حتى وإن وضع بلد زافون في حوالي منتصف القرن 12م تحت سيطرة غانة فقد استمر على الأقل في لعب دور اقتصادي هام بالسودان الغربي كواحد من المراكز التجارية الرئيسية لبلدان الزنوج الجاذبة للتجار المغاربة. نضيف إلى ذلك أنه يوجد موضع غير واضح جيدا في كتاب ياقوت فيه وصف مدينة غدامس[(226)] التجارية ومن خلاله نستنتج أن تجار هذه المدينة يصلون إلى زافون عبر الطريق المار بقاو.

([223])- Dozy et De Goeje, texte arabe pp. 7-10, trad. franç. pp. 9-11 ; voir aussi Mauny, p. 303 *et passim.*
([224])- Hadj-Sadok, p. 182, p.336.
([225])- Ibid., p. 182, p. 337 et p. 184 p. 333.
([226])- Wüstenfeld, III, p. 776.

كتاب الاستبصار الذي كتب في نهاية القرن 12م يخبرنا أن لبلد زافون عاصمة تحمل الاسم نفسه وقد أشار إليها تحت تسمية ز(ا)ف(و)ن(و)[227]. ومن جهة أخرى قد يكون هذا الاسم بُحث عنه في عاصمة زافون من قبل إخباري أو جغرافي عربي ما وأن اسمها الحقيقي قد يكون مختلفا. من الممكن أن يتعلق الأمر بالعاصمة القديمة لناحية ديافونو والتي –حسب تاريخ الفتاش وهو تاريخ سوداني ق 15-16م- كانت تسمى ساعين دنبا (ساعين دمبا). لقد كانت موجودة سلفا في الفترة التي كانت فيها غانة تحكمها عائلة كاياماغا ويتضح أن خرابها كان بعد سقوط هذه العائلة أي بعد سنتي 1076-1077م[228]. ليس من المستحيل أن نربط ساعين دمبا بالموضع الحالي لدمبا الواقعة على الحد الجنوبي الغربي لناحية ديافونو والتي تعرفنا عليها بفضل الخريطة التي أعدها الحاج عمر با (IFAN de Dakar).

قبل أن أنهي مقالي هذا أود أن أقول كلمة في موضوع اسم وأصل شعب زافون على ضوء المصادر العربية القروسطية الأولى. يعلمنا المؤلف المجهول لكتاب الاستبصار أن بلد زافون كان آهلا بشعب يسمى البرابير. هذا الاسم ليس إلا جمعا لاسم باربارا أو بربر. لحد الآن لا نعرف لأي شعب منح هذا الاسم. من الممكن أن مؤلف كتاب الاستبصار قد فكر بالبربر، وفي هذه الحالة قد يكون ذلك تلميحا للحياة نصف البدوية التي يعيشها سكان ديافونو (تحدث عنهم ياقوت كذلك) ولعادة تغطية الوجه التي تخفيهم عن جيرانهم البربر البدو. من جهة أخرى ليس من المستحيل أنه تحت اسم البرابير يعني باربارا أو بربر يختفي الشعب السوداني الذي يسميه الجغرافي الزهري باربارا وأشار إليه أثناء وصفه للسودان. ومن خلاله فالبربر قسم من جناوة أي الزنوج[229]. تبعا لوصف الزهري نستخلص أن هذا الشعب يسكن في وسط الصحراء (على الأرجح يتعلق الأمر بفيافي الساحل الجنوبي) ويرتدي الجلود وهو أمر عادي لدى شعب يغلب عليه المزارعون وعددهم كثير جدا ويشغلون الأراضي الواقعة قرب غانة وتادمكة (شمال ڤاو) التي كانوا يغيرون عليها لقنص العبيد. لقد كان لهم ملك وهو رامي سهام ممتاز. يظهر أنه يمكن تمييزهم بندوب الوشم المحيطة بالوجه وهو عند النساء مثلما هو عند الرجال. هذا الأمر يذكّر بعادة وشم الوجه والأصداغ بالحديد الساخن والتي رآها الإدريسي عند شعب لملم السوداني الجار الشمالي لغانة[230]. من خلال الزهري، يعتقد شعوب الباربارا أنهم الأشرف من بين الشعوب السودانية ويزعمون أن أصل حكام غانة من قبيلتهم[231]. إذن فهي تعد فرع من السونينكي. هل يمكننا إذن أن نعرّف البرابير (باربارا، باربار) بالشعب الزنجي المسمى الباربار والذي حسب

([227])- Kamal, f⁰ 915 r⁰.

([228])-هوداس ودولافوس، تاريخ الفتاش، النص العربي، ص:39. الترجمة الفرنسية، ص: 70-71.
ينظر كذلك: Mauny, p. 125.

([229])-Hadj-Sadok, pp 101 et 180-181 (p. 337, 338, 339).

([230])- Dozy et De Goeje, texte arabe, p. 4, trad. franç. p. 4

([231])-.Hadj-Sadok, pp. 101 et 181, (p. 338.)

الرواية المحلية سكن في القرن 11م موضع تيشيت في جنوب شرق موريتانيا؟ بعض الباحثين يشبّه هذا الشعب الأسطوري بشعب المزارعين ذوي البشرة السوداء المسمى بارباروس في المصادر البرتغالية حيث ظهروا في ق 14م في أدرار الموريتانية على مقربة من الزناڤيين (زناڤة) البربر[232].

---

(232)- P. De Cenival et T. Monod, *Description de la côte Afrique de Ceuta au Sénégal par Valentin Fernandez (1506-1507),* Paris, 1938, pp. 96-97, 120-121, 150, n^{0}140.

مناهج التاريخ







الجزء الثاني ـ التاريخ: قضايا وإشكالات

خالد أوعسو
باحث في تاريخ المغرب
تخصص:تاريخ الهجرة

التاريخ : قضية النموذج.

أ-إطار الإشكالية: العلاقة بالمعرفة العلمية:

تطرح قضية عمل المؤرخ إشكالية قدرة التاريخ على بناء موضوعه وفق قواعد منهجية صارمة تجعله قادرا على إضفاء صفة العلمية على طريقة الاشتغال. صحيح أن قوة أية معرفة لا تعود للذات الدارسة ، ما دام الإنسان ،سواء تعلق الأمر بالعلوم الإنسانية أو بالمعرفة العلمية ، يظل هو نفسه الذات التي تدرس وتحول موضوعات الطبيعة أو الإنسان أو العلاقات إلى موضوعات قابلة للمعرفة . لكن وجود الذات بكل تأكيد لا يسمح بإمكانية قيام علم ، بل

يقتضي الأمر كذلك وجود موضوع ومنهج وهدف أو غاية. وهذه الأخيرة(الغاية) لا تطرح بدورها صعوبة على اعتبار أن اللحظة الحديثة كشفت بما لا يدع مجالا للشك اتجاه الإنسان نحو بلوغ غاية محددة هي تحقيق فكرة السيطرة. فالمؤرخ حينما يشتغل على حدث تاريخي ليس بغاية أن يعرف وفقط ،بل من أجل أن يمتلك الحاضر ويسيطر عليه ويوجهه بما يخدم قضاياه ، أو قل للدقة بما يمكنه أن يفعل في التاريخ ويحول ماضيه إلى نقطة ارتكاز يبني عليها تطلعاته[233]. لذلك كان التاريخ وظل وسيظل ميدانا لإعادة البناء في العلاقة مع الحاضر . ولأن الأمر أضحى بمثابة قضية بديهية ،أصبحت قضية المنهج المعتمد في علم التاريخ بمثابة الإشكالية التي أسالت الكثير من المداد بالنظر إلى أهميتها، هكذا ظل سؤال التماثل أو التمايز مع المعرفة العلمية سؤالا مؤرقا يقع على طرفي نقيض بين الرغبة في بناء تميز للمعرفة التاريخية ،وبين الاتجاه نحو معايرة التاريخ وتحويل خطابه إلى نوع من المعرفة الوضعية القادرة على بلوغ الحقيقة .

فإذا كانت المعرفة العلمية كما هو معلوم تستمد قوتها من صرامة المنهج المعتمد داخلها، وهو منهج للتذكير يتخذ إما صيغة القواعد العقلية الصارمة كما هو الحال في الرياضيات، أو صيغة المنهج التجريبي الذي يقتضي اتباع مجموعة من الخطوات كالملاحظة والفرضية والتجربة والقانون ، وهما صيغتان قد يجتمعان ليمنحا المعرفة العلمية امتيازا موضوعيا مقارنة بأشكال المعارف الأخرى ، الشيء الذي حول المعرفة العلمية إلى "نموذج "تسعى مختلف المعارف إلى اقتفاء أثرها ، بالنظر إلى "الاجماع" الذي يحكم الحقيقة العلمية[234]. وفي هذا الإطار يمكن التساؤل عن خصوصية المنهج المعتمد داخل حقل المعرفة التاريخية ؟.

اختصارا نشير أن هذه الخصوصية تتموقع بين الرغبة في بناء الواقعة التاريخية وفق خطوات تسمح بإمكانية التقاطع على مستوى النتائج بين المؤرخين هذا من جهة ، ومن جهة أخرى الإقرار بخصوصية الظاهرة ، وهي خصوصية ترتبط بجملة محددات:

أولا: المسافة الحاصلة بين الحدث واستعادته ، الأمر الذي يجعل من تكرار الواقعة أمرا مستحيلا ، بسبب استحالة اصطناع الوضعيات والشخوص والسياقات ، لذلك يتم فعل الاستعادة اعتمادا على وسائط (وثائق- شواهد...).

[233] لإعطاء صورة عن الرهانات السياسية التي تحكم الوقائع التاريخية .انظر:عبد اللطيف أكنوش، تاريخ المؤسسات و الوقائع الاجتماعية بالمغرب -،إفريقيا الشرق،1987،ص:7-9.

[234] للتفصيل فيما يتعلق بتأثير المنهج المعتمد في المعرفة العلمية على التاريخ . انظر: عروي،مفهوم التاريخ،المركز الثقافي العربي،ط الأولى، ج الثاني:المفاهيم والأصول،الدار البيضاء،1992،ص:234-237.

ثانيا: لأن هذه الوسائط انتقائية تتفاعل سلبا أو إيجابا مع الحاضر، الأمر الذي يجعل المنطلقات والنتائج المتوصل إليها نسبية.

ثالثا: لأن الأمر يتعلق بالإنسان ككائن منفلت يصعب إخضاعه لقواعد موضوعية . فبالإضافة إلى كونه ذاتا منشطرة على نفسها يتفاعل فيها البعد العقلي واللاعقلي ، فهو كذلك عرضة لاختراق الإيديولوجيات التي تتغذى من الانتماءات الجنسية والقبلية والثقافية ...،وهي أمور تحضر عند "صانع" الواقعة التاريخية بنفس الدرجة التي تحضر عند الذي أخذ على عاتقه أمر استعادتها[235].

أخيرا: لأن الواقعة التاريخية حينما تحدث فإنها بكل تأكيد تنفصل عن صاحبها، ولأنها كذلك ،فإنها تحمل في طياتها أفقين للقراءة : فهي من جهة تنتظم وفق قانون كلي على اعتبار أن أي حدث لا يمكن فهمه خارج دائرة السياقات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية المؤطرة له ، ومن جهة أخرى فإن الواقعة تنسب لفاعلين محددين لهم أسبابهم ، رهاناتهم ، الأمر الذي يطرح إشكالية تفاعل الموضوعي والذاتي في بناء الوقائع ، وبالتالي مسألة الحدود بينهما، إلى جانب الأساسي والثانوي في رسم معالم الحدث التاريخي .

ب - التاريخ بين التفسيري والتجريبي: إذا كان التفسير يعني أساسا ربط النتائج بالأسباب وفق علاقة علية تجعل من وجود السبب تحقيقا للنتيجة، وإذا كان التفسير أحد الأركان الأساسية التي يقوم عليها علم الطبيعة ، حيث لاوجود للصدفة على مستوى النتائج ، مادامت هذه الأخيرة تنتظم وفق قوانين وعلاقات ، وإذا كان العقل هو الذي يكشف عن هذه الأسباب ، فإن السؤال الذي يطرح نفسه هل يمكن إخضاع التاريخ كما هو الحال في الظواهر الطبيعية إلى منطق العلاقات السببية بحيث تعدو الأحداث مجرد تعبير عن قوانين كونية ؟ يبدو أن السؤال في حاجة إلى تدقيق غير أن الأمر ليس كذلك بالنظر إلى كون مرحلة العصور الحديثة رأت في المعرفة العلمية بمثابة ذلك النموذج الذي على العلوم الإنسانية الاقتداء به حتى يتم إضفاء صفة العلمية على التاريخ . لذلك لا غرابة أن يتم التفكير في القيمة الإبستيمولوجية للتاريخ من طرف الفيلسوف الذي تراوحت أحكامه بين النزعة الوضعية والرغبة في إضفاء خصوصية على المنهج المعتمد في دراسة الوقائع التاريخية.

[235] -العروي،م.س، ج 1 الألفاظ والمذاهب ،ص: 161-169 . أيضا **بول ريكور(فيما يتعلق بالإيديولوجيا)، من النص إلى الفعل: أبحاث في الهرمينوطيقا، طبعة سوي، 1986**،ص:419-426.

بالنسبة **لشوبنهاور وجوزيف هورس** ، طبيعة المعرفة التاريخية تجعلها بعيدة عن المعرفة العلمية لجملة اعتبارات:

أولا: لأن التفسير المعتمد في التاريخ يبقى عاما ونسبيا، لأنه من الصعب الحديث عن قوانين بشرية ، ففكرة القانون تفترض وجود ضرورة ، ومن المشكوك فيه أن تخضع أفعال الإنسان للضرورة الصارمة التي تحكم الظواهر الطبيعية.

ثانيا: لأن المعرفة التاريخية إنما تهتم بالطابع المتفرد والجزئي والعابر للحدث التاريخي ، عكس العلم الذي يهتم أساسا بالبحث عن المشترك بين ظواهر تنتظم وفق قوانين كلية.[236]

وأخيرا: لأنه يصعب التنبؤ بالوقائع التاريخية. فإذا كانت العلوم تقوم بوظيفة التنبؤ إلى جانب وظيفة التفسير ، فإن المعرفة التاريخية لا يمكن أن تظفي ما استخلصته من الماضي على الحاضر . وبذلك يستعصي عليها أن تتحول إلى معرفة كلية تشمل الماضي والحاضر والمستقبل ، فالمؤرخ لا يمكنه استنباط المجهول(الحاضر والمستقبل)انطلاقا من المعلوم(الماضي) لأن نفس المقدمات في المجال الإنساني لا تؤدي بالضرورة إلى نفس النتائج[237].

إن هذا الأفق النظري الذي نزع إلى إحداث تمايز بين التاريخ والمعرفة العلمية ، سيدفع فيلسوفا آخر هو **كوليغوود** إلى إقامة ترابط بين التاريخ والإنسان والسببية. فالتاريخ عنده لا يستقيم إلا إذا تحول إلى فعل ، أي إلى أثر مادي ، ولأنه كذلك ، فإن عملية استيعابه تصير ممكنة إذا تم إرجاعه إلى أساس فكري يعتبر وحده المفسر للأثر المادي . نحن إذن أمام علاقة تربط بين السبب والنتيجة كما هو الحال في العلوم الطبيعية ، لكنها سببية ذات خصوصية لأنها تفسر الفعل الإنساني عن طريق عملية "منطقية" تربط بين الدوافع الداخلية الفكرية ، وبين الفعل نفسه .وهو ما يضعنا أمام بعدين : بعد داخلي عقلي يكشف عنه المؤرخ ، وبعد خارجي ظاهري ، وهما بعدين قد تستبطنهما علوم الطبيعة نفسها ، حيث السبب غالبا يكون عقليا ، أما النتيجة فهي ظاهرة جلية [238]. فسقوط المطر على سبيل المثال يحكمها قانون يكشف عنه العقل ، والأمر نفسه بالنسبة للزلزال وسقوط الأجسام . لكن هنا وجبت الإشارة إلى أن

[236]- جوزيف هورس، قيمة التاريخ، ترجمة نسيم نصر ، منشورات عويدات، ط 1 ، بيروت ،1974 ص: 107-110.

[237] - Schopenhauer, le monde comme volonté Et comme représentation , Traduction Burdeau, PUF, 1966,p :1179-1180.

[238] -قيس ماضي فرو: المعرفة التاريخية في الغرب. مقاربات فلسفية وعلمية وأدبية،المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات،ط1، 2013،ص:44-50

السبب الداخلي الفكري حينما يتعلق الأمر بالتاريخ يكون احتماليا نسبيا يتفاعل موضوعيا مع غايات المؤرخ ، عكس ما هو قائم في مجال المعرفة العلمية ، حيث التفسير يتسم بالكونية .

الأكيد أن مرافعة شوبنهاور وكولنغوود تعبر عن سياق مرحلة بكاملها ، سياق يرى في المعرفة التاريخية قدرتها على الاقتراب أو الابتعاد عن المنهج المطبق في المعرفة العلمية ، وهو أمر سيفضي إلى طرح قضية أخرى لا تقل أهمية يتعلق الأمر بقضية الإرادة والحتمية في النظرة إلى التاريخ.

التاريخ :قضية الإرادة والحتمية أو التاريخ بين القانون والعفوية

لعل إحدى الإشكالات الكبرى التي ارتبطت بتأمل التاريخ التساؤل حول الخيارات المتاحة للإنسان وحدود إرادته . فهل نحن أحرار إزاء وقائع التاريخ التي نصنعها بأنفسنا أم أن الأمر يتطلب منا الإقرار بوجود قوانين قبلية هي التي تحدد إرادتنا وقبل ذلك توجه مسار التاريخ.

بالنسبة **لماركس** هناك منطق يحكم التاريخ ، فهذا الأخير لا يتحرك بعفوية، بل هناك نظام ،وهو نظام يسير وفق إيقاع محدد بغض النظر عن نوايا الأفراد . فالناس يصنعون تاريخهم الخاص في ظروف يجدونها معدة سالفا ، ولأن الأمر يتعلق بنوع من الإشراط [239]، فإن ماركس سعى إلى الكشف على حكمة التاريخ : إنها القوانين التي تجعل النظام الاقتصادي محددا وكل ما له علاقة بالبناء الفوقي ما هو إلا انعكاس للأساس الاقتصادي[240] ، ولأن قوانين اللعبة الاقتصادية تنتظم وفق منطق الغاية الاقتصادية ، ترتب عن ذلك صراع بين من يملك الهيمنة وبين من يسعى إلى لتقويضها ، إنه صراع يجعل الأحداث تتغذى على تيمة التناقض كمحرك للفعل الإنساني [241].
وهو الأمر الذي تنبه له كذلك **نيتشه** الذي رأى في إرادة القوة بمثابة الأساس الذي عبره تنتظم الوقائع ، فالتاريخ عنده لا يسير وفق منطق أخلاقي يعبر عن سمو النوع الإنساني ، بل وفق قوانين البشر التي تجعلهم مجرد معبرين عن غرائزهم التي تدفعهم إلى البحث عن المجد [242]. لا غرابة إذن أن يعكس التاريخ درجة العنف الذي مارسه الأقوياء على الضعفاء، ولأنه لم يترع يوما إلى إنصاف الضعفاء ، فقد ظل التاريخ يتحرك في شقه "المتعفن"، أي يعبر عن جبروت الأقوياء ، أولئك وحدهم الذين باستطاعتهم أن يصنعوه وأن يوجهوه وفق غاياتهم . من هذا

[239] -Karl Marx, le 18 Brumaire de Louis Bonaparte, Ed Sociales, Paris , 1969,p :50-52.
[240]- كارل ماركس و فريدرك انجلز، البيان الشيوعي، المكتبة الاشتراكية،ط4، 1972،ص:40-43.
[241] -Karl Marx, Contribution à la critique de l’économie politique, Ed. Sociales, Paris, p :1957(Préface).
[242]-ف.نيتشه، جينالوجيا الأخلاق ، ترجمة وتقديم محمد الناجي، إفريقيا الشرق، البيضاء ،2006، ص:20-21.

المنطلق ظل التاريخ بعيدا عن الأخلاق ، تاريخا تجزيئيا مادام يعيد إنتاج السلطة الرمزية لأولئك الذين يمتلكون القوة ، أي أولئك الذين يصنعون التاريخ الفعلي [243]، فظل الضعفاء على الهامش ، لقد ظلوا مجرد أشخاص معطوفين على أولئك الذين ربطوا بين مجدهم وانتصاراتهم وصناعة التاريخ . هكذا عبر التاريخ عن إرادته الخاصة ، ومعها يتحول الأفراد إلى مجرد وسائط لتحقيق هذه الغاية ، وما الوقائع التاريخية إلا بحث عن هذا المطلق بما هي غاية ينشدها التاريخ ، أي اللحظة التي يعمد فيها الإنسان إلى ملامسة كل معاني الوحدة، الحرية، العقلانية...هكذا أضحى التاريخ مع **هيجل** سيرورة تنتظم وفق خط محدد، فكل ما هو تاريخي ما هو في الواقع إلا تجسيد لمرحلة من مراحل معرفة الذات . ومعنى ذلك أن التاريخ إنما يظهر في بعض الأشكال المحددة ، وهذه الأشكال هي الشعوب التاريخية ، فكل واحد منها إنما يعبر عن حقبة معينة تدل عن مرحلة من مراحل التاريخ الكوني ، حيث تشكل الشعوب التاريخية بتعبيراتها الجماعية ، بدستورها، بفنها ، بعلمها ...الأشكال التي تدل على المستوى الذي بلغه تطور الإنسان .يتحدد التاريخ إذن باعتباره مراحل تجسد مستوى الروح في الواقع الإنساني ، والعظماء الذين يحبل بهم التاريخ إنما هم أولئك الذين تمكنوا من إدراك مستوى تطور الروح وسخروا حياتهم لتجسيدها[244] ، وما بسمارك أو نابليون إلا بمثابة تلك الطينة التي تملكت منطق التاريخ وسعت إلى تحقيقه ، وبذلك تمكنوا من أن يجسدوا هذا التناغم بين منطق العقل والفعل التاريخي .وفق هذا السياق لا يستطيع أحد أن يقفز على روح عصره وماعدا ذلك نكون أمام انشطار الوعي أو ما يسميه هيجل بالوعي الشقي [245]. إن قيمة الفعل الإنساني في التاريخ تكمن في مدى قدرة الإنسان على التناغم مع عصره ،ومتى حدث ذلك نكون أمام عظمة التاريخ . بهذا المعنى ليس الإنسان سوى وسيلة لتحقيق غايات التاريخ ، وما عليه سوى أن يفكر في معنى هذ الأخير ، وبالتالي عليه أن يفحص دلالة تلك الأحداث باعتبارها تتطابق وغايات يسعى التاريخ إلى تحقيقها. هكذا تحول التاريخ إلى قوة مجردة ،ضاغطة، محددة ، موجهة للإنسان ،هذا الأخير الذي لم يعد يملك ما يلزم ليحدد مصيره ويتحكم في تاريخه وبالتالي يعطي معنى لوجوده . نحن إذن أمام قضية إشكالية بطلها الإنسان والتاريخ حيث التساؤل ينطوي على درجة التبعية وحدتها ، فهل الأمر يتعلق باستقلالية نسبية أم بتبعية مطلقة؟ هل بإمكان الإنسان إذن أن يتعالى

[243] -Nietzsche, opinion Et sentences, in Humain trop Humain 2, Ed Gallimard, Folio Essai, 2006, p :111-112 .

[244]-ج.هيبوليت، دراسات في ماركس وهيجل ، ترجمة جورج صدقني، منشورات وزارة الثقافة، دمشق،1971، ص:43-44.

[245] - Hegel, la raison dans l'histoire, Traduction K .Papaioannou , UGE, Coll 1965, p :96-98.



عن قوانين الاقتصاد والاجتماع والسياسة التي تصنع اليوم تاريخ الإنسان ؟،أكثر من ذلك هل بإمكانه أن يتحرر من قوانينه البيولوجية ونظامه الاجتماعي وتركيبته النفسية والعقلية ليصنع بنفسه ما يشاء. نحن إذن أمام أسئلة تلقائية تتناسل لتفصح من خلالها عن إشكالية هذه العلاقة الغريبة التي تجمع الإنسان بالتاريخ.

فإذا كانت مجموعة من التصورات المعرفية عموما رسخت أفقا لحل هذه الإشكالية بالتأكيد على كون مسار التاريخ خاضع لقوى غير إنسانية تفرض الخضوع لها سواء كان ذلك بشكل واع أم غير واع ،فإن السؤال الذي يطرح نفسه هل بوسع المؤرخ أن يرى في الأحداث فعلا خارجيا ؟ ألا يعني ذلك إعلانا رسميا بموت الإنسان ، مادام لم يعد قادرا على صناعة تاريخه ؟ ثم ما معنى أن تتجه العديد من الفلسفات الغربية (الوجودية مثلا)، وكذا الفكر القانوني إلى رد الاعتبار للإنسان واعتباره مسؤولا عن أفعاله ؟ ألا يعني ذلك ميلاد نظرة جديدة تتخذ من الفاعلية الإنسانية محددا لها في نظرتها للتاريخ؟

ضمن هذا الأفق الإشكالي يدافع عبد الله العروي عن اعتبار الإنسان هو المسؤول الأول والأخير عن صناعة التاريخ، وهي قناعة تم استنباطها من طرف الحداثة الغربية ، من هنا دعوته لاعتناق هذه النظرة حتى تنعكس عن أوضاعنا السياسية نظرا لطابعها الدينامي الذي يؤمن بقدرة الإنسان على اختيار قدره . إن في إحالته المتكررة على المجتمع الصناعي من خلال فهم هذا الأخير للتاريخ لم يكن أمرا عبثا ، ذلك أن هذه النظرة للتاريخ هي التي سمحت بالتطور الحضاري والصناعي الذي عرفه الغرب، إنه تصور شكل أساسا للعمل السياسي الغربي ، فعلى أي أساس ينبني هذا التصور مشروعيته؟

يحدد العروي مميزات نظرة الغرب للتاريخ في مسألتين اثنتين: أولهما إيجابية الحدث التاريخي، أي أن هذا الأخير يبقى قابلا للتقييم انطلاقا من الحاضر، من هنا التأكيد على ترابط الماضي بالحاضر، فإذا ما انتهى ماض مشرق إلى حاضر مقيت ، فإن الماضي أيضا يفقد الكثير من لمعانه وبريقه وإجرائيته . أما السمة الثانية التي تسم المنظور الغربي للتاريخ فتكمن في الإقرار الصريح والعلني لمسؤولية الإنسان ، وهي مسؤولية تخدم في نهاية المطاف حقل السياسة[246] .

[246]- عبد الله العروي، العرب والفكر التاريخي، المركز الثقافي العربي،ط 4 ، 1998 ، ص: 91-95.



فإذا كانت هذه الأخيرة تحيل على قدرة الإنسان على التدبير، فإن فهم دور الإنسان في التاريخ لا يتحقق إلا على ضوء الاعتراف بالترابط الحاصل بين الأحداث بحيث يكون بعضها سببا لحدوث الآخر. هنا يتدخل الإنسان ليقدم نفسه كصانع للتاريخ ، وحينها فقط يتحول التاريخ إلى مجال لمحاكمة أفعال الإنسان ، وبالتالي لتحميله المسؤولية مادام أن القيام بفعل في التاريخ أو الامتناع عن القيام به لا يتساويان، فنحن الذين نختار الوصول إلى هذه الوضعية التاريخية التي نعيشها اليوم والتي تعتبر استمرارية لمسلسل من التطور التاريخي . من هنا أهمية النظرة التاريخية القائمة على إعطاء معنى لحقيقة الإنسان كفاعل تاريخي . بيد أن الإقرار بأهمية دور الإنسان ومسؤوليته لا يمنع من التساؤل عن حقيقة الإرادة الإنسانية : فهل حرية الإنسان كفاعل تاريخي حرية أصلية قائمة الذات لا تشوبها شائبة أم أن هذه الحرية شكلية وهامشها يتسع ويتقلص بحسب قيمة الفعل التاريخي وخصوصية السياق.

على العموم يبدو أن هناك غموض بخصوص حقيقة الدور الذي يمكن للإنسان أن يلعبه في التاريخ وحدود هذا الدور. فإذا ما نحن نظرنا إلى التاريخ منظورا كليا يتبدى لنا أن الإنسان هو الصانع الفعلي وهو السلطة التي تملك زمام أمرها مادام هو الذي قرر وأراد أن تكون الأحداث بتلك الطريقة لأنه لو أراد العكس لفعل ، ومعنى ذلك أنه أمام اختيارات متعددة ، وبالتالي عليه أن يتحمل تبعات اختياراته لأنه هو الذي أراد للتاريخ أن يحمل في طياته الوحدة الألمانية ، وطرد المورسكيين، والحربين العالميتين، والوحدة الأوربية وما إلى ذلك...بيد أننا إذ ما دققنا النظر بإمكاننا أن نتساءل هل بإمكان أحد منا تجنب مصيره في التاريخ ؟ هل كان بإمكان بيسمارك ألا يظهر له أثر في تاريخ ألمانيا ؟ هل بإمكاننا اليوم أن نسبح خارج دائرة التجاوز الذي فرضه العالم الغربي بعلومه وحروبه وتقنياته ؟ ألا يمكن تشبيه التاريخ بنهر جارف يحمل بين طياته مجموعة أحداث ما على الإنسان سوى مجاراتها ليدخل نهر التاريخ.

بين القدرة على الفعل والخضوع لمنطق التاريخ وضوابطه تبرز نظرتين مختلفتين لعلاقة الإنسان بالزمن، وهي علاقة تساءل جانب القدرة الإنسانية ، أي في مدى وعي هذا الأخير بأنه كائن تاريخي عليه أن يلعب دوره بإتقان داخل مسرح الأحداث ، فالإنسان يدرك تمام الإدراك أن وجوده عابر ،وأنه سيغادر الوجود كما دخله ذات مرة . إن هذه البداية والنهاية التي لا دخل له فيها تجعل علاقته بالزمن متوترة وصراعية تتمظهر من خلال الخدوش التي يتركها كل واحد

منا على وجه التاريخ ،وهي خدوش تتجه نحو الاستمرارية في الزمن عبر تخليد الأسماء والأحداث . هكذا يمكن للإنسان أن يخلد بعد موته في التاريخ كما هو حال العديد من الأشخاص الذين يؤثثون التاريخ الإنساني، لكن مع ذلك فالتخليد لا يعني فقط حدوث أُثر مادام التاريخ كان وسيظل دائما محكمة كبيرة لأولئك الذين دخلوا بابه الضيق وذلك مهما كانت موازين القوى التي تصنع حقائقه ، ذلك أن زعيم اليوم قد يتحول غدا إلى شخص منبوذ، الأمر الذي يطرح قضية الذاتي والموضوعي داخل حقل الكتابة التاريخية.

تاريخ الجنوب المغربي





مقاومة احاحان للاحتلال الفرنسي وأحداث دار لوضا



محمد أبيهي
باحث في تاريخ المغرب المعاصر

مقدمة:

ساهم الحاحيون عبر التاريخ في مقاومة التدخل الأجنبي، وكان حضورهم وازنا في الصد للمناورات الأجنبية، ومن هذا المنطلق انخرطت جل قبائل احاحان في مقاومة هذا التدخل، وشكل التدخل الفرنسي بالمنطقة إعلانا لانطلاق حركة مقاومة محلية ضد الاستعمار الفرنسي، وانتظمت هده المقاومة في إطار حركة محلية، تهدف إلى مواجهة المحتل، بما توفر لديهم من إمكانيات، وقد خلد الحاحيون أمجادهم وبطولاتهم في معارك خالدة، وارتبطت مقاومة احاحان بمقاومين طبعوا معالم التاريخ الملحي، وساهم فيها أفراد وأعيان وقواد القبائل وأسر قائدية ،فقد ضحوا من أجل الأرض،ومن أجل الكرامة والحرية لمواجهة المحتل الفرنسي.ما هي مراحل مقاومة القائدين محمد

أنفلوس وعبد الرحمان الكيلولي لفرنسا؟ وكيف استطاعوا بجهود القبائل حصار الجيش الفرنسي بدار لوضا؟

نستحضر في تاريخ احاحان أحداثا تاريخية مجيدة في مقاومة الأجنبي منذ الاحتلال البرتغالي إلى الاحتلال الفرنسي، ومازالت رواسبها راسخة في الذاكرة الشفوية الأمازيغية بالمنطقة.سأبدأ بعرض مرحلتين ميزتا تاريخ المقاومة الحاحية:

أولا: مقاومة الحاحيين للاحتلال البرتغالي خلال القرن 15م

امتد التكالب البرتغالي على السواحل المغربية مرتكبا شتى أنواع الدمار وتخريب المدن،[247] وبدأت تتشكل لتعزيز قواها أمام التدخل البرتغالي الذي استغل النزاعات المحلية، التي تثيرها القبائل العربية في فرض الإتاوات، وقام البرتغال بتخريب تدنست وفر سكانها إلى الجبال بسبب توطؤ يحي أوتعفوفت مع قائد جيش البرتغال بأسفي.[248]

واتجه الحاحيون لتنظيم مقاومتهم بزعامة وتأطير مريدي الإمام محمد بن سليمان الجزولي،[249] واعتمد الاحتلال البرتغالي بالمنطقة على وسطاء محليين كيحي أوتعفوفت،وشكلت أسفي مركزا لانطلاق الحملات العسكرية البرتغالية المتجهة نحو الجنوب،الذي واكبه خلو المنطقة من ممثلي السلطة المركزية.[250] وضرب الحاحيون الحصار على الأماكن التي وجد بها البرتغاليون وشنوا عليهم حرب العصابات، وكان للعلماء والصوفية دور في إذكاء روح الجهاد،[251] ويعتبر كشيخ الزاوية المنانية سعيد بن عبد النعيم الحاحي، الذي تمتع بنفوذ روحي بالأطلس الكبير الغربي وعبدة، وتمكن أحمد الأعرج من قتل يحي بن تعففت وسحق الجيش البرتغالي،الذي تراجعت قوته

---

[247] "...فمن المعلوم أن البرتغاليين احتلوا أسفي في 1508م...أي أنهم سلطوا هجومهم بصورة خاصة على تلك المنطقة للنفوذ منها إلى مراكش...وأمام الغياب الرسمي،قامت مقاومة شعبية عانى منها البرتغاليون الأمرين..." محمد زنيبر،إطلالة على منطقة الصويرة في العصر الوسيط،مقال منشور ضمن سلسلة ندوات،ندوة مدينة الصويرة الذاكرة وبصمات الحاضر، منشورات كلية الآداب باكادير 1990م،ص:87.

[248] "الحسن الوزان،وصف إفريقيا،الجزء الأول،ص:78.

[249] تعتبر أفكار الإمام الجزولي امتداد لأفكار المتصوف عبد السلام ابن مشيش،إلا أن الإمام الجزلولي حاول تجاوز الطائفية في الممارسة الصوفية،كانت طموحاته هي طرد المحتل وتوحيد المغرب على أرضية مذهبية موحدة ومحاربة الكثير من العادات التي انحرفت عن الدين كالشعوذة،حيث ألف كتاب دلائل الخيرات،الذي سعى من وراءه تبسيط الممارسة الدينية عن طريق التكرار على الصلاة على النبي،وأسس بالتالي أرضية فكرية تصوفية،شكلن مدرسة للعديد من المريدين اللذين سيتزعمون تحرير الثغور باسم إرادة الإمام محمد ابن سليمان الجزولي.

[250] عرف التطور السياسي خلال القرن 15م،صراعا حول السلطة بين المرينيين والوطاسيين وما كان له من انعكاس في رغبة المناطق الأخرى في إيجاد زعامات بديلة عن الوطاسيين اللذين عجزوا عن الحفاظ على وحدة المغرب وطرد البرتغال من السواحل المغربية.

[251] محمد زنيبر،إطلالة على منطقة الصويرة في العصر الوسيط،مرجع سابق،ص88.

إلى أسفي، وتحصن من داخل أسوارها، وبدأ الاحتلال البرتغالي في التخلي عن بعض الموانئ التي يصعب الاحتفاظ بها.[252] ونجد إشارات عديدة عند الحسن الوازان حول الدور الحيوي لاحاحان في الصد للاحتلال البرتغالي، فقد نظموا أنفسهم رغم غياب السلطة المركزية، واتخذوا من قريتي تفتنة وتركوكو باحاحان مركزا لجلب الأسلحة المستوردة من الخارج.[253]

ثانيا:مقاومة احاحان للاحتلال الفرنسي: مقاومة محمد أنفلوس نموذجا

1ـــ الأصول الاجتماعية لأسرة آل أنفلوس الحاحية:

يطلق مصطلح أنفلوس على أكرام القبيلة أو الرجل الصالح المتسم بالذكاء والخبرة والشجاعة، ومن المرجح أن تكون أسرة أنفلوس لها أصول اجتماعية مرموقة داخل وسط قبيلة انكنافن، واشتهرت هذه الأسرة باحاحان منذ انهيار ايالة القائد الحاج عبد الله أبيهي، حيث تولى مبارك انفلوس قيادة قبيلة انكنافن، الذي كان كاتبا خاصا للقائد الكبير الحاج عبد الله أوبيهي الحاحي إلى أن توفي هذا الأخير وعجز ابنه محمد أمعضور عن تسبير إيالته والده، فسطع نجم مبارك أنفلوس وأصبح من قواد الكبار باحاحان، وسعى لتوسيع مجال نفوده بإثارة وافتعال القلاقل بينه وبين قواد احاحان خصوصا القائد لحسن أوتكزرين والحاج علي القاضي باداويسارن، وتلاه القائد أحمد انفلوس الذي يعتبر من أبرز قواد هذه الأسرة، وتعرض للاغتيال بمؤامرة من القائد مبارك المتوكي بسبب الخلافات الواقعة بينهما والعداوة الأبدية بين متوكة واحاحان، ليتولى ابنه محمد أنفلوس القيادة،وقد صادفت مرحلة قيادته بداية الاحتلال الفرنسي للمنطقة.

2.صورة القائد محمد أنفلوس في المصادر الفرنسية:

تزعم محمد أنفلوس مقاومة قبائل احاحان للإستعمار الفرنسي، الذي دخل إلى قبيلة اينكنافن واحتلها عبر " بوريقي " وألحق بها الدمار وكذلك زاوية سيدي محمد الجازولي، كما خربوا قصبة أنفلوس، وفر محمد أنفلوس إلى قرية أيت عيسي فمكث هناك وأصحابه، فظل يرسل من هناك مخبريه إلى تمنار لاستطلاع الأوضاع ومده بالأخبار .

كانت صورة القائد محمد أنفلوس في الكتابات الفرنسية، تتسم بنوع من الشجاعة، فهو ذلك الزعيم القبلي القوي، فقد زاره قصبته ادموند دوتي سنة 1906م، وتحدث في تقرير له عن هيبة قصبة تمسورين بالمنطقة وقوتها السياسية المهيمنة بنكنافة واداوكرض. كما تحدثت المصادر

---

[252] حجي محمد،الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين،الجزء الأول،مطبعة فضالة،**1978**م.،ص ص:**43** و**44**.

[253] محمد زنيبر،إطلالة على منطقة الصويرة،مرجع سابق،ص:**88**.

الأجنبية عن قوة أسرة اينفلاس،ومن أبرز الأحداث التي تؤرخ لقوة هذه الأسرة، هو إقدام القائد أحمد أنفلوس على ترحيل يهود الصويرة.[254]

وخلال بداية الاحتلال الفرنسي لموكادور، ظهرت أسرة اينفلاس على مسرح الأحداث بالمنطقة، لتعلن عن بداية مقاومة الاحتلال الفرنسي بتنسيق مع أسرة اداو كيلول، حيث وجهت القوات الفرنسية بعد توقيع الحماية الفرنسية حملاتها العسكرية إلى جنوب الصويرة لمواجهة خطر الزعامات المحلية الموالية للألمان، لتندلع بعد ذلك مقاومة الحاحيين ضد الاحتلال الفرنسي.[255]

3 ــ أحداث حصار دار لوضا:دجنبر 1912م

رمت فرنسا بثقلها العسكري في السهول والهضاب ولكن شكلت جبال الأطلس الكبير فخا لا تكفي القوة العسكرية وحدها لإخضاع هذه القبائل،و لم تستتب لها الأمور بجبال الأطلس إلا بعد مطلع الثلاثينات.[256] وهيأ الجيش الفرنسي فيلقا ضخما يتكون من جنود وضباط يقودهم الكولونيل ماسوتي، وأمر السلطان المولى يوسف القائد محمد أنفلوس ليكون في طليعة الجيش الفرنسي نحو القبائل المجاورة للصويرة، التي استنكرت الاحتلال الفرنسي لموكادور،فوصل الخبر إلى القائد عبد الرحمن الكيلولي، وحسب الرواية الشفوية فقد كتب رسالة مستعجلة إلى نظيره محمد أنفلوس، يحثه على التراجع عما أقدم عليه، فاستجاب لطلبه بعد أن هدده عبد الرحمن الكيلولي بخراب قصبته، حيث رابط آنذاك بواد إيكوزولن الذي يعتبر حدا فاصلا بين إيالة انفلوس وعبد الرحمن الكيلولي.

وحاولت السلطات الفرنسية بموكادور احتواء موقف القائدين الخارجين عن طاعة المخزن،[257] وأخبر القائد محمد انفلوس الكولونيل ماسوتي أن أصدقاءه من القبائل تخلوا عنه

---

[254] الصديقي بن سعيد محمد ، إيقاظ السريرة لتاريخ الصويرة ، ص 54 .

[255] المختار السوسي،المعسول،م.س،ج 15،ص:ص: 233

[256] ابراهيم ياسين، جنوب أطلس مراكش، مرجع سابق، ص: 11.

[257] نقلا عن الرسالة الموجهة الى القائد السيد ايكيدر الزلطني من طرف السلطات الفرنسية بموكادور مؤرخة في 29 اكتوبر 1912م وبعد ثلاثة أشهر من هذا التاريخ ستقع واقعة "دار الحاج علي القاضي"، المصدر: وثائق آل ايكيدر

وعصوا أوامره ونصحه بدخول دار الحاج علي القاضي،[258] تفاديا لخطر المجاهدين المرابطين بين إداوكرض ونكنافة واداويسارن وإداوكيلول، الذين تعاطفوا مع حركة أحمد الهيبة بعد أن تمت مبايعته سلطانا في تزنيت، ومن هناك بدأ الاتصال بأنفلوس والكيلولي.

وجدت القوات الفرنسية نفسها بدار الحاج علي القاضي محاصرة من طرف المقاومين،[259] إلى أن هب لنجدته من الصويرة فيلق أخر من الجنود الفرنسيين ففكوا الحصار عن الكتيبة الفرنسية الناجين من الحصار، وخرجوا الدار تاركين عددا كبيرا من قتلاهم متجهين إلى موكادور عبر الساحل يحرسهم أسطول كبير.[260] وقاد هذا الحصار كل من إبراهيم بن الحاج محند بن الحاج علي القاضي وسي أحمد الحاج علي ن لوضا، ومحمد أوعبد الله أوشيبان النكنافي وادكرواان.

وكانت واقعة دار الحاج علي القاضي من أبرز الأحداث الدامية بالمغرب التي هزت الرأي العام الفرنسي، خصوصا التيار المنادي بضرورة تجنب حرب استعمارية بالمغرب، وكتبت بأحرف بارزة في الصحف الباريزية خصوصا صحافة اليسار الفرنسي، التي ندد بالسياسة المتبعة من طرف ليوطي، ولمواجهة ضغط الرأي العام الفرنسي سلكت السلطات الاستعمارية بالمغرب سياسة تحفظ أرواح أبنائها بالاعتماد على القيادات المحلية وإمكانيات القبائل المادية،[261] مما عجل بحملة الجنرال برولار على القبائل الحاحية بعد الأحداث الدموية لحصار دار لوضا.

جدول رقم 1:أهم معارك الحاحيين ضد الاستعمار الفرنسي

المعركة	عدد القتلى	تاريخ وقوعها
معركة دار لوضا ـــ قاد هذا الحصار كل من ابراهيم بن الحاج محند بن	76 قتيلا من الجنود الفرنسيين. ـــ حصيلة مرتفعة من المقاوميين وساكنة القصبة	دجنبر 1912م

[258] نسبة الى احد شيوخ القائد الحاج عبد الله اوبيهي بعد وفاة هذا الاخير، تولى القيادة على إداويسارن وبني حصنا صغيرا فوق منبسط تحيط به جبال بمثابة أسوار تحمي هذا الحصن الذي يشرف على السهول والربى المجاورة للطريق الرئيسية بين الصويرة واكادير

[259] المختار السوسي، المعسول، الجزء 15، ص:234.

[260] نادرا ما كانت القوات الفرنسية تتجرأ على الابتعاد عن الساحل لاعتمادها على مؤازرة بوارجها الحربية، ونفس الشيء وقع بالنسبة للبرتغاليين أثناء احتلالهم للثغور والشواطئ المغربية خصوصا بحاحا، فهم لا يتوغلون في المناطق الداخلية بقدر ما يستقرون في السواحل مخافة هجوم القبائل عليهم.

[261] جامع بيضا، سقوط اكادير تحت الاحتلال الفرنسي وسياسة القواد الكبار"بالمنطقة في عهد ليوطي، ص" 168 و 169 (بتصرف) مقال نشر بسلسلة ندوات، ندوة مدينة اكادير، 1991، الشق التاريخي، م. كلية الآداب، ج. ابن زهر.

الحاج علي القاضي وسي احمد الحاج علي ن لوضا،ومحمد أوعبد الله أوشيبان النكنافي وادكرواان	ـــ قادها من الجانب الفرنسي الكولونيل ماسوتي ـــ اخبر القائد محمد انفلوس الكولونيل "ماسوتي" أن أصدقاءه من القبائل تخلوا عنه وعصوا أوامره ونصحه بدخول "دار الحاج علي القاضي"[262]	
معركة امين تاقندوت	حصيلة مرتفعة من المقاومين	يناير1913
معركة بوتازارت	حصيلة مرتفعة من المقاومين قادها من الجانب الفرنسي الكولونيل كودشوت ـــ ليوتنون بلوكيل	24 دجنبر 1912م

4 ـــ حملات الجنرال برولار ضد المقاومة الحاحية:

تحيرت سلطات الحماية الفرنسية بالصويرة من خطورة القائدين محمد أنفلوس وعبد الرحمان الگيلولي بعد ورود أخبار استمرار إتصالهما السري مع ألمانيا، وزار الجنرال ليوطي مدينة الصويرة لوضع الخطط الكفيلة لتطويق المقاومة الحاحية، ولذلك تأسست القيادة العامة للجنوب بمقتضى قرار مقيمي بتاريخ 11 فبراير 1913م لمواجهة خطر التنسيق الألماني السري مع المقاومة المغربية، وعهدت مهمة الإشراف على هذه القيادة إلى الجنرال برولار(Brulard) من أجل مراقبة النشاط السياسي والعمليات العسكرية بالجنوب بفعل إشتداد مقاومة القبائل.[263]

وقد ساهمت قبيلة انكنافن واداويسارن في تدعيم مقاومة محمد أنفلوس بالرجال والعتاد، وتكونت من خمس فرق رئيسية: خمس أيت محند ـــ خمس أيت باها ـــ خمس إداوخلف ـــ خمس أيت جوجكل ـــ خمس إغرمان، وكان لقوة التنظيم الاجتماعي والسياسي لهذه القبائل

---

[262] نسبة الى احد شيوخ القائد الحاج عبد الله اوبيهي بعد وفاة هذا الاخير، تولى القيادة على إداويسارن وبني حصنا صغيرا فوق منبسط تحيط به جبال بمثابة أسوار تحمي هذا الحصن الذي يشرف على السهول والربى المجاورة للطريق الرئيسية بين الصويرة واكادير

[263] R.M.P,B.N.R.M ,Rabat.Mois de Janvier 1913.

دور في تنظيم صفوف المقاومة المحلية ضد المحلات الفرنسية المرابطة بالصويرة، وتزعم الجنرال برولار حملة عسكرية واسعة لإزاحة محمد أنفلوس أكبر المخالفين للكيلولي والهيبة.

وقام طابور تألف من 5000 رجلا بمغادرة الصويرة في اتجاه قصبة أنفلوس، التي تمكن من السيطرة عليها في 24 يناير1913م بعد معارك ضارية بين الطرفين، واحتل مقر قيادته بتمسورين، ووجد بها مؤنا ضخمة من القوت والذخائر.

وصلت الجيوش الفرنسية إلى بوريقي بوساطة القائد مبارك عدي الكنفاني، وتعرض الفرنسيين لمقاومة شرسة في ايمي نتقاندوت بالقرب من زاوية سليمان الجزولي وحسب الرواية الشفوية فقد مات فيها كثير من الفرنسيين وعدد كثير من جنود فرقة ايت محند، وقتل قائدها محمد أوعبد الله أوشيبان،وقام الفرنسيين بعدها بقصف زاوية سليمان الجزولي بدعوى احتوائها لأتباع محمد انفلوس وخربوا زاوية أوحسن.

ولما غلب أتباع أنفلوس خرجت عائلته وأصحابه إلى أيت عيسي وبقي هناك يرسل السرايا ضد الفرنسيين بالقرب من إداوكيلول، بعد إطلاق القذائف على مقر إقامته وهدموه بالكامل. استطاع الفرنسيون تحقيق مكاسب سياسية بعد احتلال قصبة أنفلوس، وظلت مسألة الإغراء والمكافآت للزعماء المحليين موضوع اهتمام خاص في أعلى هرم الإدارة الفرنسية بالمغرب آنذاك،[264] حيث بدأت القبائل تتعود على طاعة رؤسائها الجدد الذين عينتهم السلطات الاستعمارية في إطار سياسة القواد الكبار.[265]

وأشارت التقارير الاستعمارية الشهرية إلى قيام محمد أنفلوس بربط علاقات مع القائد العربي الضرضوري الموالي للألمان وأحمد الهيبة،[266] ووصف لنا الفقيه أبي الحسين علي بن عبد الله الإلغي هذه التطورات السياسية، حيث ارتفع عدد قتلى المجاهدين في منطقة بوريقي بنكنافة، واندهشت القبائل بعد خروج أنفلوس قصبة تمسورين عقب القصف العنيف، وقامت القبائل

---

[264] بيضا جامع،سقوط أكادير تحت الاحتلال الفرنسي،م.س،ص:167.

[265] R.M.P,**B.N.R.M** ,Rabat,Mois De février 1913.

[266] R.M.P,**B.N.R.M** ,Rabat,Mois de mai 1913.

الجبلية بالهجرة مخافة الزحف الفرنسي، حيث كان القائد المتوكي رفقة الفرنسيين في قتال قبائل اداوزيكي، وأكسيمن، وامسكين وادوتنان.[267]

وفي الوقت نفسه، تدخل عبد المالك المتوكي في استسلام القائد محمد أنفلوس، الذي أعطى له المتوكي العهد بعدم مسه بسوء هو وعائلته في كوزمت،[268] ليتم ترحيله إلى مراكش، واستولى مبارك بن عدي النكنافي على قيادة نكنافة وإداويسارن وإداوكرض دفعة واحدة بمباركة السلطات الفرنسية،[269] ووصل إلى أوريرايزركين بأداوخلف حيث نصب خيامه مؤقتا كحاكم على هذه القبائل في انتظار اعادة بناء قصبته المخربة، وانصبت جهود الفرنسيين على إمداد قواد القبائل بالعتاد والأسلحة لتأمين مرور الجيوش الفرنسية في اتجاه أكادير، نظرا لما تحتله هذه المدينة من رمزية معنوية لدى قوات الاحتلال الفرنسي، حيث تعتبر السيطرة عليها ضربا في معنويات المقاومة بسوس التي تتلقى دعما سريا من ألمانيا،[270] وعملت القوى المحلية على توفير المؤن والإقامة للمحلات الفرنسية المتوجهة إلى قبائل الجنوب المغربي من أجل التمهيد لاحتلالها العسكري.

حاصل القول،نجحت الاستراتيجية العسكرية الفرنسية في القضاء على مقاومة القبائل الحاحية خلال البدايات الأولى للحماية الفرنسية، ولكن بقيت مجالات عدة لم تخضع لسيطرة الفرنسيين بالجنوب المغربي بعد إخضاع قبائل احاحان، ومازال توثيق ذاكرة مقاومة الحاحيين للاستعمار الفرنسي في حاجة إلى التقصي العلمي والميداني للكشف عن حقائق مشرقة عن هذه المقاومة المجيدة، التي دافعت عن وحدة الوطن في سبيل الحرية والحفاظ على استقلال البلاد.

---

[267] رسالة موجهة من الفقيه أبي الحسين علي بن عبد الله الالغي إلى الفقيه الطاهر بن محمد ألا فراني،مؤرخة في **16** صفر عام **1331**هـ/**1913**م،المصدر:إذّ إبراهيم إبراهيم التامري،المتعة والراحة في تراجم أعلام حاحة، مطبعة النجاح الجديدة - الدار البيضاء،**1995**،ص:**230**.

[268] تتواجد بين حاحا ومتوكة.

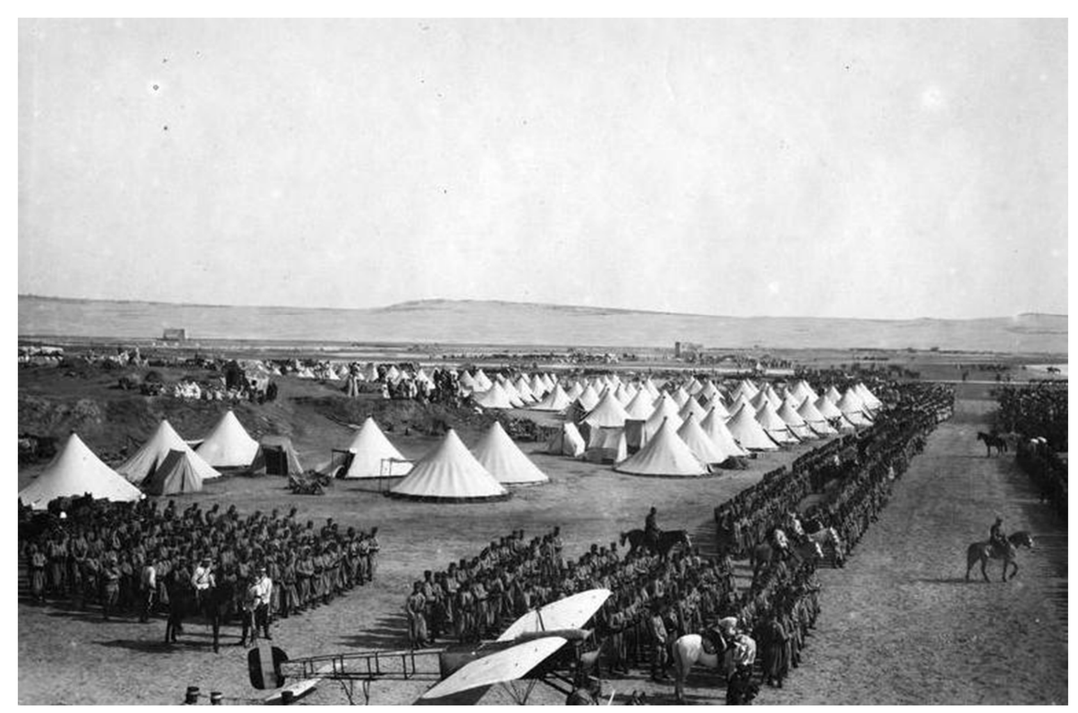
[269] من المرجح أن يكون تعيين القائد مبارك النكنافي على هذه القبائل قد تم بدون ظهير سلطاني ولكن بأمر مباشر من السلطات الفرنسية بموكادور التي كانت تتابع عن كتب تطورات أوضاع المنطقة باعتبارها مدخل إلى الجنوب خصوصا اكادير.

[270] بيضا جامع،سقوط أكادير تحت الاحتلال الفرنسي ،م.س،ص:**158**.



الصورة رقم 1:القائد محمد أنفلوس رفقة ضباط فرنسيين سنة 1912م. المصدر:

Ministère de la Culture (France), Médiathèque de l'architecture et du patrimoine, diffusion RMN



الصورة رقم2:نزول الجيش الفرنسي بشاطئ الصويرة استعداد لمقاومة الحاحيين. المصدر:

Ministère de la Culture (France), Médiathèque de l'architecture et du patrimoine, diffusion RMN



الصورة رقم3:دخول الجيش الفرنسي لقصبة تمسورين معقل القائد محمد أنفلوس.المصدر:

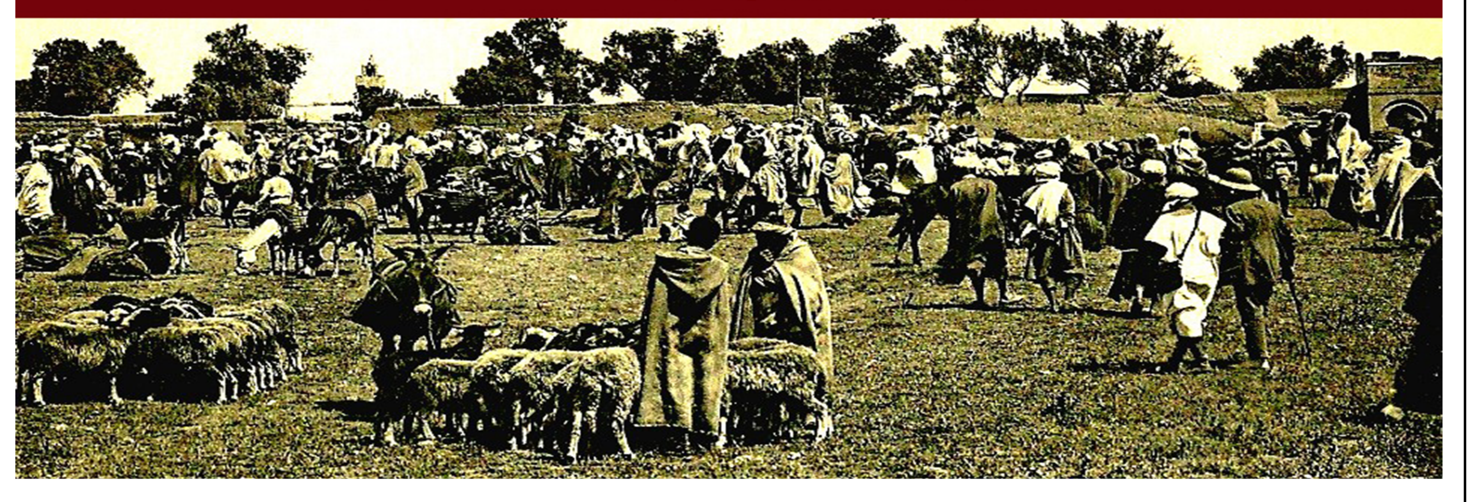
Ministère de la Culture (France), Médiathèque de l'architecture et du patrimoine, diffusion RMN



الصورة رقم4:الجنرال ليوطي يضع خطة عسكرية بمعية الجنرال برولار بمدينة الصويرة المصدر:

Ministère de la Culture (France), Médiathèque de l'architecture et du patrimoine, diffusion RMN

المغرب بعيون رحالة أجانب







بني زروال في ذاكرة المستكشفين الأوربيين

نورالدين أغوثان

باحث في التاريخ المعاصر

لم يحظ التاريخ القبلي بنوع من الاهتمام من طرف المدونات التاريخية الكلاسيكية من كتب الحوليات أو التراجم أو التاريخ العام والخاص، إلا عرضا عندما يتعلق الأمر بتمرد قبيلة على المخزن وخروج حركات سلطانية لتأديبها وما ينتج عن ذلك.

لكن المستكشفين الأوربيين حاولوا إماطة اللثام عن جوانب من الغموض الذي يعتري التاريخ القبلي رغم ما يشوب ذلك من نظرة فوقية وتحيز واضح. فإلى حدود النصف الثاني من القرن التاسع عشر، كان الأوربيون يجهلون كل شيء عن المغرب، فرغم قرب المسافة بين الطرفين كانت هناك مجموعة من الحواجز النفسية والثقافية والحضارية التي تحول دون التعرف الواحد على الآخر، وسرعان ما ستتحطم هذه الحواجز عبر مجموعة من الرحلات الاستكشافية التي سيقوم بها الأوربيون إلى المغرب في محاولة للتعرف على هذا البلد الغامض بغية تمهيد السبل للسيطرة عليه...

وهكذا تقاطر على المغرب مجموعة من الأوربيين خصوصا الفرنسيين الذين كانوا يقضون فترات طوال في البلد لاستكشاف عوالمه والاقتراب من مكوناته والتعرف على عقليات سكانه وغنى ثرواته وغيرها.

وكان من نتيجة ذلك أن دونت مجموعة من الرحلات والتقارير عن المناطق التي زاروها وفق منهج أكاديمي عصري، ساهم في انطلاق البحث السوسيولوجي والأنتربولوجي للمجتمع المغربي والذي كان يهدف من ورائه وضع استراتيجية معينة للتدخل العسكري في البلاد والسيطرة عليها عن طريق إخضاع القبائل والمدن.

وتبقى من أهم هذه الكتابات الإستكشافية التي أنجزها الباحثون الفرنسيون: كتاب المغرب المجهول Le Maroc Inconnu لأوجيست موليراس، وقد نشره في جزئين: الجزء الأول خاص باكتشاف الريف، في حين أن الجزء الثاني خاص باكتشاف جبالة.

في هذه الورقة نقدم لمحة عن قبيلة بني زروال خلال نهاية القرن 19 انطلاقا من الصورة التي قدمها لنا موليراس، وذلك من خلال رصد الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية لهذه القبيلة قبيل عهد الحماية.

وتجدر الإشارة إلى أن موليراس هو المستكشف الوحيد الذي قدم معلومات هامة عن هذه القبيلة قبل الاستعمار، في حين أن تقارير الرحالة الفرنسيين الذين زاروا شمال المغرب الذين أتوا من بعده تجاهلوا ذكر هذه القبيلة لكونهم تجنبوا الدخول إليها: أمثال الراهب شارل دوفوكو في كتابه " التعرف على المغرب "La Reconnaissance du Maroc سنة 1884، وسيكونزاك في كتابه " Voyages au Maroc " سنة 1899، في حين أن ميشو بلير في كتابه سلسلة مدن وقبائل المغرب " المنشور سنة 1912 الجزء 6 المخصص لقبائل الغرب وجبالة يتحاشى ذكر هذه القبيلة....

ويجب التذكير بأن موليراس تمكن من إنجاز هذا الكتاب وكتب أخرى حول المغرب دون أن تطأ قدمه أي شبر من أرض هذا البلد الغريب، وكانت وسيلته في ذلك الرحالة محمد بن الطيب المعروف بالدرويش: رجل من منطقة القبائل بالجزائر يحسن اللغة العربية الكلاسيكية ومتمكن من العربية الدارجة ومن الأمازيغية، كانت مهمته الطواف شمال المغرب متنكرا بهيئة رجل فقير متسول ابن السبيل مرتديا أسمال بالية تثير الشفقة وتبعد عنه شبهة التجسس والعمالة للأجنبي، على شكل طالب علم مستجديا السكان في المساجد والأضرحة والزوايا، لاحظ كل فئات المجتمع الذي نزل فيه وحاور شيوخه وشبابه وطلابه واستوعب العادات والأعراف، لقد نقل هذا الدرويش عبر

ذاكرته صورة منطقة شمال المغرب بكل تفاصيلها وجزئياتها على المستوى الجغرافي كما على المستويات الاقتصادية والعسكرية والديمغرافية والثقافية والتشريعية.

- **بني زروال: الموقع الجغرافي والاستكشاف الأولي:**

يبدأ المؤلف بتحديد الموقع الجغرافي للقبيلة، فلأول مرة يجد نفسه في أكبر وأوسع قبائل المغرب من حيث المساحة، ومن حيث الكثافة السكانية فبإمكانها تجريد حوالي 3 آلاف محارب من العزاب إضافة إلى احتياطي مهم طلبة المدارس القرآنية.

وهي عبارة عن مثلث شاسع توجد في رأسه الشمالي قبيلة غمارة وقاعدته في الجنوب الشرقي متيوة ومزيات، وفي الوسط قبائل الحياينة، الجاية، سلاس، بني ورياغل .... من الشمال إلى الجنوب تبلغ المسافة حوالي 70 كلم، ومن الشرق إلى الغرب تتسع المساحة أكثر، ما بين متيوة وبني أحمد السراق تبلغ المسافة 40 كلم وتقل عند التوجه إلى قبيلة غمارة عند حدود 12 كلم بينما نجد 10 كلم عند الجنوب.

على هذه الأراضي الشاسعة نجد مرتفعات جبلية خصوصا في شمال القبيلة مع نقاط تماس مع قبائل غمارة وكتامة وعند الشرق مع جرف البهموت الذي يفصل بين واد المزاز وواد بني ياذمي... أما باقي أراضي القبيلة فتتشكل من السهول تتخللها مئات التلال المشجرة في شريط متجه من الشمال إلى الجنوب وتخترق القبيلة خمسة أنهار(...) وهناك مئات القرى بعضها يشكل مدن صغيرة.

ومنذ خطواته الأولى في الأراضي الزروالية بعد خروجه من الجاية التقى الدرويش بأناس مسلحين يتجولون في الحقول على شكل مجموعات، كل مجموعة تتوفر على عبد أو أمة مع موسيقيين يضربون على آلة العود والرباب والكمان، يرتدون الجلباب الأسود، حليقي الرؤوس، وكل واحد منهم في يده ابن مقراض (طائر للصيد) يستعملونه في الصيد.

المعاملة القاسية التي قوبل بها عند دخوله الأراضي الزروالية جعلته يصدر أحكام قاسية على سكان المنطقة واتهمهم بالفجور والسلب والنهب، لكن هذا الانطباع الأولي عن سكان القبيلة سرعان ما تغير عندما بدأ يختلط بالمجتمع ويتكيف مع ظروفه حين أصبحوا يكنون له كل الاحترام ظانين بأنهم صادفوا وليا صالحا . بعد عبور محمد عدد من المداشر المتناثرة على ضفاف واد أمزاز وصل إلى عين باردة التي تتشكل من 5 قرى صغيرة متفرقة وكل واحدة تتوفر على 100 إلى 200 كانون

يشكلون فيما بينهم مدينة صغيرة: 1 – دشرة أونان بها أكبر مسجد بالمدينة التي تقام فيه صلاة الجمعة، 2- جماعة اركيبة، 3- دشرة الريف، 4-جماعة استر، 5-دشرة الزاوية.

عين باردة بمداشرها الخمسة تبدو شاسعة، تسند ظهرها إلى جرف البهموت وهو عبارة عن جرف صخري يمتد بشكل أفقي على امتداد 30 كلم، حيث حفر فيه القدماء عدد لا يستهان به من المغارات والكهوف، وهناك عين ذات ماء صافية ومنعشة تسقي المداشر المذكورة لا يسمح لولوجها إلا للنساء المتزوجات والفتيات الصغيرات العفيفات وولوجها ممنوع على الرجال وكل من أخل بهذا العرف سيعاقب.

بدأ الدرويش دراسته في جامعها الصغير ويقضي العرف الجبلي بأنه يحرم على الطالب الغريب أن يلج عتبة الكتاب إلا بعد أخذ إذن من فقيه المسجد لكي يستفيد من الرتبة (المنحة) فعندما يكون وفرة الطلبة الافاقيين في المدشر، أو عندما يرفض الأهالي دفع جزء من أسهمهم من الرتبة فما على الطالب الوافد إلا البحث عن مسجد آخر بمدشر آخر.

- **الحياة الاجتماعية لبني زروال: الأعراف والتقاليد:**

نقل لنا الدرويش جانبا من الأعراف والتقاليد التي كانت سائدة ببني زروال خلال القرن 19 نذكر منها:

1.إقامة الحدود على الزناة:

من أجل الحد من ظاهرة الزنا، كانت هناك أعراف صارمة تنفذ ضد كل من ثبت بأنه يتعاطى لهذه الظاهرة، فالمرأة الزانية عند بني زروال تمر بمراحل تعذيب قاسية حيث توضع بردعة حمار على ظهرها ويتم تطويفها عبر أرجاء المدشر ثم يتم اقتيادها إلى السوق الأسبوعي حيث ينهال عليها الملأ بالضرب بالعصا وبالسكين الذي يكون كل واحد يمتلكه، وعند الغروب يتم رميها برصاصة تعتبر بمثابة نهاية حالة تعذيبها.

أما الرجل الزاني فيطاف به أيضا في طرقات القرية ببردعة حمار على ظهره وبعد ذلك تفقأ عينه بمنجل يكون قد حمي في النار إلى درجة يتغير لونه إلى الاحمرار.

2. ظاهرة الاختطاف:

ظاهرة اختطاف الأطفال (ذكور وإناث) كانت منتشرة بالقبيلة حسب موليراس، فالأطفال الذين يبتعدون عن منازلهم لوحدهم يصبحون مهددين بالاختطاف من طرف قطاع طرق المداشر

المجاورة حيث يتم احتجازهم في مكان خاص يسمى بيت الصحفة... ولن يتم إخلاء سبيلهم إلا بعد أن تجري المفاوضات مع أهلهم وذويهم لإرغامهم على دفع الفدية، ولكن عندما تفشل المفاوضات يتم بيع الأطفال كعبيد في أسواق بعيدة حيث أن فرصة فرارهم تصبح مستحيلة.

ويورد موليراس حادث خطف أحد الأطفال حيث كان الدرويش شاهد عيان على ذلك عندما تم اختطاف صديقه (أحد أبناء أعيان بني يزو) من طرف مجهولين في طريقهم بين مدشري النقلة والركيبة، ونتيجة لهذه النازلة عقد أعيان النقلة مجلس الجماعة وهو مجلس يعقد للنظر في الشؤون الطارئة وكيفية التعامل معها، وقرر المجلس بعث لجنة إلى أعيان الركيبة... حيث استعرضت هذه اللجنة أهداف زيارتها فخيرت أعيان الركيبة إما إطلاق سراح الطفل أو أن الأمر سيؤول إلى الأسوء بين الطرفين.

3.ظاهرة السحر و الشعوذة:

عندما تلمس المرأة بأن جو عدم الثقة قد بدأ يتسرب في علاقتها مع زوجها. ومن أجل تطويع الزوج، فإن المرأة تهيئ له طبقا مقززا مكون من مخ الضبع، الدم، الشعر، زغب الإنسان، أطراف ثوب مأخوذة من أكفان الموتى... يمزج هذا كله ويقدم كطعام للزوج، وعندما يتناوله هذا الأخير يشعر بأنه مسحور وأنه يتعين عليه البحث عن دواء عند المشعوذين من أجل إعداد طلاسم له أو أن يعزم له من أجل فك هذا السحر... وينقل الدرويش تفاصيل أكثر عن هذه الظاهرة التي تنخر المجتمع الزروالي باعتباره كان يمارس هذه الطقوس.

- **الحياة الاقتصادية عند بني زروال:**

تعقد ببني زروال عدد من الأسواق تشكل عصب الحياة الاقتصادية لهذه المنطقة: سوق الاثنين بتمزكانة تقع غير بعيدة من واد أمزاز في الجهة الجنوبية من بني ياذمي، سوق أربعاء كتامة يعقد في شمال فخذة بني مكة على الحدود مع كتامة، هناك سوق الخميس بمدشر الخميس فخذة بومعان على ضفاف واد تزلفان الذي يسمى واد بومعان.

وأكبر هذه الأسواق سوق الأحد على ضفاف واد ودكة، وترتاده عدد من القبائل الزروالية إضافة إلى القبائل الجبلية المجاورة. به أثمنة منخفضة: الفول العدس، القمح، الصوف، الأسلحة، المواشي، طرائد الصيد حية أو مذبوحة، يتجمع في هذا الفضاء أكثر من 20 ألف شخص، ويقسمه واد ودكة إلى شطرين: أكواخ من القصب تحمي السلع، فضاءات الحيوانات، عدد من الجزارين



يذبحون الثيران لا شيء غير الثيران، أما الخرفان فهي قليلة، يبيعون اللحم بالقرعة بدون استعمال المكيال. وبعيدا عن هذه المكان هناك الغراير: أكياس طويلة من الزرع غير موزونة والزبيب هذا الأخير رخيص الثمن 25 سنتيم للمد، أما التين المجفف 3 سنتيم للمد، والفول 6 سنتيم للمد... وكل قروي له بستانه الخاص وهذا ما يفسر عدم وجود مكان للفواكه للبيع.

أما الزيت هناك عدة أنواع لاستخراجه:

- زيت يتم استخراجه بعد طحنه في الرحى.
- زيت يتم استخراجه كاملا نتيجة وطء نعال الأهالي.
- زيت يسمى بالزوبة بعد شيه في فرن ويسحق في القصع ويتم إضافة الماء في هذه الأواني ويستخرج باليد.
- زيت يستخرج من الزيتون الذي يطحن قبل نضوجه التام وله ذوق رفيع.
- زيت الشجرات البطمية: ويتم استخراجه بالطريقة التالية: يتم تصفيف قفف من الزيتون في حصارات (لوالب) ويتم عصره في أقصى حد ممكن ويصلح هذا الزيت للإنارة...

والمثير للإنتباه هو وجود هداوة بالسوق لهم عشرات الأكواخ الحجرية يتزاحمون في اختلاط لا يطاق فحالتهم تشير الاشمئزاز مع ماعزهم، الكثير منهم يعيشون على التسول يتجولون في القرى والأسواق، يجتمعون كالوحوش على الحيوانات المذبوحة طالبين العار وهي عادة يلجأ إليها الإنسان لطلب النجدة ضد خصمه المنتصر عليه.

الدرويش الذي خرج من حلابة إحدى مداشر بني مجرو خوفا من أن تنزع منه الجلابتان الجديدتان التي أعطوه الأهالي إياها، ذهب عند هداوة بسوق الأحد هؤلاء اقترحوا عليه الدخول في زمرتهم، حيث أعطوا له الكيف الذي يدخنونه بشكل مفرط، وقد وجد امحمد أنه لا سبيل من النجاة من أيدي هؤلاء إلا الهروب نحو الجاية...

ولكن أهم ما يميز سوق الأحد هو وجود مساحة مخصصة لبيع العبيد السود ويشكل الرجال نسبة مهمة من هؤلاء العبيد، في بعض الأحيان نرى أمتين أو ثلاث أمات أو عبدين بدون أن توجد أي علاقة نسب بينهم بصفة عامة، البراح يقوم بعرض مزايا سلعته المخصصة للبيع: هذا عبد قوي شجاع لم يسبق له أن هرب من حضن أسياده إنه مخلص جدا...

كل أصناف العبيد السود تباع في سوق الأحد بمختلف شرائحهم: الرجال، النساء والأطفال. والأثمان منخفضة حسب مزايا العبد أو الأمة وذلك بحصة المزاد العلني: فمثلا عبد شاب قوي نشيط مخلص يمكن أن يصل ثمنه إلى 500 فرنك وهو ثمن قياسي، ويمكن أن تجد عبدا مثلا قويا بثمن يتراوح ما بين 150 و 200 فرنك، أما الإماء الأكثر بحثا لأغراض منزلية يكون الثمن أقل غلاء مقارنة بالعبيد الذكور، أما الأطفال فينظر إلى قامتهم وقوتهم وكذا سنهم و ذكائهم، يتراوح أثمانهم ما بين 25 و 250 فرنك.

تجارة الرقيق قليلة الانتشار في جبالة، العائلات الغنية هي الوحيدة التي بإمكانها أن تملك عدد من العبيد، لأن هؤلاء قادرين على التكفل بهم لا من حيث المسكن و لا من حيث التغذية ويتلقون معاملة حسنة من طرف مالكيهم حيث يعتبرون أحد من الأسرة، وأن تحريرهم يعتبر مصدر القلق لديهم لأن ذلك قد يعرضهم للقتل من طرف الأجانب أو يلقون مالكين جدد أقل شفقة وطيبة قلب من مالكيهم القدامى، كما نجد عدد من العبيد يستظهرون القرآن عن ظهر قلب وهذا قد يزيد أثمانهم مقارنة مع نظرائهم الأميين.

روافد الرقيق: أسرى الحرب، الأطفال المخطوفون من البوادي، أو البؤساء الذين يعرضون أنفسهم للبيع بمحض إرادتهم و المتسولون بعد إفلاسهم، و لم تكن الطريق سهلة أمام الفتيات حيث يكن عرضة للانغماس في عالم الدعارة.

ويعتبر امتلاك العبيد بمثابة فخر للأسرة (دعوة للتفاخر بين الأسر)، إلا أن الزوجات كن يتحفظن من وجود عايل أو أمة بالمنزل لأن ذلك يجلب المشاكل بين الزوجين... وكان من الصعب على كل طالب أن يمنح الرتبة(منحة) إذا لم يكن له عايل.

مناجم الذهب والفضة:

ما بين مدشري القلايع و أفوزار لاحظ الدرويش معدن للفضة غير مستغل حفر في الماضي السحيق، و لم يستغل لعاملين:

- استغلال المعادن ممنوع في المغرب آنذاك.
- الأهالي كانوا يجهلون كل شيء عن علم المعادن.

عند مدشر الزلالين ذهب الدرويش لطلب الرتبة من الفقيه الذي وافق على إعطائها له فورا، هناك رغبة قوية اجتاحت الدرويش عند رؤيته معدن الفضة غير مستغل. رأى أنه يسبح في الذهب وأنه

سيرتقي إلى مرتبة الملوك، بعد بضعة أيام وبعد عدة محاولات غير ناجحة تمكن الدرويش وفي سرية تامة من استخراج عدد من سبائك الفضة من المنجم وذهب لبيعها بفاس البعيدة عن المنطقة بيوم مشي شاق ومتعب. وعندما وصل إلى فاس سيبيع هذه السبائك رفقة طالب آخر في الملاح للصائغين اليهود والذين أعطوا لهما ثمنا لا قيمة له: 500 فرنك، بعد ذلك رجع قافلا إلى بني زروال حيث بذر المبلغ المحصل عليه في شراء الملابس الجديدة الأمر الذي جعله موضع تساؤل من طرف الفضوليين على أن له نقود، فكر الدرويش في إعادة استخراج سبائك الفضة، لكن قطاع الطرق تنبهوا إليه، كما أن زملائه الطلبة طلبوا منه تعليمهم علم استخراج الفضة، مما عرضه للخطر الذي بدأ يحدق به من كل جانب، ولم يجد أية وسيلة للتخلص من هذه الورطة إلا الهروب نحو جبل ودكة الذي يحتوي على مناجم كثيرة من الذهب والفضة والنحاس ، فالرصاص والنحاس يستغل جهارا، أما المعادن الأخرى: الكبريت، حجر الشب، الكحل فيبحث عنه من طرف النساء واللائي يتكلفن ببيعه. كل محاولات البحث عن الذهب والفضة الخالصين باءت بالفشل، الطلبة أيضا يحملون بعض الأحيان هذه المعادن لبيعها للأوربيين واليهود في الساحل....

استقر الدرويش بعد ذلك بمدشر المشاع وكان من الصعب أن يتجاهل الثروات المعدنية الغنية التي يتوفر عليها هذا المدشر. فرعاة وفلاحو المنطقة كانوا يلحون عليه على اكتشاف هذه الثروات، فعند الطريق التي تؤدي إلى المشاع توجد هناك ربوة كانت النساء يقصدها لاستخراج الصلصال الذي بواسطته تصنع الأواني الخزفية التي كانت مستعملة كثيرة في المترل وأحيانا كانت هذه الأواني تزين بلؤلؤة من الذهب المستخرج من هذه الربوة وكانت الأواني المترلية محط تفاخر بين العائلات. فقد فشل الدرويش في استخراج الذهب بالطرق البدائية التي وضعوها رهن إشارته، وكان هذا الفشل مقدمة لتنازل شعبيته داخل المشاع، فغادره في استكمال مغامرته داخل القبيلة...

- **الجهاد لدى بني زروال:**

كان السكان يحترمون القواد الذين يعينهم السلطان على بلدهم، لكن هذا التعيين لن يتم إلا بموافقة أعيان القبيلة، وأشهرهم في تلك اللحظة(1897) سيدي علال الحمومي مقدم زاوية الحمومي في دشرة المقراوي الذي كان يستشار عند كل تعيين سواء كان قائدا أو قاضيا، فبإمكان

القبيلة أن تجند حوالي 40 ألف محارب، لقد كانت أضرحة الأولياء المدفونين بتراب القبيلة مكانا للتحريض السياسي والديني: ومن بين هذه الأضرحة هناك واليان مدفونان بمدشر تازغذرة: سيدي الحمومي، وسيدي الشطيبي، في حين أن مدشر شهريرة يضم رفات الولي سيدي الحاج امحمد، وشمالا بودكة هناك سيدي علي الزغاري وسيدي الحسن الزغاري.

كما تعرف بني زروال بقبيلة الخلفاء (أبناء الخلفاء الراشدين) إلى جانب هناك انتشار عدد من الزوايا: الدرقاوية، الناصرية، التيجانية، الوزانية (التهامية، الطيبية).

الشرفاء والعلماء والأعيان يساهمون في تأطير العامة عندما تكون هناك فرصة لإعلان الجهاد في سبيل الدوذ عن بيضة الإسلام ضد الأعداء.

في حملات الجهاد: الطلبة يلبسون الجلباب البيضاء، في حين أن الجنود يتميزون عن مرؤوسيهم بملابسهم ذات اللون المغلوق، حليقي الرؤوس يتأبطون بنادق التي كانت تصنع بتاغزوت...كل فرقة القبيلة لها أعلامها و فرقها الموسيقية وأيضا بيت مالها....

- **الفلاحة والغابات:**

يتميز مناخ بني زروال بكونه حار في الصيف والخريف وممطر في الشتاء والربيع. كل الأراضي تحرث بالقمح والحنطة والشعير، أشار موليراس إلى أن الأدوات الفلاحية لم يطرأ عليها أي تغيير منذ العهد الروماني: نفس المحراث، نفس المعول، نفس المعزق اليدوي.... منذ عهد بوخوس يتم تخطيط الأرض بالمحراث على عمق 20 سم، تنعدم المناوبة الزراعية، ففي كل سنة ومنذ قرون ظلت هذه الأرض تنتج فقط القمح والشعير.

تمتاز بني زروال ببساتينها الخصبة التي تنتج ما تحتاجه القبيلة من خضر وفواكه، وساعد في ذلك وجود شبكة هيدرولوجية من عيون وسواقي التي تصب في وديان القبيلة الخمسة: واد بومعان، واد أوضور، واد ودكة، واد بني ياذمي، واد أمزاز.

ويزداد صبيب المياه وعمقها خاصة في فصل الشتاء ويصل عمقها ما بين 50 و 150 سم من العمق... في حين أن سرير الأودية يتسع إلى عرض ما بين 5 و 50 م.

في الشمال تتشكل منحدرات جبل ودكة والتي تتسم بغاباته الكثيفة حيث يوجد وحيش وفير من الخنازير بالأساس، وساعد هذه الوفرة على اعتبار أن المسلمين لا يستهلكونه... قمة جبل ودكة تظل مغطاة بالثلج طيلة شهري يناير وفبراير... كما أن هناك ثروة خشبية مهمة خاصة البلوط

الفليني....لاحظ الدرويش ظاهرة اجتثاث هذا البلوط، يستعمله السكان في التدفئة والطبخ، فالفلين أصبح يحتضر وفي طريقه إلى الاندثار.

عموما السكان يعيشون في رغد العيش نظرا لوفرة قطيع البقر والماعز والأراضي الخصبة.

الهجوم على التراهة (قافلة لجمع التبرعات للطلبة).

صادف الدرويش عند زيارته لتزوكارت الواقع بالسفح الجنوبي لجبل ودكة مئات الطلبة الذين كانوا يتهيئون للقيام بتراهة عند قبيلة متيوة الجبل من أجل جمع التبرعات العينية والنقدية(نقود، ملابس، معز، غنم، حبوب، خضر...) التي يتكلف السكان لإعطائها إياهم مصحوبين بفرقة فلكلورية ورايات...

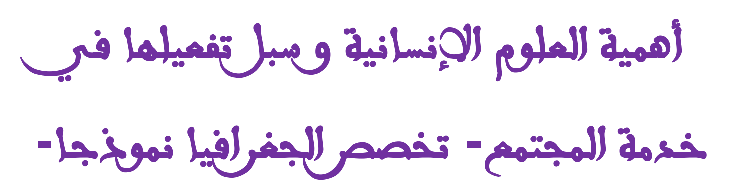
خرجت الترهة من تازوكارت متجهة شرق جبل ودكة عبرت من إغيل ملول الفوقاني ثم تاونات داخل أراضي بني زروال، بعد ذلك اتجهت القافلة خارج القبيلة. فالاحتياطات واجبة حيث يتعين على القافلة أن تستعين بخدمات الزطاطة (مفرد زطاط أشخاص محليون يقومون بحماية المسافرين العابرين للقبيلة مقابل أجر يعطى لهم من هؤلاء).من مدشر لآخر حتى وصلت القافلة إلى بوغدهول بقبيلة متيوة بعد استراحة ببوغدهول أرادت القافلة الزروالية أن تذهب إلى القرية بدون زطاطة...

في منتصف الطريق وفي غابة الزيتون هاجمت مجموعة مسلحة مكونة من 30 شخص القافلة بغية تجريد أفرادها ما يحملونه من نقود وقد قتلوا واحد منهم... وقد فقد الطلبة في هذه المشاجرة النقود والأمتعة سوى قمصان ظلوا يلبسونها، فرجعوا إلى بوغدهول طالبين من سكانها الانتقام منهم لكن هؤلاء غير قادرين على مجابتهم فأرشدوهم إلى مدشر باب المهراز الذي تكلف بالذهاب إلى القرية لاسترجاع الأمتعة المغتصبة. وقد فقد الدرويش في هذه المشاجرة كل ثروته أي جلبابه وقد أعطى زميل له جلباب أحسن من الجلباب القديمة.

وهكذا يلاحظ اهتمام المستكشفين الأوربيين بتحديد الخصائص الطبيعية والمكونات السكانية لقبيلة بني زروال، وذلك انسجاما مع أهداف الامبريالية الأوربية التي تهدف إلى تهيئ الأرضية المناسبة للاستغلال الاستعماري للمنطقة، فمعرفة الأماكن الغنية بالثروات الطبيعية تعطينا إشارة إلى إمكانية استغلالها مستقبلا، والاهتمام بالعنصر البشري وإبراز مميزاته الثقافية من منظور استعماري يبرر الرسالة الحضارية للتدخل الأوربي داخل المنطقة.

قضايا من العلوم الانسانية







فيصل فاتح

باحث في الجغرافيا

الملخص

للعلوم الإنسانية أهمية بالغة في تكوين و بناء الأفراد فكريا و معرفيا و ثقافيا ،كما تسهم في بلورة التوجهات الفكرية للمجتمعات و فهم خصائصها و قضاياها و المشاكل التي تعاني منها واقتراح حلولا مناسبة لها ،فكثير من القضايا التنموية و الاجتماعية لا يمكن فهمها و تشخيصها إلا من خلال البحوث و الدراسات الإنسانية و الاجتماعية.

ولعل أبرز دور يمكن للعلوم الإنسانية أن تلعبه هو إعداد مواطن ذو توجه إيجابي فاعل و مشارك في كل مناحي الحياة الاجتماعية و السياسية و الاقتصادية بشكل يجعله مساهما في تقدير و وضع وفهم التوجهات المستقبلية لمجتمعه المحلي في تناغم مع التحولات التي يشهدها محيطه سواء على

المستوى الوطني و العالمي.غير أن هذه العلوم تتواجه تحديات منها غياب الاقتناع في اختيار تخصصات العلوم الإنسانية لدى الطلبة أو الناشئة بصفة عامة ،ندرة فرص العمل أمام دارسي هذه التخصصات ،التوجه الرسمي للحكومة الماضي نحو تكريس العلوم المحضة على حساب العلوم الإنسانية...

جاءت هذه الدراسة لتسلط الضوء على أهمية العلوم الإنسانية في المجتمعات المعصرة و إبراز حجم التحديات التي تواجهها مع تقديم مجموعة من التوصيات لسبل تفعيل دورها في خدمة المجتمع وذلك من خلال المحور التالية:

- العلوم الإنسانية : أهميتها و تحدياتها
- آليات تفعيل دور العلوم الإنسانية في خدمة المجتمع
- تطبيقات على تخصص الجغرافيا

مقدمة

للعلوم الاجتماعية والإنسانية دور مهم في فهم الأفراد و المجتمعات، حيث تسهم في رصد وفهم وتحليل الظواهر الإنسانية والتغيرات والتحولات والمشكلات والقضايا المجتمعية واقتراح الحلول المناسبة والسيطرة عليها، كما تسهم هذه العلوم في الارتقاء بالمستوى الحضاري والفكري و القيمي للإنسان والمجتمع، وتحفيز وتدعم التغيرات والتحولات الإيجابية مبكرا حتى لا تحدث في اتجاه مخالف لصياغة بنية المجتمع.

يرى علماء الاجتماع أن بوابة الخطورة في أي مجتمع هي بنيته، فإذا حدث خلل في بنية المجتمع، فإن هذا يؤدي لإضعافه وانهياره. ولهذا تفيد دراسة العلوم الاجتماعية والإنسانية في مراجعة بنية المجتمعات مبكرا لفهم مواطن الضعف والخلل التي تهدد بنية وتماسك المجتمع والتوصل لأفضل الأساليب لتقويتها، لتحقيق سلامة الفرد والمجتمع ومنع من له مصالح من الأفراد والمجتمعات الأخرى من التدخل لاختراق بنية المجتمع[271].

271 -Pierre BOURDIEU : questions de sociologie, p 19 CERES Edition 1984, p124

من هنا جاءت الدراسة لتسلط الضوء على أهمية العلوم الإنسانية و التحديات التي تواجهها هذه العلوم مع تقديم مجموعة من التوصيات حول كيفية تفعيل آليات خدمتها للمجتمعات حتى تستطيع هذه الأخيرة مواجهة وحل المشاكل التي تعترضها وذلك من خلال المحاور التالية :

- المحور الأول : العلوم الإنسانية : أهميتها و تحدياتها
- المحور الثاني : آليات تفعيل دور العلوم الإنسانية في خدمة المجتمع
- المحور الثالث: تطبيقات على تخصص الجغرافيا

المحور الأول : أهمية العلوم الإنسانية و الاجتماعية

إن تفاقم الاحتجاجات والتظاهرات والثورات والتحولات والتغيرات السياسية والاجتماعية العربية الحالية، ما هو إلا دليل على عدم تفعيل والاهتمام الجاد بالعلوم الاجتماعية والإنسانية ودعمها ماديا ومعنويا بالشكل الكافي، إذ إن رصد والتعرف مبكرا على إرهاصات بعض الظواهر والمشكلات والتحولات السلبية في بنية المجتمع، وكذلك إبراز اتجاهات الشباب السياسية والاجتماعية والثقافية في مجتمعاتنا، من خلال دراسات وبحوث علمية منهجية جادة تفيد في السيطرة مبكرا على هذه التغيرات الاجتماعية والسياسية الحادثة.

فتهميش العلوم الاجتماعية والإنسانية والتقليل من قيمتها وعدم إدراك دورها المهم في إعداد وبناء المواطن الفاعل وتعزيز سلوكياته واتجاهاته الإيجابية السوية وكذلك في صياغة فكر واتجاهات وقيم المجتمع، وفي دراسة وفهم التحولات والتغيرات والمشكلات التي يعاني منها الفرد والمجتمع والوطن والعالم من حوله، قد يكون ذلك أحد الأسباب المهمة التي أدت إلى حدوث المظاهرات والاحتجاجات والثورات في منطقتنا العربية[272].

ولقد أدركت الدول المتقدمة أهمية هذه العلوم فأسست ودعمت العديد من مؤسسات ومراكز البحوث والدراسات الاجتماعية والإنسانية، للقيام بدراسات جادة ودقيقة، ليس فقط لدراسة أفرادها ومجتمعاتها، بل أيضا لدراسة والتعرف على مواطني ومجتمعات الدول الأخرى.

272. جحلاط فيصل، إشكالية العلوم الإنسانية ، مقال فلسفي مفصل لجميع شعب البكالوريا منشور بمنتديات بوابة الونشريس بتاريخ : 05-06-2009 .

لقد أصبحت لدينا حاجة ماسة للاهتمام بالعلوم الاجتماعية والإنسانية ودعمها بالقدر الذي يتناسب مع قيمتها وأهميتها المتزايدة لفهم وتحليل مجتمعاتنا العربية المعاصرة، وكذلك الإسراع في الدعم والتمويل الكافي لمراكز ومؤسسات وكليات وأقسام العلوم الاجتماعية والإنسانية، وتأسيس مراكز بحوث أخرى حديثة تركز على موضوعات ومجالات بعينها أفرزتها الأحداث الجارية مثل ثقافة التظاهرات وسيكولوجية المتظاهرين والمواطنة والانتماء والهوية والمسؤولية الاجتماعية والمشاركة والاتجاهات السياسية وتحليل وحل الصراعات وبنية وتماسك المجتمع والتخطيط الاجتماعي ومنظومة القيم والاتجاهات والرأي العام والمسؤولية والفضاء الإلكتروني والإعلام الجديد، لرصد وفهم وتفسير الظواهر والسلوكيات والمشكلات والقضايا الاجتماعية السلبية في الفرد والمجتمع مبكرا، وتقديم الحلول العلمية والعملية والبرامج والإجراءات الوقائية المناسبة لبناء الإنسان وتطوير وتحديث المجتمع وبما يراعي خصوصياته، وتشجيع ودعم الطلاب والباحثين للدراسة والتخصص في العلوم الاجتماعية والإنسانية عن رغبة لإعداد مزيد من العلماء والمبدعين فيها، مع إفساح المجال أمام العلماء والباحثين في هذه العلوم ودعمهم ماديا ومعنويا للمساهمة في إجراء بحوث علمية دقيقة وجادة تسهم في وضع تصورات شاملة تفيد في فهم سلوكيات واتجاهات الأفراد وبنية المجتمعات واستشراف حاضرها ومستقبلها وبخاصة مع التغيرات والتحولات المتسارعة التي تشهدها مجتمعاتنا والعالم.

أولا- رؤية الجامعات المغربية لدور العلوم الإنسانية

إن وضع العلوم الإنسانية في الجامعات المغربية لا ينفصل عن رؤية هذه الجامعات لدور العلوم الإنسانية ومكانتها من حيث خدمة المجتمع. غير أن مفهوم خدمة هذا هو ما يجعل هذه الرؤية في حد ذاتها تمثل أزمة في وضع هذه العلوم وإمكان تطورها.

إن مكانة العلوم الإنسانية في الجامعات المغربية متدنية مقارنة مع العلوم الطبيعية والرياضية. ومن هنا كانت الكليات المختصة بهذه العلوم الأخيرة - مثل الطب والعلوم والهندسة وتقنية المعلومات - تحظى دائما بالمكانة المرموقة، وتولي لها الجامعة الاهتمام الأكبر، وتقيد شروط وضوابط الالتحاق بها. هذا الوضع لا يميز الجامعات المغربية وحدها، بل نجده في غيرها من الجامعات العربية والغربية أيضا. وهذا التحفظ يعد صحيحا في مجمله إذا نظرنا للأمر في ظاهره دون التفات لأسبابه، لكن لو حللنا الأسباب لوجدنا اختلافا واضحا في الحالتين ؛ ففي الجامعات المغربية ف"المكانة

الأولى" التي تحظى بها هذه الكليات ترجع إلى نظرة الجامعة الذاتية لمفهوم العلم، ودوره في خدمة المجتمع : فالعلم الجدير باسم العلم هو العلم الذي ي نتفع به، مع فهم الانتفاع هنا بالمعنى المادي البحت، أي بالمعنى الذي يكون به العلم ملبيا لحاجات عملية مباشرة للمجتمع، ويكفل القدر من المعرفة الذي يكفي لتخريج موظفين (من أطباء ومهندسين وتقنيين) يطبقون ما تعلموه في مجالاتهم المهنية.

وعلى هذا، فإن العلوم الإنسانية تأتي في مرتبة أدنى في سلم العلوم، وتتراتب درجاتها الدنيا في هذا السلم تبعا لمدى إتباعها للمعيار أو النموذج النفعي السالف في تصور العلم، أي بحسب قدرتها على تلبية حاجات المجتمع المادية والعملية المباشرة. وكان من الطبيعي أن تنعكس تلك النظرة على رؤية العلوم الإنسانية لنفسها، أو بالأحرى على رؤية كليات العلوم الإنسانية بأقسامها العلمية لدورها الذي ينبغي أن تضطلع به؛ فراح المشتغلون بهذه العلوم في الجامعات المغربية يركزون على الجوانب التطبيقية على حساب الأسس النظرية، وفهموا التطبيقات على أنها دراسات ميدانية يتم إجراؤها في إطار المجتمع المحلي الذي توجد به الجامعة، وبذلك تحولت دروس هذه العلوم إلى دروس محلية إن جاز التعبير : فما دامت هناك دراسات تطبيقية على المجتمع المحلي تعتمد على استبيانات وبيانات إحصائية، فهناك إذن اقتراب من مفهوم العلم، وارتقاء في سلم المكانة العلمية.

ومما يؤكد أن هذه النظرة للعلوم الإنسانية أنها ليست مقصورة على الجامعات وحدها، بل إنها تمتد إلى المراكز والمؤسسات الثقافية التي عادة ما ترصد جوائز مالية قيمة للبحوث التي يجريها الشباب في إطار موضوع يتعلق بمجتمعهم المحلي.

هذه النظرة للعلوم الإنسانية تنبع من قصور في مفهوم العلم ذاته، وفي رسالته وأهدافه : فحصر قيمة العلم في إنجازاته العملية والتطبيقية، وتقييم العلوم بالقياس إلى نموذج يضع العلم العملي التطبيقي في رتبة أعلى والعلم النظري في رتبة أدنى، هو نظرة خاطئة تماما للعلم : لأنه لا انفصال في العلم بين ما هو نظري مجرد وما هو عملي تطبيقي، سواء كنا نعني بالعلم هنا العلوم الطبيعية والرياضية، أو العلوم الإنسانية، بل إننا نريد أن نذهب إلى ما هو أبعد من ذلك لنؤكد على أن العمل والتطبيق في العلم لاحق على النظر والتجريد، وهذا يصدق حتى على العلوم الدقيقة ؛ ومن ثم فإن التطور في مجال التطبيقات العلمية والتكنولوجيا يكون مستحيلا دون تطور يحدث أولا في

مجال الكشف العلمي الذي يتحقق على مستوى النظرية العلمية. ولذلك فإن تمجيد التكنولوجيا يغفل تماما حقائق المعرفة البشرية؛ "فأول المعرفة علم دقيق ومجرد ونظري، ويلي ذلك العلم التطبيقي، أي ترتيب نتائج عملية على أساس النظرية العلمية، وفي المرتبة الثالثة تكون مساعي تحويل الحقيقة العلمية إلى أسلوب إنتاج وتقنية، وتلك هي التكنولوجيا بالمعنى الدقيق.

وإذا كان هذا حال العلوم الدقيقة، فما بالنا بالعلوم الإنسانية ! وبأي حق يمكن تقييم مكانة هذه العلوم على أساس من توجهاتها التطبيقية في خدمة المجتمع ؟! إن النظر إلى رسالة العلم باعتبارها تهدف إلى خدمة المجتمع هي نظرة صحيحة ما في ذلك شك. ولكن السؤال الأهم هنا هو: ما معنى خدمة المجتمع؟ وعلى أي نحو تكون خدمة المجتمع؟ إن دور العلوم الطبيعية والرياضية في خدمة المجتمع دور معروف؛ لأن اكتشافات هذه العلوم يمكن أن تتحول إلى قوة تكنولوجية تشبع وتخدم حاجات المجتمع المادية، وهي اكتشافات تحدث على المستوى النظري أولا كما رأينا. أما في مجال العلوم الإنسانية، فلا يمكن تصور مفهوم خدمة المجتمع بهذا المعنى: فدور العلوم الإنسانية لا يكمن في إشباع حاجات مادية للمجتمع بتخريج موظفين ومهنيين يسدون نقصا في مجال سوق العمل والإدارة على سبيل المثال، بل يكمن دورها في المقام الأول في بناء الثقافة والفكر والمعرفة، أي في التنمية الثقافية للمجتمع التي لا تقل في أهميتها عن مسارات التنمية الأخرى (بصرف النظر عن الوظيفة التي يمكن أن يشغلها الدارس لهذه العلوم). والتجربة تشهد بأنه لا يوجد تطور في أي مجتمع لم يواكبه تطور في البناء الروحي للإنسان، أعني في أسلوب التفكير والفهم والوعي، بما في ذلك الوعي الفني والجمالي نفسه. بل إن نهضة العلم الحديث في أوروبا قد نتجت عن نهضة فكرية قامت على بعث العلوم والآداب الإنسانية التي غيبها العصر الوسيط، وعلى نزعة إنسانية وفلسفات عقلانية وتنويرية.

وعلى هذا، فإن النظرة السائدة في الجامعات المغربية التي تربط بين دور العلوم الإنسانية وإشباع متطلبات سوق العمل، هي نظرة تؤدي إلى تراجع دور العلوم الإنسانية، وعدم وجود أية إمكانية لتطورها : فعلم الجغرافيا - على سبيل المثال - يتحول في ظل هذه النظرة إلى نوع من الخدمة الاجتماعية والدراسة الميدانية لواقع محلي محدود، ويصبح موجها لتخريج مختصين في الجغرافيا، وعلم النفس سيتحول دوره إلى تخريج اختصاصيين نفسيين للعمل في المدارس وبعض مراكز

التأهيل التربوي، ولن تعود هناك حاجة لدراسة الفلسفة و الجغرافيا والتاريخ والأدب والفن والنقد، لأنه ليست هناك وظائف شاغرة في المجتمع بمسميات فيلسوف،وجغرافي ومؤرخ، وأديب، وفنان... إلخ. ومن ثم، فمتى تشبع سوق العمل من خريجي هذه العلوم، لم يعد لها مبرر وجودها ووجب إغلاق الأقسام العلمية المعنية بدراستها [273].

ثالثا - أزمة المنهج في الدراسات الإنسانية بالجامعات المغربية

يمثل المنهج السائد في إجراء البحوث والدراسات الإنسانية بجامعات المغرب شكلا من أشكال أزمة العلوم الإنسانية فيها. وسوف نلاحظ أن أسباب الأزمة هنا لا تنفصل عن أسبابها في ظاهرة استبعاد أو تهميش البحوث الإنسانية و الاجتماعية.

الكلام عن أزمة المنهج في العلوم الإنسانية ليس شائعا في الكتابات العربية، ولكن له تاريخ طويل في الفكر الأوروبي خلال القرن الفائت. ولعل كتابات الفيلسوف العظيم إدموند هوسرل E. Husserl ، وخاصة دراسته عن «أزمة العلوم الأوروبية» المنشورة سنة 1931، تعد أهم الكتابات التي تابعتها كثير من الكتابات التي تأثرت به إلى يومنا هذا. فقد كانت كتابات هوسرل في هذا الصدد نوعا من النقد الذاتي لمفهوم ومنهج العلم السائد في الحضارة الغربية، وقد رأى أن أزمة العلوم الأوروبية هي أزمة الإنسان الأوروبي، وهذا يبدو بوضوح في حالة العلوم الإنسانية بوجه خاص : فإذا كانت العلوم الطبيعية قد استبعدت الإنسان من الطبيعة، فإن العلوم الإنسانية - حينما أرادت أن تحتذي منهج العلوم الطبيعية - قد حولت الإنسان نفسه إلى طبيعة، أي إلى واقعة من الوقائع التي يمكن دراستها تجريبيا.

فكثير من الظواهر الطبيعية لا يمكن دراستها والتعامل معها بشكل موضوعي خالص كما لو كانت وقائع أو موضوعات مادية محضة لا شأن للعامل الإنساني بها : ففي مجال الطب - على سبيل المثال - بدأ يتعاظم شأن الاتجاه المسمى ب«أنسنة الطب» Humanisation de Médicine، أي وضع العوامل الإنسانية في الاعتبار عند التعامل مع تشخيص وعلاج الأمراض وفي مفهوم الرعاية الصحية. وفي مجال هندسة العمران والتخطيط لم يعد من الممكن استبعاد البعد الإنساني المتعلق

273. عبد اللطيف فؤاد إبراهيم، سعد مرسي أحمد ، المواد الاجتماعية وتدريسها الناجح ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، الطبعة الأولى 1979، ص 15.

بجماليات وأخلاقيات البيئة. وكل هذا قد أوجد مجالا للدراسات البينية المشتركة بين بعض العلوم الطبيعية والرياضية من جهة والعلوم الإنسانية من جهة أخرى.

وللأسف، فإن الجامعات المغربية لا زالت تتشبث بنموذج المنهج التقليدي في العلوم الإنسانية ؛ وقد كان من شأن هذا أن أوجد جيلا من الباحثين والدارسين يعولون على القياس والإحصاء، ويفهمون البحث الميداني على أنه تصميم لاستمارات أو استبيانات، وتفريغ لنتائج هذه الاستبيانات من خلال برامج الحاسوب، في حين أن هذه النتائج يمكن أن تأتي متضاربة في كل مرة يعاد فيها البحث الميداني، فضلا عن أن الاستمارات التي يصممونها غالبا ما تنطوي على فروض هشة ضعيفة ومتناقضة. ومرد ذلك الافتقار إلى فهم معنى الموضوع أو الظاهرة التي يبحثونها.

ثالثا : صعوبات البحث العلمي في العلوم الإنسانية و الاجتماعية

تتلخص صعوبات الباحث العلمي في جملة من العوائق والمشاكل تتلخص أهمها في:

- تعقيدات الظواهر الاجتماعية والإنسانية وتغيرها:

من المسلم به أن الظاهرة الإنسانية والاجتماعية غير ثابتة ومستقرة ما دامت تتصل بالإنسان، كون أن هذا الأخير أحواله تتغير من حالة لأخرى ومن زمان لآخر وكذلك المكان الذي يعيش فيه، لذلك من المنطقي أن تتعقد هذه الظواهر ما دامت غير مستقرة على حال، كما أن تشابهها سوف يؤدي إلى صعوبة تحديد الموقف من هذه الظواهر، والحكم عليها، مما يضفي في الكثير من الأحيان إلى نتائج جد سلبية لا يمكن الاعتماد عليها في تصنيف الظواهر وضبطها، لاسيما أنها تتأثر بالسلوك الإنساني المعقد[274].

- فقدان التجانس في الظواهر الاجتماعية:

بالرغم من أننا نستطيع أن نصدر بعض التعميمات عن الحياة الاجتماعية والسلوك الإنساني، فإن الظواهر لها شخصيتها المنفردة وغير المتكررة، ولا نستطيع أن نسرف في تجريد العوامل المشتركة في عدد من الأحداث الاجتماعية، لكي نصوغ تعميما أو قانونا عاما، ولكن هذا لا يعني الاختلاف في كل المجالات.

- الموضوعية و الميولات الشخصية:

274 : جابر الحديثي، أزمة العلوم الإنسانية ، الفكر العربي ، مجلة الإنماء العربي للعلوم الإنسانية ، معهد الإنماء العربي ، بيروت ، ع: 37/38 ، س 6، 1985 ، ص16.

يصعب دراسة الظواهر الاجتماعية والإنسانية دراسة موضوعية بعيدا عن الأهواء والعواطف الشخصية، فالظواهر الاجتماعية أكثر حساسية من الطبيعة، لأنها تهتم بالإنسان كعضو متفاعل في جماعة، وبما أن الإنسان مخلوق غرضي يعمل على الوصول إلى أهداف معينة، ويملك المقدرة على الاختيار، مما يساعده على أن يعدل من سلوكه، فإن مادة العلوم الاجتماعية والإنسانية تتأثر كثيرا بإرادة الإنسان وقراراته.

- **عدم دقة المصطلحات والمفاهيم في العلوم الاجتماعية:**

حيث نلاحظ الفرق في استخدام المفاهيم في العلوم الاجتماعية والمفاهيم في العلوم الطبيعية، حيث تتميز المفاهيم الاجتماعية بالمرونة والغموض، وعدم الوضوح وتعدد استعمالها، في حين أن المفاهيم في العلوم الطبيعية تكون أكثر دقة وثبات.

- **صعوبة الوصول إلى تعميم النتائج:**

إن العلوم الإنسانية والاجتماعية على اختلاف أنواعها، وتعدد فروعها مثلها مثل العلوم الطبيعية، فليست الطريقة العلمية أو المنهج العلمي في البحث وقفا على العلوم الطبيعية والتطبيقية، كما يظن البعض، وإنما يمكن تطبيقها في العلوم الاجتماعية والإنسانية المختلفة، ولكن الاختلاف يكمن في دقة النتائج، خاصة وأنه يعود إلى طبيعة المشكلات التي تواجه الباحث في العلوم الإنسانية والاجتماعية.

- **صعوبة إخضاع الظواهر الإنسانية والاجتماعية للمخبر:**

إذا كانت العلوم الطبيعية والتجريبية تشتغل بدراسة الظواهر الطبيعية متخذة إياها كمواضيع أو أشياء يمكن إخضاعها لكل إجراءات الملاحظة والقياس والتجريب، فإن قيام العلوم الإنسانية والاجتماعية كمجالات تتناول البحث والدراسة في كل الظواهر الإنسانية والاجتماعية جعلها تعتبر الإنسان موضوعا أو شيئا يقبل تطبيق نفس تلك الإجراءات التي ثبتت أهميتها المنهجية على مستوى العلوم الطبيعية، ومن هنا يطرح الإشكال التالي: هل يمكن بالفعل أن يدرس الإنسان كما تدرس الأشياء الطبيعية ؟[275]

275: عبد اللطيف فؤاد إبراهيم، سعد مرسي أحمد ، المواد الاجتماعية وتدريسها الناجح ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، الطبعة الأولى 1979، ص 15.

- المحور الثاني : آليات تفعيل دور العلوم الإنسانية في خدمة المجتمع

إذا كان دور العلوم التجريبية و العلوم الرياضية معروف لأنها تتحول إلى قوة تكنولوجية خدمة لحاجيات المجتمع المادية انطلاقا من المستوى النظري و انتهاء بالمستوى التطبيقي.عكس العلوم الإنسانية و الاجتماعية التي تقوم بخدمة المجتمع انطلاقا من البناء الثقافي و الفكري و المعرفي ، أي أن التنمية الثقافية للمجتمع لا تقل أهمية عن اتجاهات التنمية الأخرى.

فتطور المجتمعات دائما يواكبه تطور البناء الروحي للإنسان المرتبط بتأطير التفكير و الفهم و الوعي، فالمستوى الفكري العام للمجتمع و هو معيار التقدم العلمي و الحضاري لأي أمة ، فكلما ارتفع المستوى الفكري كلما ازدادت درجة الحضارة و التقدم العلمي و هذا يعتمد على النظام التعليمي الجيد القادر على إعداد و تأطير المجتمع عبر تكوينه للطلبة و الذين هم باحثين المستقبل و الذين سوف يمثلون المخرجات النهائية كأساتذة و باحثين فاعلين في مجتمعهم و قادرين على سداد الاحتياجات الثقافية و الفكرية خدمة لمجتمعاتهم.و إلى جانب ذلك تسهم العلوم الاجتماعية و الإنسانية في تنمية الجانب المعنوي و الأخلاقي في المجتمع .

فالعلوم الإنسانية و لاجتماعية تقدمت خطوة مهمة نحو إجادة التعامل مع المشاكل الاجتماعية و النفسية و الاقتصادية و السياسية التي تواجه المجتمع حيث أصبح لها دور في الرقي الاجتماعي عبر تحسين أوضاع المجالات الهشة عبر إضافة اللمسة الإنسانية و الاجتماعية للمشاريع التنموية بعد فشل المقاربات التقنية و الفنية المحضة.

و يمكن إجمال دور العلوم الإنسانية في خدمة المجتمع فيما يلي:

-إعداد العنصر البشري القادر على مواجهة التغييرات الاجتماعية و الاقتصادية و السياسية و العلمية و التكنولوجية.

-القيام بالأبحاث و عقد المؤتمرات التي تسهم في ترقية المجتمع و حل مشاكله هذا بالاضافة إلى الاستشارات العلمية التي تقدمها الجامعة لمؤسسات المجتمع

-نشر ثقافة العمل التطوعي

ولتفعيل دور العلوم الانسانية و الاجتماعية في خدمة المجتمع و التقليص من المعوقات التي تحول دون قيام هذه العلوم بدورها بما يتلائم مع مقتضيات العصر و كذا ما تشهده المجتمعات من تحولات اجتماعية و سياسية لابد من :

على المستوى المهني

-إعداد العلماء و الباحثين المتميزين و دعمهم لإجراء الدراسات العلمية التي تسعى إلى فهم المجتمعات و استشراف مستقبلها .

-دراسة سوق العمل و الحاجيات الفعلية للتنمية وخدمة المجتمع بالتنسيق مع ممثلي القطاعين العام و الخاص لتحقيق الانسجام و الموائمة مع الحاجيات الفعلية

-تعزيز قيمة العمل و الإنتاج و دعم الاستقلالية و نبذ الاتكالية و النزعة الاستهلاكية.

على المستوى الاجتماعي

لكي تؤدي العلوم الإنسانية و الاجتماعية دورها بفعالية في خدمة المجتمع لا بد من إشراك كل مكونات المجتمع من مؤسساته و هيئاته و منظماته الحكومية و غير الحكومية خصوصا على مستوى تمويل البحوث و التجارب و الأعمال الدراسية ... و لتفعيل هذا الدور لابد من :

-ضرورة انفتاح كليات الآداب و العلوم الإنسانية على محيطيها و ذلك بالتعريف بمختلف منتجاتها العلمية و دراساتها البحثية الرامية إلى خدمة المجتمع.

-استخدام قنوات اتصال جامعية مهمتها التفاعل مع قطاعات المجتمع و الترويج للجامعة و مؤسساتها كبيوت خبرة ممكن الاعتماد عليها.

-تشجيع الإدارات بالمؤسسات الإنتاجية و الخدماتية على اختلاف أنواعها و أنشطتها بحضور المؤتمرات و الفعاليات الجامعية المختلفة

-أن تلعب وسائل الإعلام و الاتصال الوطنية دوره في إشاعة ثقافة المشاركة في التركيز على مكانة الجامعة و باحثيها في خدمة قطاعات المجتمع المختلفة.

لتفعيل مكانة العلوم الإنسانية لا بد من الفصل بين مكانة هذه العلوم ووجه الحاجة إليها من جهة، وبين مدى وفاء هذه العلوم بمتطلبات سوق العمل على نحو مباشر من جهة أخرى. وربما يكون الأخذ بنظام التخصص الرئيسي والتخصص الفرعي هو النظام الأمثل لتحقيق هذا الهدف؛ لأنه من ناحية لن يحرم الطالب الذي يريد دراسة تخصص ما لأسباب عملية من دراسة تخصص آخر لا يفي بهذه الدوافع والأسباب العملية كما أن هذا - من ناحية أخرى - سيعمل على تدعيم طابع الدراسات البينية، وسيجعل - من ناحية ثالثة - بقاء أي تخصص من التخصصات العلمية غير متوقف على التحاق الطلاب بالقسم الذي يطرح هذا التخصص. فدراسة العلوم الاجتماعية و الإنسانية كتخصص فرعي ملحق ببرناج دراسي تخصصي آخر أو برنامجين آخرين، هو أمر سيكفل بقاء هذه العلوم حتى وإن لم ي قبل عليها الطلاب كتخصص أساسي ، إلى أن يأتي يوم يدرك فيه الناس، وخاصة الطلاب المقبلون على دراسة العلوم الإنسانية أن دراسة أي علم من هذه العلوم تطلب لذاتها أولا بصرف النظر عن المجال الوظيفي الذي يمكن أن يشغله الدارس مستقبلا.[276]

المحور الثالث : تطبيقات على تخصص الجغرافيا

- أولا : أهمية علم الجغرافيا :

تعتبر الجغرافيا على جانب كبير من الأهمية ، فالجغرافية لم تعد ترفاً يمكن الاستغناء عنها ، بل هى أساسية فى إعداد المواطن ليشارك بفاعلية فى بيئته . ويمكن للجغرافية أن تحقق ذلك من خلال ما تحققه للفرد من أهداف عدة ، حيث تقدم للفرد المعارف والمهارات اللازمة لاستغلال البيئة وحل مشكلاتها ،وكذلك ما تكسبه للفرد من عادات ذهنية تساعده على التفكير بطريقة علمية فى مواجهة ما يعترضه فى بيئته ومجتمعه ، مع عدم إغفال الجوانب الوجدانية للفرد ، لما لهذا الجانب من أهمية فى بناء الشخصية السوية[277].

إذ لم تعد الجغرافيا أوصافاً جافة لسطح الأرض وتقديرات مجردة عن عدد السكان وأرقام إحصائية عن الإنتاج ، بل أصبحت اليوم موضوعاً يقوم على التحليل والتعليل ويرمى إلى اتخاذ دور

276. شكري حامد نزال، مناهج الدراسات الاجتماعية وأصول تدريسها ،دار الكتاب الجامعي ، العين ، الطبعة الأولى ، 2003 ، ص 140

277: عبد القادر عبد العزيز علي :2002،ص 10،9

إيجابي فى خدمة الفرد والمجتمع والإنسانية جمعاء ، كما أن الجغرافيا لم تعد مادة للتسلية أو الوقوف على أخبار الشعوب وغرائب الحياة فى العالم ، وهى ليست مجرد ثقافة أكاديمية أو تدريبات عقلية وإنما أصبحت دراستها ضرورة من ضرورات الحياة وعنصراً أساسياً من عناصر التنمية الاقتصادية والاجتماعية [278].

وتتمثل أهمية الجغرافيا فى مجالين كبيرين هما :

- دراسة وتفسير الظاهرات المختلفة التي تحيط بالإنسان ، وقد كانت الجغرافيا فيما مضى علماً وصفياً يهتم بتشخيص ووصف الظاهرات الجغرافيا ولكنها الآن تعدت مرحلة الوصف التي تتسم بها العلوم فى بدايتها إلى مرحلة استجلاء العلاقات التبادلية بين مختلف الظاهرات الطبيعية والبشرية للخروج بمبادئ وقوانين تحكم هذه العلاقات وتوجهها .حيث إن الدراسات الجغرافية تتميز بالشمولية ، والتوزيع ، والتحليل ، والتفسير بحيث عندما نتناول ظاهرة جغرافية مثل : المطر أو الزلازل أو السيول فنذكر أسباب حدوث هذه الظاهرة ثم نقوم بتحديد موقعها على الخريطة وتحليل أسباب هذا التوزيع ثم ننتهي بالنتائج لهذا التوزيع ونربط هذه الظاهرة بالظاهرات الطبيعية الأخرى المرتبطة بها والمسببة لها ثم ندرس تأثير هذه الظاهرة على الإنسان أو الظاهرات البشرية بصورة عامة ، ثم نتناول إمكانية الحد أو التقليل من مخاطرها ، أما عالم المناخ أو الجيولوجيا يتناول هذه الظاهرات لذاتها سواء لها علاقة بسطح الأرض أو ليست لها علاقة ، حيث يركز على العوامل الديناميكية فقط التي تسبب حدوث هذه الظاهرة ولا يتعرض للتوزيع ولا الربط والتعليل والتفسير .

-استخدام نتائج الدراسات النظرية السابقة فى حل مشكلات علاقة الإنسان ببيئته ، وبهذا تتفاوت مجالات الدراسة التطبيقية فى الجغرافيا من دراسة العالم كله ، إلى دراسة المدينة أو القرية إلى دراسة مشروع صناعي أو تخطيط حي جديد فى المدينة ، ولكن التخطيط الإقليمي يعتبر من أهم ميادين التطبيق التي تسهم فيه جميع فروع الجغرافيا الطبيعية والبشرية فى الوقت الحاضر .

ومعنى ذلك أن الجغرافيا ذات قيمة نظرية وتطبيقية ، ولم تعد الجغرافيا تقصر اهتمامها على الناحية النظرية ، بل ؟إلى تطبيق هذه المعرفة النظرية فى خدمة البيئة والمجتمع والإسهام فى حل مشكلاته .

278. محمود على عامر : 1999،ص24

ثانيا : علاقة علم الجغرافيا بالعلوم الأخرى

إذا كان لكل علم ميدانه الذى يبحث فيه أصحابه ، ويسعون إلى التوصل إلى مكوناته من الحقائق ، فإن علم الجغرافيا له ميدانه وهو سطح الأرض ، وهو فى نفس الوقت ميدان ليس قاصراً على الجغرافيا وحدها ، بل تشاركه فيه عدة علوم تختلف فيما بينها فى الأهداف والغايات ، ولكن قد تتفق في الوسائل والمناهج .

ويؤكد تيلور Tilur ارتباط الجغرافيا بالعلوم البيئية بجميع فروعها المختلفة كالطبيعة والكيمياء والبيولوجيا والجيولوجيا والرياضيات ، وكذلك ارتباطها بالعلوم الإنسانية بجميع فروعها كالسياسة والاقتصاد والاجتماع والدين والأنثروبولوجي وغيرها ، ومن ثم فإن الجغرافيا تنتمي إلى كل العلوم وبمعنى أخر تعتبر الجغرافيا علماً تصب فيه جميع العلوم المختلفة كافة ، ويمكن اعتبارها ملتقى المواد العلمية بالمواد الإنسانية ، ولقد ذكر أحد المهتمين بذلك أن الجغرافيا هى النحلة التى ترتشف من مختلف العلوم رحيقها وتخرجه لنا عسلاً شهياً ، أو هى المنسوج الذى حيكت خيوطه من مصادر مختلفة فجاء النسيج خلاباً طيباً ، ومن القول الشائع فى هذا الشأن أيضاً أن الجغرافيا تخترق العلوم الأخرى وتصنع معها زوايا قائمة[279]

وتتضح علاقة الجغرافيا وارتباطها بغيرها من العلوم المختلفة ، إذا ما حددنا موقع الجغرافيا بين العلوم وتقسيماتها المختلفة .

وإذا كان البعض يقسم العلوم إلى :

ــ العلوم البحتة :

وهى العلوم التى ترتبط نظرية المعرفة بها بظاهرة معينة يختص بها كل علم ، مثل علم النبات والظاهرة النباتية وعلم الحيوان والنوع الحيواني وعلم الميتيورولوجيا أو الطقس .وينصب اهتمام الباحثين فيها بتنمية المعرفة المرتبطة بتلك الظاهرة بغض النظر عن مدى فائدتها إلى المجتمع والبشر .

العلوم التطبيقية :

وهى العلوم التى ترتبط نظرية المعرفة بها بمعرفة نفعية ومباشرة للمجتمع أو مؤسساته أو طائفة منه . وتتعدد أشكال المعرفة المرتبطة بنظرية المعرفة فى العلوم التطبيقية وتتراوح بين صناعة وطرائق تكنولوجية من ناحية أو تقاليد حرفية متكاملة لإعداد كوادر حرفية من ناحية ثانية أو لون

[279] : محمود محمد عامر :1999 ، ص 27

من ألوان الفنون من ناحية ثالثة ، وتقدم هذه العلوم نتاج معرفي ينتهي بتقديم سلع أو بضائع يستهلكها المجتمع مباشرة أو تدخل كمادة خام فى صناعة يحتاجها المجتمع ، أو تقدم خدمات فنية للمجتمع أو تدخل فى هياكله الاقتصادية أو الاجتماعية . ومن أبرز الأمثلة علم الزراعة والمعادن والصيدلة والتكنولوجيا والطب البشرى والبيطري والهندسة والتجارة والتربية والقانون وغيرها ...

ــ العلوم البحتة التطبيقية:

وهى مجموعة علوم بحتة قليلة حاولت أن تحتفظ لنفسها بتقديم المعرفة النفعية المرتبطة بنظرية المعرفة التى تختص بها ، مثل الكيمياء التطبيقية وغيرها ، ولكن هذا الاتجاه لم يأت بمردوده المقنع فى الاستفادة القصوى من نتائج هذه العلوم فى شقها البحثي وذلك لقصور منهجيات هذه العلوم البحتة فى معالجة الجانب التطبيقي وتقديم معرفته النفعية للمجتمع.

بالتالي الجغرافيا أحد العلوم البحتة التطبيقية والذي يعمل بكفاءة عالية فى كفاية الجوانب البحتة والتطبيقية على حد سواء . فيتعلق الشق البحثي بتنمية المعرفة المرتبطة بالأمكنة المختلفة بينما يقتصر الجانب التطبيقي على إعداد كوادر حرفية لتقديم معرفة نفعية وفن وصناعة للمجتمع ومؤسساته ، لذا تعتبر الجغرافيا من أعقد العلوم لتعدد مصادر البيانات ونظم التحليل المنهجي ومستوياته وتعدد طرق التقنية وأخيراً تعدد المنتج الذى تقدمه الجغرافيا للمجتمع . و تكمن كفاءة وتعقيد علم الجغرافيا فيما يلي :

أ ــ تنوع مصادر البيانات :

العلوم البحتة والتطبيقية الطبيعية والبشرية ــ المصادر الخرائطية والصور الجوية والفضائية بمستوياتها كماً وكيفاً ــ النتاج الفكري للمعالجات الكمية للبيانات بواسطة النظريات والنماذج .

ب ــ اختلاف نظم التحليل المنهجي ومستوياته :

مجموعة المناهج التقليدية ــ المناهج العلمية ــ المنهجيات المتقدمة.

ج ــ تنوع طرق التقنية :

الأسلوب اللغوي ــ الأساليب الكمية " الرياضي والإحصائي " والمعالجات الكومبيوترية ــ الأسلوب البياني والكارتوجرافي ــ الأسلوب الأستريوسكوبى وتحليل الصور الجوية ــ نظم المعلومات الجغرافية والاستشعار عن بعد وما يحتويه من أنظمة المعلومات من إمكانية إدخال فرضيات عديدة تؤتى بنتائج متباينة كماً وكيفاً .

د ـــ المنتجات النفعية :

فن صناعة الخرائط بأشكالها المختلفة ـــ حرفية التخطيط الإقليمي ـــ حلول المشكلات البيئية ـــ توسيع دوائر المعرفة للعلوم الأخرى وتفسير التباين المكاني للظاهرات .[280]

ثالثا : دور تخصص الجغرافيا في خدمة المجتمع

ترتبط الجغرافيا بالبيئة والمجتمع ارتباطاً وثيقاً سواء من خلال مجال الدراسة فيها والأهداف التي تسعى إليها وتطبيقاتها في البيئة والمجتمع .

وذلك عن طريق دراسة وتفسير الظاهرات المختلفة التي تحيط بالإنسان داخل هذه البيئة أو المجتمع ، من أجل استجلاء العلاقات التبادلية بين مختلف الظاهرات الطبيعية والبشرية للخروج بمبادئ وقوانين تحكم هذه العلاقات وتوجهها .

تقدم الجغرافيا معارف ومعلومات عن البيئة الطبيعية من خلال تناولها مظاهر السطح أو التضاريس من حيث دراسة الجبال والهضاب والسهول والحياة النباتية على سطح الأرض ، وهذه المعلومات والمعارف لازمة لفهم البيئة الطبيعية من خلال اختيار أماكن الإقامة وبناء المساكن واختيار الأراضي التي تصلح للزراعة وتحديد الفصول وأهم النباتات التي تجود زراعتها في كل فصل منها .

وتساهم الجغرافيا في التعرف على مصادر المياه وكيفية المحافظة عليها وطرق استغلالها في حياة الإنسان عن طريق مشروعات الري والصرف والتخزين وإقامة السدود والقناطر .

وتقدم الجغرافيا المعلومات عن مظاهر الكون من الرياح والسحاب والضباب والندى والمطر ، وهي بذلك تساهم في فهم الإنسان لمظاهر البيئة الطبيعية التي يعيش فيها ، ومعرفة المناخ على مدار العام وتقسيماته إلى فصول فيستطيع تحديد نوع ملابسه في كل فصل منها .

وتقدم الجغرافيا إلى دارسيها أهم المعلومات عن النشاط الاقتصادي ومصادر الثروة وكيفية استغلالها وأهميتها الطبيعية ، وطرق التبادل التجاري ، وهذه المعلومات تلقي الضوء على النشاط

---

[280] : فتحي محمد مصيلحي : 1994، ص 29-32.

البشرى للسكان فى البيئة بما يتناسب مع ثرواتها الطبيعية ، ويحدد درجة صعوبة هذا النشاط أو سهولته ، والعوامل التى تساعد على ذلك .

وتساهم الجغرافيا فى إلقاء الضوء على العلاقات الإنسانية بين الأفراد فى داخل الدولة عن طريق التبادل التجاري ووسائل المواصلات ، وكذلك العلاقات بين الدولة والدول الأخرى ، والمشكلات والقضايا العالمية ، وتدرس الجغرافيا البشرية مظاهر الحياة الإنسانية وتوضح مدى تأثرها بالظواهر الطبيعية فى البيئة التى يعيش فيها الإنسان .وكذلك تلقى الضوء على بعض المفهومات الاجتماعية مثل مفهوم السكان وكثافة السكان والانفجار السكاني وتلوث البيئة[281] .

وتدرس الجغرافيا العديد من المشكلات التى تواجه البيئة والمجتمع مثل مشكلة توفير المياه وبعض مشكلات التربة ، والغابات ، والموارد المعدنية ، ونمو المراكز العمرانية العشوائية ، وبعض مشكلات التلوث . ويتضح من دراسة هذه المشكلات البيئية من وجهة نظر الجغرافى أهمية هذه الدراسات فى نطاق الدراسات البيئية عامة وفى الدراسات الخاصة بتخطيط البيئة على وجه الخصوص [282].

من خلال ذلك تعمل الجغرافيا على تزويد الفرد داخل المجتمع أو صانع القرارات بمجموعة من مهارات التفكير الجغرافى ــــ الذى يعرف بأنه :" القدرة على تحديد المعلومات المتاحة فى الوقت الحالي، والمعلومات التى سوف تتاح لهم فى المستقبل ، والمعلومات لم تتح لهم ، واستخدام المعلومات الكمية ، وتوظيف ذلك فى اتخاذ أي قرار ، وبهذا يمكن التفكير بطريقة سليمة." [283]

وبالتالي نجد أن الجغرافيا من أكثر العلوم التى ترتبط بالبيئة والمجتمع من خلال سعيها الدائم إلى تحقيق التنمية والتقدم لهذه البيئة والمجتمع .

رابعا : آليات تفعيل دور تخصص الجغرافيا في خدمة المجتمع :

إذا ما أمعنا النظر فى الأهداف التربوية للجغرافيا ، فى ضوء هذه التغييرات التى طرأت على نظامها المعرفي والتحولات التى آلت إليها ، لاتجهنا إلى تحديد أهداف تعليمية وتربوية خلاف تلك

---

[281] : خيرى على إبراهيم :1990،ص57،58.

[282] : عايده نسيم بشارة :1985،ص 93).

283 : محمود على عامر :2000،ص 34.

الأهداف التقليدية التى تتضمنها وثائق المنهج . واختيار المضمون أو المحتوى الذى يحقق هذه الأهداف فلا يقتصر الهدف من تدريس الجغرافيا على تقديم معلومات عن الظواهر الموجودة على سطح الأرض تقديماً وصفياً ، وتوزيع هذه الظواهر على أجزاء الأرض بقصد إعطاء صورة شاملة عن المجتمعات وبيئاتها . بل لابد أن تشتمل أهداف على تقديم قائمة من المفاهيم والمبادئ التى تمثل الفكر الجغرافى ، أو تمثل الجغرافيا كنظام معرفي تحليلي وليس نظاماً معرفياً تجميعياً وتصنيفياً وتوزيعياً . ولئن كان التجميع والتصنيف من الأهداف الهامة لتعليم الجغرافيا الكلاسيكية فلا يجب أن يغفل هذان الهدفان فى المناهج الجديدة.

فالتجميع فى الجغرافيا أسلوب علمي والتصنيف أيضاً أسلوب علمي يجب مراعتهما فى مناهج الجغرافيا الجديدة ، ولكن لا يكون التجميع والتصنيف أهدافاً مجردة ، بل لابد أن تكون مرتبطة بما يمكن التوصل إليه من نتائج وقوانين ومفاهيم ، مع استخدام هذه المهارة فى التحليل والتوصل إلى قوانين علمية وبناء هيكلية للحقائق والظواهر .

فالحقائق والظواهر فى حد ذاتها لا تتواجد إلا فى مضمون مكاني ، يتمثل فى توطن هذه الظواهر وأسبابه ، وعلاقته بالبيئة والإنسان ، ودور النشاط البشرى فى تحقيق هذه التوطن ، والمشكلات التى تترتب عليه ، ومحاولة التصدى لهذه المشكلات من خلال المضمون المكاني وخصائص الظواهر والعلاقات بينها .

مما سبق يمكن تحديد عدد من التوجهات المستقبلية لعلم الجغرافيا ليكون أكثر خدمة للمجتع في :

- الاهتمام بتنمية المهارات الجغرافية وتنمية المنظور المكاني للبيئات والأماكن المختلفة أكثر من مجرد سرد الحقائق الجغرافية لها .
- الاهتمام بالمفاهيم والمبادئ الجغرافية أكثر من الحقائق وذلك لتتواءم مع ارتفاع نمو المعارف وزيادة تراكمها .
- الاهتمام بالمشكلات المجتمعية ذات البعد الجغرافي على المستوى العالمي والإقليمي والمحلى ، مع إظهار دور الفرد والدولة والمجتمع الدولي فى مواجهتها .
- الاهتمام بتوضيح الصور والسيناريوهات المستقبلية للعالم اقتصادياً وسياسياً وبيئياً واقتصادياً .

- الاهتمام بتوجيه الطلبة وتنمية وعيهم بالمهن المستقبلية التي تهيئ لها دراسة الجغرافيا .
- تكوين اتجاهات تكون بمثابة الأساس الذى يساعد الطلبة على تفهم مختلف ثقافات العالم .
- توجيه الطلبة إلى ما ينمى قدراتهم على الاستفادة من المعارف والخبرات فى إدراك المشكلات التى تتعرض مختلف الأماكن وإيجاد حلول لمثل هذه المشكلات .
- تنمية قدرات الطلبة على ملاحظة الظواهر واستخدام الخرائط والبيانات وقراءتها وتحليلها والوصول منها إلى أنماط ونماذج ونظريات عامة .

تنمية قدرات الطلبة على التفكير الناقد والتحليلي وبناء الأنماط والنماذج باستخدام البيانات المجمعة فى صياغة النظريات والقواعد التى تحكم الظواهر .

خاتمة:

لاشك تطور العلوم الطبيعية والتجريبية ساعد العلوم الإنسانية والاجتماعية في البحث من أجل تطوير نفسهافي إطار التكامل بين العلوم ، لكن هذا لا يعفي اللعلوم الانسانية و الاجتماعية من ضرورة البحث عن مناهج تتميز عن المنهج التجريبي، وتكون مكيفة حسب خصوصيات كل ظاهرة، وهكذا تظل الإشكاليات المطروحة ليست بالضرورة تشكيكا في القيمة العلمية لهذه العلوم، وإنما يتعلق الأمر بنقاش إيبستيمولوجي من شأنه أن يغني العلوم الإنسانية والاجتماعية ويدفع بها إلى توخي الدقة، لأن جميع الصعوبات تتمثل في طبيعة الظاهرة الإنسانية باعتبارها ظاهرة معقدة، متغيرة وأن الإنسان يكون هو الدارس والمدروس في الوقت نفسه.

التوصيات:

- وضع المصطلحات العلمية و تحقيقها و العمل على توحيدها و وطنيا؛
- رفع مستوى البحث العلمي بغية تزويد البلاد بالمتخصصين و الخبراء في فروع العلوم الإنسانية؛
- إجراء البحوث العلمية و الدراسات المختلفة التي تسهم في تقدم المجتمع و إيجاد الحلول لمختلف القضايا التي تواجه التطور الاجتماعي ؛

تطوير وسائل البحث و التعليم و أصول التدريس و أساليبها بما في ذلك التأليف و الترجمة و النشر؛

- تفعيل مكانة العلوم الإنسانية جميعها و الفصل بين مكانة هذه العلوم و الحاجة المعرفية إليها من جهة و بين مدى تلبية هذه العلوم لمتطلبات سوق العمل بشكل مباشر من جهة ثانية؛
- ربط الجامعة و مؤسساتها المختلفة بالمجتمع و مؤسساته الاقتصادية و الاجتماعية و الثقافية.

المصادر و المراجع:

- العلوم الإنسانية و الاجتماعية بالمغرب :أطروحات و مقاربات ، جامعة السويسي بالرباط ، المعهد الجامعي للبحث العلمي 1998 ص 389.
- كامل محمد المغربي أساليب البحث العلمي في العلوم الإنسانية والاجتماعية ،2009 ص 336.
- فوزي غرايبية، و دنعيم دهمش ، أساليب البحث العلمي في العلوم الإنسانية والاجتماعية ، دار وائل للنشر والتوزيع، الطبعة الثالثة 2002، ص 102.
- جان بياجيه، وضع علوم الإنسان في منظومة العلوم في اليونسكو ، الاتجاهات الرئيسية للبحث في العلوم الاجتماعية، مجلة العلوم القانونية والاقتصادية ، المجلد الأول، دمشق ، 1976 ، ص 88.
- أحمد إبراهيم الشلبي ، تدريس الدراسات الاجتماعية بين النظرية والتطبيق ، المركز المصري للكتاب ، القاهرة ، 1998 ، ص 123.
- أحمد حسين اللقائي، ويونس أحمد رضوان ، تدريس المواد الاجتماعية ، عالم الكتب ، 1974 ، ص 56.
- شكري حامد نزال، مناهج الدراسات الاجتماعية وأصول تدريسها ،دار الكتاب الجامعي ، العين ، الطبعة الأولى ، 2003 ، ص 140.
- عبد اللطيف فؤاد إبراهيم، سعد مرسي أحمد ، المواد الاجتماعية وتدريسها الناجح ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، الطبعة الأولى 1979، ص 15.

المصادر باللغة الأجنبية

-Angers maurice : initiation pratique a la méthodologie des sciences humaines ,anjoucec, 1992 ,p85.

-Pierre BOURDIEU : questions de sociologie, p 19 CERES Edition 1984, p124.

-F.Bacon: the new organon and rolatedwriting. édit by fulton handersonindianapo

ذاكرة مغاربة الحرب العالمية الثانية





مساهمة المغاربة في الحرب العالمية الثانية: مجندو إيموزار مرموشة نموذجا



فاطمة حيدة
باحثة في تاريخ المغرب

يبدو واضحا أن المغرب دخل مضطرا في الحرب العالمية الثانية، فكل التحولات أصبحت توحي بانفجار الوضع الدولي المتوتر والمشحون. لذلك أصبحت فرنسا تستعد لمواجهة حرب عالمية محتملة. لم يكن أسلوب التجنيد وليد ظروف الحرب، بل كانت فرنسا تقوم بتعبئة الجنود قبل هذا الموعد درءا للاحتمالات. إذ بموجب الدورية الوزارية الصادرة في29نونبر 1935بالجمهورية الفرنسية التي تنص على تعديل المرسوم المقيمي 14يناير 1932 المتعلق بالاحتياطيين بالجيش الفرنسي تم اتخاذ مجموعة من الإجراءات التي تهم تعيين الأطر بالمؤسسة العسكرية. [(284)] وقد

---

[284] –عبدالرزاق لكريط : مؤسسة الحماية الفرنسية بالمغرب مخاض الأفول 1935 1945 ،انفوبرانت فاس 2014 ، ص 161

أصدرت الإقامة العامة عدة تدابير تسخر من خلالها البلاد والعباد لخدمتها، متمثلة في نصوص نشرت في الجريدة الرسمية أيام 26. 28.31غشت 1939[285]. جاءت هذه النصوص كالتالي:

- قرار الإقامة العامة الذي يمنع خروج الفحم بكل أنواعه من المنطقة السلطانية
- قرار الإقامة العامة القاضي بمشروعية مصادرة الممتلكات لأسباب عسكرية
- ظهير 26يوليوز الصادر بالجريدة الرسمية عدد 8/31 المنظم لإقامة بعض الأشخاص بالمنطقة السلطانية
- مرسوم باندلاع حرب عالمية 1شتنبر 1939المعلن لحالة الحصار بمجموع تراب المنطقة السلطانية .

يتضح أن فرنسا كانت مستعدة لإدماج المغاربة في الحرب تماشيا مع ما قام به ليوطي من قبل ، وقد سخرت كل إمكانياتها لهذا الهدف وقامت بتجنيد المغاربة في حرب لا ناقة لهم فيها ولا جمل. هذا في الوقت الذي كانت فيه أوضاع المغرب متردية على جميع المستويات : اقتصاد متدهور ومنذور للقلة والكفاف متأثر بتداعيات الأزمة الاقتصادية لسنة 1929، ومعرض للاستنزاف من قبل القوات الاستعمارية التي لا تدخر جهدا لاستغلاله لصالح المتروبول . وتزايد نسبة الهجرة القروية وارتفاع معدل البطالة والفقر والجوع ثم انتشار العنف الذي قابله عنف مضاد من قبل سلطات الحماية. والصراع الدائم بين الإقامة العامة والوطنيين من جهة، وبين الإقامة العامة والسلطان من جهة أخرى.

وعلى اثر اندلاع الحرب العالمية الثانية، صرح السلطان محمد بن يوسف، يوم 3 شتنبر 1939 ، يجب أن نساند فرنسا مساندة غير مشروطة وألا نتردد في إمدادها بكل ثرواتنا ولا التضحية بكل ما لدينا [286]، وجه السلطان رسالته للمغاربة بهدف تشجيعهم على المساهمة في الحرب إلى جانب الحلفاء وخاصة فرنسا. كما وجه المقيم العام "نوكيس" نداء للمغاربة لنفس المطلب وفي نفس السنة. وقرأت رسالة محمد بن يوسف في كل المساجد، وأصبح المغاربة في كل

2 - الطيب بوتبقالت الوضع الاستعماري في المغرب خلال الحرب العالمية الثانية ، موقع صوت المجتمع ، منشور بتاريخ 22 اكتوبر 2015 .

286- أنظر الرسالة في الجريدة الرسمية رقم 1403 الصادرة في 1939/9/15 والصقلي وأخرون : مذكرات من التراث المغربي ،الجزء 6 ، الرباط ، 1985،ص **93**..

البلاد على علم بالموضوع الذي ينظر إليه "كواجب مقدس" من خلال الدعاية الواسعة التي انتشرت بهدف تسهيل عملية التجنيد.

في السياق ذاته، قام السلطان ومختلف مكونات المجتمع المغربي بالتعبير عن مساندتهم اللامشروطة لفرنسا وحلفائها. وشارك بعض أرباب الزوايا في عملية التشجيع على الانخراط في الحرب العالمية الثانية كالزاوية الدرقاوية. ففي هذا الصدد، أشادت جريدة السعادة بمواقف الشيخ أبي بكر الدرقاوي الداعمة لفرنسا ونشرت الرسالة التي بعث بها الشيخ الدرقاوي إلى الجنرال كومبان حاكم ناحية فاس يعلن فيها تضامنه مع فرنسا ضد أعدائها في مثل هذه الظروف [287]. وعلى منوال السلطان وبعض الزوايا سارت جميع الفئات الشعبية التي أعلنت بدورها دعمها لفرنسا وحلفائها.

أمام كل هذه الظروف رأى البعض من المغاربة أن المشاركة في الحرب العالمية الثانية هي طريقهم للخلاص وانتشالهم من الأوضاع المزرية التي زادت من تعميق حالة الحرب، واعتقدوا بأن فرنسا بإمكانها أن توفر لهم وضعا أكثر رخاء من الذي يعيشونه. وقد اتجه البعض من هؤلاء الجنود، وخاصة صغار السن إلى جبهة القتال وهم يحملون في ذهنهم تساؤلات عن ما وراء البحر فكان الدافع الاستكشافي حافزا لبعضهم.

لقد أرسل المغرب ما لا يقل عن 43000جندي في أولى العمليات العسكرية ولما وقعت فرنسا الهدنة مع ألمانيا كان 20000من المحاربين المغاربة النظاميين و20000 آخرين من قوات الكوم يقومون حينها بالتدريبات العسكرية تهيأ لمساندة فرنسا. في شتنبر 1939حلت ستة أفواج من الرماة المغاربة بفرنسا وفي ماي 1940 دفع بعشرة أفواج إضافية شاركت في حملة بلجيكا وفرنسا وكان عددهم 30000 رجل. وهذا استمر المغرب في مد فرنسا بالقوة البشرية قصد تحقيق النصر [288].

لم تكن القوة البشرية وحدها أساس التموين الذي قدمه المغرب بل ساند الحلفاء بالمنتجات الغذائية كذلك وتمثلت هذه المساندة فيما يلي: 200000طن من القمح منها 135000طن لفرنسا

---

287 -المصطفى الريس: الزوايا والطرق الصوفية من خلال الصحافة العربية الصادرة بمنطقة الحماية الفرنسية، أطروحة جامعية لنيل شهادة الدكتوراه ، نسخة مرقونة ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية / الجديدة ، الموسم الجامعي 2012/2011، ص .266

288 - العربي الصقلي وأخرون : مذكرات من التراث المغربي ، مرجع سابق ،ص 93.

وحدها .206060طن من الشعير منها 58959 لفرنسا و 54291طن من الذرة و 40000طن من الحبوب الثانوية و 109560 طن من الخضر المجففة و 164680 من رؤوس الماشية و 37670طن من الخضر الطرية و 34900طن من الفواكه(289) . وبل الأكثر من ذلك ظل المغرب ،رغم الجفاف الذي اجتاحه من 1943إلى 1945 يمون فرنسا وحلفائها في الحرب العالمية الثانية .

لم يكن المغرب مسرحا للحرب العالمية الثانية ولكنها حملت انعكاسا سلبيا على المغاربة فقد جعلت فرنسا من المغرب ليس فقط خزانا لاستقطاب المجندين بل فرضت على المزارعين المغاربة بيع منتجاتهم بأثمان زهيدة وأحيانا مصادرتها باسم مصلحة الدولة الفرنسية.

التحق أهالي مرموشة بجبهات القتال متأثرين بالدعاية التي روجت أنداك بهدف محاربة النظامين الديكتاتوريين الفاشي والنازي ، وكان أغلبهم ضمن فرقة الكوم ، ونكاد نعدم إحصائيات دقيقة عن أعدادهم ، غير ما توفر لدينا وثائق إدارية من الأرشيف الإداري الفرنسي(290)،مكنتنا من جمع معطيات أولية عن طبيعة المشاركين . فقد شارك البعض منهم رفقة الفوج الأول الذي أرسل سنة 1939 ، في حين شارك آخرون ضمن الأفواج التي التحقت بجبهة القتال في السنوات الموالية . وقد ارتفع عدد المشاركين بعد زيارة الرئيس الامريكي روزفلت ووزير الخارجية الانجليزي تشرشل للمغرب ولقائهما بالسلطان محمد بن يوسف فيما يعرف بلقاء أنفا.

الاسم الكامل	تاريخ الازدياد	الوضعية العائلية	المنطقة التي ينتمي إليها
سعيد أوحمد	1907	متزوج	دوار أيت مولال فرقة أيت مامة قبيلة إيموزار مرموشة
سعيد اوميمون	1900	متزوج	دوار إين مامة إيموزار مرموشة
محمد بن الحسن أقصو	غير معروف	متزوج	
محمد أوسعيد	1918	متزوج	بايت يوسف إيموزار مرموشة

289 - الطيب بوتبقالت الطيب بوتبقالت الوضع الاستعماري في المغرب خلال الحرب العالمية الثانية ، موقع صوت المجتمع ، منشور بتاريخ 22 اكتوبر 2015 .

290 - وثائق إدارية من الأرشيف الإداري الفرنسي

محمد بالقايد	1919	متزوج	
محند أوعقى	1910	متزوج	
لحسن لعزيز	1920	متزوج	
محمد لحسن	1918	متزوج	دوار أيت بنعيسى ايموزار مرموشة

ينتمي المشاركون إلى كل قبائل مرموشة أيت مولال أيت يوب ايت بازة ايت لحسن ... اقتصرت فرنسا على فئة الشباب العمود الفقري للمجتمع يتوفرون على بنية جسمانية قوية و لم تكترث لوضعيتهم العائلية اذ أغلب المشاركين كانوا المعيلين لعائلاتهم وكانوا متزوجين ولهم أطفال.

يؤكد الملازم الكولونيل دانييل دافيد رئيس المستودع المركزي للأرشيفات الادارية الفرنسية أن السيد سعيد اوحمد المزداد سنة 1907 بدوار ايت مولال فرقة ايت مامة قبيلة ايموزار مرموشة قد التزم في الجيش لمدة سنتين في المنطقة 218من الكوم يوم 1939/09/01 ثم انتقل الى المنطقة 18من الكوم حيث كانت تقدم لهم التدريبات للالتحاق بجبهات القتال . خرج من فاس في 1943/04/20 واجتاز الحدود المغربية الجزائرية يوم 1943/05/30وابحر إلى "ديزرت"يوم 1943/07/12شارك في حملة صقلية ثم عاد إلى اباكيسيو يوم 1944/08/28 وأبحر في اتجاه مارسيليا . وعلى نفس المنوال سار السيد مولود محمد المزداد سنة 1919 بإيموزارمرموشة وكان ضمن فرقة الكوم تلقى تدريبا عسكريا للمشاركة في الحرب انتقل من فاس الى الجزائر ثم وصل تونس 1943/12/22، ومن تونس إلى ايطاليا مكث بها من 1943/12/28 إلى 1944/09/15 شارك في حملة ايطاليا. انتقل إلى المانيا 1945/05/04 إلى 1945/04/17و النمسا من 1954/05/05 إلى 1945/09/07 ــ وكانت نهاية رحلته هي فرنسا التي مكث بها من 1945/09/08الى 1946/03/16.و شارك سعيد أوميمون من دوار اين مامة ايموزار مرموشة المزداد سنة 1900 في حملات تونس ايطاليا المانيا فرنسا. حصل على الميدالية الكولونيالية وعلى الوسام العلوي اعترافا بالخدمات التي أسداها لفرنسا إبان الحرب العالمية الثانية . وانتقل محمد بن الحسن أقصو إلى باريس ضمن فرقة الكوم 1937/05/01 ومنها الى Civitavecchia ثم أجاكيسيو بكورسيكا ومنها الى مدينة Baie ثم عاد الى

مارسيليا في 1945/05/09 حصل على درجة مقدم. واتجه محمد اوسعيد مزداد سنة 1918 بايت يوسف ايموزارمرموشة من المغرب نحو الجزائر شارك في حملة تونس وفي جبال الألب وألمانيا وفرنسا في الهند الصينية . وشارك محمد بالقايد مزداد سنة 1919 في الحملات على تونس وصقلية وكورسيكا وإيطاليا نال رتب عسكرية ابتداء من معاون أول إلى مقدم. في حين توجه محند أوعقى المزداد سنة 1910 إلى إيطاليا في 1944/01/14 وأعيد إلى كورسيكا في 1944/07/24. كان مراقبا في الجيش الفرنسي بالجزائر ثم مراقب في البحر وتوجته فرنسا برتب عسكرية مهمة . ولحسن لعزيز ولد سنة 1920 الذي شارك مع فرنسا في حملاتها العسكرية.ثم محمد لحسن مزداد سنة 1918 بدار أيتبنعيسى ايموزار مرموشة الذي شارك في عمليات Naplesسنة 1944ثم أبحر إلى وهران يوم 1945/12/29ثم عاد إلى C.E.F.[291]

جندت فرنسا مقاتلين من المغرب وتونس والجزائر،ولم تكن معاناة المغاربة في جبهات القتال أقل من معاناة إخوانهم الجزائريين والتونسيين. كان الجنود الامازيغ جزء من التشكيلة العامة للجيش المغربي وقد ألقى بهم الفرنسيين في الصفوف الأمامية عند كل مواجهة حتى يكونوا أول القتلى

[291]- Le Lieutenant –colonel Daniel David, chef du dépôt centrale des Archives Administratives, Ministre de la défense Région Militaire de défense MEDITERRANEE C.M.D de Lyon. A Clermont – Ferrand le 23/12/1998.
-Le capitaine DELAGE, chef de l’Annexe, Commandant le Détachement d’EL Hammam/ cercle d’Azrou LE 15 Septembre 1952
-Le Lieutenant –colonel PantaIacci commandant les goums Marocaines, P.O. Le capitaine ANE, chef du 1er bureau des goums Marocains
- lieutenant Lucchini. commandant p.v.t le 39°GOUM marocain à Thar-souk le 27 AOUT 1952
-Le commandant du bureau central d’archive administratives militaires certifier exact Le 18 DEC 1997 .
-Le Lieutenant –colonel M.F Benoist commandant le bureau central d’archives administratives militaires, instruction n 15500 T/P M/IB du 8 mai 1963 .

-Le commandant du bureau central d’archive administratives militaires par ordre l’adjudant chefD Tommes chef de groupe
-Le lieutenant colonel David chef du service central des archives administratives ministre de la défense méditerranée c.m de Lyon attestation du service
-Etat signalétique et des services délivré a la demande de l Autorité militaire, 39 goums marocain

فسالت دماء المرموشيين في كل جزء اشتد فيه القتال بين قوات الحلفاء وأعدائهم بأوربا وشمال افريقيا. عان هؤلاء الجنود من صعوبة المسالك ومن الجو البارد خاصة وأنهم واصلوا السير مشيا على الأقدام عبر المرتفعات التي كان علوها بين 1200واكثرمن 2400متر. وقد أشادت فرنسا بدور الجنود المغاربة في مواجهة القوات النازية الألمانية والفاشية الايطالية إذ في هذا السياق قام الجنرال"ديغول" بتوشيح السرية الأولى من الفيلق الثالث للفرسان المغاربة عندما قام بتفقد الحملة الفرنسية في 17 و 18ماي1944 .وضمنهم حصل جنود من مرموشة على أوسمة وميداليات اعترافا لهم بشجاعتهم كالسيد سعيد أ وميمون الذي حصل على الميدالية الكلونيالية أعراف تونس والميدالية التذكارية (تونس ايطاليا حرب التحرير ألمانيا). وحصل السيد محمد أومزيان على وسام الشرف وتم تشريفه بهذا الوسام يوم 18يوليوز 1944 وفي باريس يوم 18فبراير 1946 من طرفا لحكومة المؤقتة للجمهورية الفرنساوية بالمغرب[292]. واعترافا بجميل الجنود المغاربة استقبل الجنرال ديغول في 18يوليوز 1944السلطان محمدين يوسف ووشحه بوسام التحرير[293]. وعبر الألمان بدورهم عن شجاعة وبسالة الجنود المغاربة حيث جاء في وثيقة ألمانية ما يلي " يجب أن ندرك أن القوات الفرنسية-المغربية تستطيع أن تمر من حيث تمر البغال(...) وينبغي أن نشير إلى أن العدو كان يسير في منطقة جبلية كان الناس يعتبرون اقتحامها مستحيل الشدة وعورتها (...) وقد قاتل الفرنسيون وخاصة المغاربة قتال الشجعان واستغلوا كل فرص فازوا فيها في المناطق التي كانوا بها "[294].عاش الجنود المغاربة معاناة حقيقية أمام مواجهة القنابل التي تأتي من كل صوب والألغام المزروعة في الأرض والشهب النارية والقصف بالطيران والأسلحة المتطورة وعانوا من التقتيل والأسر وانتزعوا الاعتراف لهم بالشجاعة كما فعلوا في الحرب العالمية الأولى. لكن فرنسا لم تمنحهم الحقوق اللازمة إذ يتوصل البعض منهم بتعويضات هزيلة تبقى دون التعويضات التي يحصل عليها نظرائهم الفرنسيين ومن المشاركين من لازال يراسل فرنسا قصد الاستفادة من التعويضات. كما أن الدولة المغربية لم تسعى إلى أي تفاوض مع فرنسا حول مسألة تسوية وضع الجنود المغاربة الذين شاركوا في الحرب العالمية الثانية.

---

[292] - Ordre nationale de la légion d'honneur le grand chancelier de la légion d honneur .

[293] - عبد الحق المريني : الجيش المغربي عبر التاريخ دار نشر المعرفة ، الرباط ، 1997،ص 316.

[294] - عبد الحق المريني : الجيش المغربي عبر التاريخ ، مرجع سابق ،ص 125.

بمجرد ما أعلنت الحرب وضعت الحكومة الحامية يدها على جميع مرافق البلاد وحرمت الفلاحين من جميع محصولاتهم، ومن كلما ينتجونه لتموين جبهات القتال. وعان المغرب خلال فترة الحرب من توالي فترات الجفاف وانتشار الجوع فقد احتفظت ذاكرة المغاربة بتلك السنوات الصعبة التي سميت"عام البون"أو عام"بوهيوف"ففي هذا الصدد يقول الباحث بوجمعة رويان : "ابتدأ أمر هذه المجاعة بجفاف فريد ضرب المغرب على مدى عشرة أشهر في وقت انتسفت فيها احتياطات البلاد من الحبوب لتجاوز النقص الحاصل في صابة 1944 وتلبية طلبات الجيوش الفرنسية وحلفائها فضربت المسغبة كلا أنحاء المغرب وانعكست عواقب ذلك على السكان"[(295)]. وأشار أيضا إلى الأثر الواضح لمشاركة المغرب في المجهود الحربي الفرنسي في نقص احتياطي الحبوب الذي اعتاد المغاربة على خزنه تحسبا لفترات المحن والجفاف بعد ان ساهمت سلطات الحماية في إفراغ المطامير التي كانت إلى حدود 1943 تغص بالحبوب ، ليجد المغاربة أنفسهم أمام البحث عن تغذية بديلة كانت تتكون من بلوط الغابات وفصوص الخروب و"تلغودة و"كتارة"[(296)].

كانت سلطات الحماية تمنح تراخيص الانتجاع لمربيي الماشية في الأطلس المتوسط مقابل مبالغ مالية . ففي 25 ابريل 1944 حصل السيد لحسن اوحمو من ايت بازة وراعيه احمد اوعقى على ترخيص بالانتقال إلى منتجعات بولمان وجبل تاجدا مع قطيعهم المكون من 600شاة خلال فصل الشتاء لسنة 1944و 1945 موقعة من طرف القائد سعيد ايت جار .[297] يتضح من خلال الوثيقة أن تأثير الجفاف على منطقة بولمان باعتبارها منطقة جبلية كان اقل وطأة مما شهدته المناطق السهلية و الصحراوية و شبه الصحراوية نظرا لتوفرها على مخزون مائي يساعد على نمو الغطاء النباتي رغم قلة التساقطات.وتوضح أيضا استغلال سلطات الحماية الأهالي من خلال السماح لهم بالانتجاع مقابل المال فيضطر الفلاح الفقير إلى دفع فرنك آو 2فرنك على كل رأس من الماشية كي لا تموت جوعا.

---

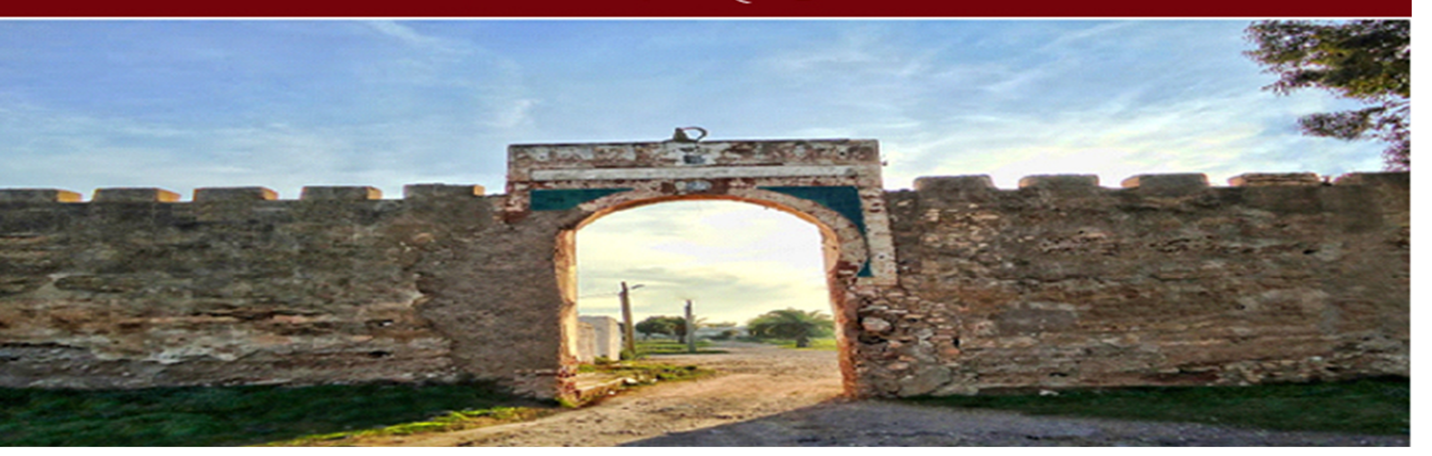
[295] - بوجمعة رويان : مجاعة 1945 بالمغرب ضمن وقفات في تاريخ المغرب ، دراسات مهداة للأستاذ ابراهيم بوطالب، تنسيق عبد المجيد القدوري ، منشورات كلية الآداب والعلوم الانسانية بالرباط، 2001 ، ص 243.

[296] - المرجع نفسه ،ص. 248.

[297] - Le chef de la circonscription de Boulemane ,le 25 avril 1944 .

ايمانا بقيم السلم والحرية والديموقراطية ساهم المغرب في تحرير أوربا من النظامين الفاشي والنازي . وكان لزاما على المغاربة ان يستمروا في كفاحهم من أجل الحصول على الاستقلال ، لأن مساهمتهم في الحرب العالمية الثانية لم ينتج عنها سوى ارتفاع اعداد القتلى المغاربة والجرحى والمعطوبين وكذا تضرر الاقتصاد المغربي نتيجة ارتفاع الصادرات وارتفاع الاسعار ثم ضعف القدرة الشرائية وانتشار المجاعة . جعلت قوات الحلفاء من المغرب قاعدة عسكرية ونقطة انطلاق لصد هجمات القوات الألمانية والايطالية وكان طبيعيا ان تجند فرنسا المغاربة بالقوة في الحرب كما انتزعت خيرات بلادهم الطبيعية بالقوة انطلق الجنود المغاربة من المشاركة في الجزائر وتونس والبحر الابيض المتوسط ثم انتقلوا الى اوربا وكان البدء من صقلية ثم ايطاليا وفرنسا وبلجيكا وألمانيا في ظروف مناخية صعبة ابانوا عن قدرات قتالية عالية وانتزعوا الاعتراف لهم بالشجاعة .

مواقع تاريخية





سلوان وقلعتها خلال بداية ق20م



نورالدين احميان

باحث في تاريخ المغرب

لعبت قلعة سلوان[298] أدوارا متعددة منذ تأسيسها من قبل المولى اسماعيل في سنة 1678،على الرغم من أنها غابت عن الأحداث خلال القرن 18م بل وحتى 19م، إلا أنها ستطفو على ساحة الأحداث الوطنية بل والدولية بشكل كبير خلال مطلع القرن 20م، وتصبح محط إزعاج للمخزن المغربي بسبب استغلالها من قبل القوى المعارضة له كالثائر بوحمارة ثم الإسبان من بعد ذلك، وتوظيفها من قبلهم في توسعاتهم بمنطقة الريف، فكان لها حضور قوي في ظل هذه الأحداث والتطورات التي عرفتها المنطقة.

---

[298]- تبعد سلوان عن مدينة الناظور بحوالي 15 كيلومتر أسست من قبل المولى اسماعيل في سنة 1678م إلى جانب قلعة أخرى بعيون سيدي ملوك، من اجل مراقبة تحرك قبائل بني يزناسن الموالي للأتراك بالجزائر هؤلاء الذين كانت لهم أطماع في المغرب.

أولا: سلوان خلال مرحلة تمرد بوحمارة.

خلال أواخر القرن التاسع عشر دخل المغرب ومعه منطقة الريف مرحلة جديدة تميزت بالصراعات والأزمات، وذلك راجع إلى تزايد الأطماع الأجنبية في المغرب، إضافة إلى تدهور أوضاعه الاقتصادية، فترتب عن ذلك ظهور اضطرابات عدة في مختلف ربوع البلاد، وبعد وفاة السلطان المولى الحسن الأول في سنة 1894م، وخلفه ابنه المولى عبد العزيز الذي لايزال صغير السن، فاستغل هذا الأمر الجيلالي الزرهوني[299] وادعى انه الابن الأكبر للمولى الحسن الأول، وبانه هو الأولى بالخلافة بدلا من اخوه عبد العزيز، وأشاع بأن أخاه انغمس في الملذات وفتح باب المغرب للأجانب...، وتمكن أن يقنع عدد كبير من قبائل المغرب بهذه الأمور واستمالها إليه "**فصار يجول في تلك القبائل ومن بينها الحياينة، غياثة، التسول، البرانض، صنهاجة، اكوناية، بنو يزناسن، امطالسة، وغيرها ، إلى أن وصل إلى قبائل قلعية الواقعة على حدود مليلية التي تحت الاحتلال الإسباني**"[300]، واستقبلته هذه القبائل بحفاوة وقدموا له العديد من الهدايا والخيول تعبيرا عن دخولهم تحت سلطته، ثم اتخذ بعد ذلك قلعة سلوان عاصمة له دون أي مقاومة تذكر.

هكذا أصبحت العديد من قبائل الريف الشرقي والأوسط تحت نفوذ بوحمارة وخرجت عن نفوذ المولى عبد العزيز، ومن المنطقي أن تكون وراء ذلك عدة أسباب جعلت قبائل الريف تقبل على هذا الامر، خاصة ما يتعلق بالحالة التي كانت تعيشها المنطقة اجتماعيا و اقتصاديا، وقد وصف العربي اللوه حالة الريف بقوله "**الجهة الثانية الشمال المغربي، ويشمل القبائل التي تمتد على ساحل البحر الأبيض من كبدانة شرقا إلى طنجة والعرائش غربا، وقبائل الشمال عموما كانت في هذا العصر، تعاني من قسوة الأمراض الاجتماعية التي انبثقت بينها ما لا يخطر بالبال، بالتلصص والنهب والسرقة والاختطاف والتقاتل وغير ذلك من أنواع الشرور والجرائم، وهي**

299- الزرهوني: هو الجيلالي الزرهوني من قبائل كانت مستقرة بالقرب من مولاي إدريس زرهون، لقب بعدت تسميات منها على سبيل المثال لا الحصر : بوحمارة، الروكي ،الفتان، الثائر، الدعي، الغاصب ...

300- العربي اللوه: المنهال في كفاح أبطال الشمال، مطبعة ديسبريس، تطوان، 1982، ص 23

التي كانت متفشية في الشمال"[301]، بلا شك أن هذه الأوضاع المتسمة بعدم الاستقرار والفقر وغياب الأمن و... إضافة إلى الشعار الذي كان قد رفعه بوحمارة في البداية، وهو القيام بالجهاد ضد التوغل الأجنبي في مختلف ربوع المغرب ومنها منطقة الريف، هذه العوامل المختلفة مجتمعة دفعت هذه القبائل إلى التنصل من بيعة المولى عبد العزيز، والدخول تحت نفوذ الفتان بوحمارة.

لقيت حركة بوحمارة دعما من قبل القوى ذات الأطماع الإمبريالية في المغرب لإضعاف سلطة المخزن، كما استغلت هذا التمرد من اجل زيادة التسرب في البلاد والاستفادة منه تجاريا وماليا، من خلال ضمان بيع الأسلحة للجيش العزيزي حتى يتمكن من مواجهة هذا التمرد، إضافة إلى أن هذا الثورة ستجعل الدولة في حاجة أكثر إلى الموارد المالية لتمويل الجيش، مما سيفرض عليها التوجه إلى الاقتراض من الخارج. بالإضافة إلى هذا الامر فقد " **ضمن الأوربيون بتكوين الزرهوني لسلطنته بالريف رقعة جديدة من التراب المغربي تسمح لهم بالتحرك في جميع اتجاهات المنطقة الريفية، لقد اصبح الريف في عهد الزرهوني قبلة للأجانب الذين حجوا إليه"**[302].هكذا أصبح الأوربيون وخاصة الإسبان والفرنسين يتحركون بكل حرية في منطقة الريف، واستغلت هاتين الدولتين الإمبرياليتين وجودهما العسكري وقامتا بإنشاء بعض المشاريع في المغرب مثل: السكك، الطرق، الموانئ، التلغراف،... خاصة وأن مقررات الجزيرة الخضراء كانت قد أطلقت يد فرنسا وإسبانيا في المغرب.

تمكن بوحمارة بعد استمالة عدد كبير من قبائل الريف أن يجعل المنطقة تعيش نوعا من الاستقرار مقارنة مع بعض المناطق الأخرى، إذ "**أصبحت الطريق إلى سلوان (عاصمة الزرهوني)**

301- نفسه، ص 43

302-Gabriel Morales : Datos para la historia de Melilla. Tip. El Telegrama del Rif. Melilla 1909, pp 388-389

أورده رشيد اليشوتي: إسبانيا والريف والشريف محمد أمزيان 1909-1912. منشورات المعهد الجامعي للبحث العلمي، الرباط،2011.ص 61

هي الطريق الأمنة في كل المغرب"[303]، ويمكننا أن نتصور إمكانية انتشار هذا الأمن في مختلف المناطق التي كانت خاضعة للعاصمة سلوان، ويرى البعض بأن اتخاذه (بوحمارة) لسلوان عاصمة له يمثل بداية انهيار حركته لعدم قدرته على القيام بالجهاد ضد الأوربيين(الإسبان والفرنسيين)[304]، وشعار الجهاد الذي كان قد رفعه يعتبر من بين أهم الأسباب التي جعلت قبائل الريف تلتف حوله.

اصطدم الجيش الحكومي بجيش الزرهوني في وجدة" **فقتل[جيش الروكي] من الف وخمسمائة جندي، وقطع من الرؤوس ما حمل على أربعين بغلة وأسير منه خمسمائة أسير.**

ثم إن أبا حمارة ارسل الأسرى والرؤوس مع ثلاثين فارسا من جيشه إلى عاصمته الشرقية : سلوان لتعلق تلك الرؤوس في الجمرك الذي في حدود مليلة والمغرب"[305]، هكذا أصبحت سلوان خلال هذه المرحلة قاعدة لجيوش الزرهوني، فمنها كانت تنطلق الجيوش في حملاتها، كما أنها إليها تعود أثناء حملاتها العسكرية، كما نستنتج أنها مثلت كذلك مخزنا لغنائم المعارك التي كان ينتصر فيها باستمرار على الجيش الحكومي الضعيف والمتفكك والمفتقد للكفاءة العسكرية.

تمكن الجيش الحكومي بعد عدة معارك من تجاوز نهر ملوية في اتجاه الريف و بالضبط في اتجاه سلوان، واستطاع التغلب على جيش بوحمارة، مما جعل هذا الأخير يطلق نداء الإغاثة من القبائل التي كانت تحت طاعته[306]، فوفدت عليه بسلوان أعداد كبيرة بلغت ثلاثين ألفا من الجنود[307]، فأصبحت سلوان مركز قوات بوحمارة وقاعدة لانطلاقها.

303- نفسه، ص 62

304- محمد الصغير الخلوفي: بوحمارة من الجهاد إلى التآمر: المغرب الشرقي والريف من 1900 إلى 1909م.دار المعرفة، الرباط، 1993.ص 35

305- العربي الورياشي: الكشف والبيان عن سيرة بطل الريف الأول سيدي محمد أمزيان. مطبعة المهدية، الطبعة الأولى، تطوان 1976. ص61

306- القبائل التي كانت تحت طاعة بوحمارة هي: تمسمان، بني توزين، تفرسيت، بنو اولشيك، بنو سعيد، امطالصة، بنو بويحي، أولاد ستوت، كبدانة، ثم اخماس قلعية: بنو سيدال، بنوبويفرور، بنو بوغافر، بنوشيكار، مزوجة.

307- الكشف والبيان، م. س. ص 66.

من خلال تتبع ثورة بوحمارة في إطار صراعها مع المخزن الشرعي يمكننا أن نقسمها إلى ثــلاث مراحل أساسية:

- المرحلة الأولى: تمتد ما بين 1902-1904 حقق خلالها بوحمارة انتصارات عدة.
- المرحلة الثانية: ما بين 1905-1908 مرحلة تميزت بتكبد بوحمارة للعديد من الهــزائم فحاول فيها استعادة توازنه، واتخذ سلوان عاصمة له.
- المرحلة الثالثة: ما بين 1908-1909 تخلى فيها بوحمارة عن أهم دعائم ثورتــه وهــي المتمثلة في فكرة الجهاد، والتعاون مع الأجانب خاصة الإسبان، مما جعل قبائــل الريــف تنقلب عليه.

بتخلي بوحمارة عن فكرة الجهاد التي كانت من أهم عوامل انضمام قبائل الريف إلى حركته، وتعاونه مع الإسبان من خلال بيعه حق استغلال حديد أكسان للإسبان مما جعل الريفيون ينقلبون عليه، خاصة بعد الإنهزام أمام قبيلة بني ورياغل في شتنبر 1908م. لكن المثير أن رجال قبيلة بني ورياغل لم "**يعبروا نهر النكور، بعدما هزموا جيش أبي حمارة ولم يطاردوه خوفا من مكايد تحاك لهم في الخفاء، لذلك لم يشاركوا في الزحف على سلوان مقر أبي حمارة، مع من زحف من القبائل المذكورة مع الشريف**"[308]. ومن هذه القبائل التي التفت حول الشريف محمد أمزيان لمحاربة بو حمارة نجد: تمسمان بني توزين، تفرسيت، بني اولشيك، بني سعيد، امطالصة، بني سيدال، مزوجة، بني شيكار، بني بوغافر. ويمكننا ملاحظة أن بعض القبائل التي كانت في صف بوحمارة قد انقلبت عليه وانظمت إلى جيش الشريف، الذي وفدت عليه أيضا بعض القبائل الأخرى التي لم تكن خاضعة للفتان. وفي الجهة المقابلة نجد بعض القبائل الأخرى التي كانت خاضعة لبوحمارة قد ظلت معه مثل قائد بني بويفرور ومعه فرقة من قبيلته ظلت تحارب بجانب هذا الأخير، وكانت قلعة سلوان تقع ضمن المجال الترابي لهذه لقبيله.

308- نفسه، ص 79

وكانت العادة أن يتم جمع القبائل بواسطة إشعال النار ليلا فوق قمم الجبال، فإذا رأت القبيلة نارا فوق قمم الجبال في القبيلة المجاورة تعلم آنذاك بوجود خطر يهددها، وأنها تستصرخها لتقديم الدعم والمساندة ضد هذا الخطر[309].

بعد اكتمال اجتماع رجال الريف والتفافهم حول الشريف محمد أمزيان، أصبحت سلوان مقصد هؤلاء الرجال، فبعد ما كانت فيما سبق مركز انطلاق الجيوش لمهاجمة قبائل الريف والجيش الحكومي، أصبحت الأن مقصدا لجيوش أهل الريف اللذين " **أحاطوا بقلعة سلوان غربا وشمالا وجنوبا، وكانت الحروب تدور رحاها بين نواحي تنيمرت[تاويمة حاليا]الى بوسخان، تخرج غالبا فرق من فرسان أبي حمارة فتتلقاها فرق من أهل الريف فتشتد الحرب بين الفريقين"**[310]، أحيطت القلعة من هذه الجوانب ثلاث إطافة إلى أن الجانب الشرقي يحط به نهر سلوان مما سيجعلها تعيش نوعا من الحصار. وغير بعيد عن القلعة على بعد نحو ثلاث كيلومترات يوجد جبل بوغنجاين، كان رجال الشريف أمزيان يسيطرون على الجبل " **فإذا كان بيدهم سلاح جيد تصل قذائفه إلى قلعة سلوان وأخبية الجيش المحيطة بها فيلحقون بجيش أبي حمارة خسائر فادحة في الأرواح والدواب ... ومن كان فوق ذلك الجبل يكون مسيطرا على قلعة سلوان إن كان بيده سلاح تصل قذائفه إليها"**[311]. هكذا تمكن رجال الريف من حصار جيش أبي حمارة وشل حركته حتى داخلوا القلعة بواسطة القذائف التي كانوا يرسلونها انطلاقا من قمة الجبل المذكور.

بسبب هذا الحصار تمكن رجال الريف من هزم جيش بو حمارة الذي كان يقوده العبد الجيلالي، وبسبب توالي هزائمه " **لم يرى بوحمارة بدا من مغادرة قصبة سلوان، لما ضايقه رجال تلك القبائل وشدوا عليه الخناق والحصار من جميع الجهات، حذرا واحتياطا من أن تنتشر**

309- نفسه، صص 79.82

310- نفسه، ص 85

311- نفسه ،ص 85-86

الثورة عليه إلى القبائل التي تقع بين قصبة سلوان وتازة، والتي كانت لا تزال خاضعة له، حتى لا تسطو عليه تلك القبائل فتفتك به وتدوسه بالأقدام"[312]**.** بعدما استمرت سلوان عاصمة لبوحمارة ومركزا لقيادته انتهت هذه المرحلة في أواخر 1908 بعد مغادرتها، فتوجها نحو تازة إثر فقدانه الأمل في إعادة السيطرة على قبائل الريف مرة ثانية.

بعد خروج بوحمارة من سلوان وتمكن المحاصرون منها ترددوا أول الأمر في الدخول إليها خوفا من أن يكون بوحمارة قد حاك لهم مكيدة(فخا) أو وضع ألغاما داخلها. لكن فيما بعد دخلوا إليها وقاموا بتخريب بعض منشأتها، خاصة بناية كان قد بناها داخل القلعة وسماها مولاي إدريس[313]، لذا يرجح أن يكونوا قد غيروا بعضا من معالمها نتيجة هذا التخريب.

اذا كان الدارس لقلعة سلوان خلال مرحلة الجيلالي الزرهوني يركز على ما هو عسكري باعتبارها مركزا لجيوشه، فإننا لا يمكن أن نهمل باقي الأدوار الأخرى التي اضطلعت بها، خاصة ما ارتبط بالجانب الاقتصادي والمالي. فمن اجل ضمان تموين الجيش في معاركه سواء ضد الجيش الحكومي أو ضد القبائل فرض بوحمارة "**المكوس على الأسواق"**[314]، وبدون شك أن سلوان (العاصمة) كانت مركز جمع هذه الضرائب من مختلف مناطق "سلطنته"، و لتسهيل عملية جمع الضرائب والمعاملات النقدية فكر في إحداث بنك وعملة خاصة به، وقد منح حق إنشاء هذا البنك للأجانب (حصل على حق إنشاء البنك الفرنسي الفريد ماصييني)، وأن يقوم بإنشاء هذا البنك ودار السكة بالجوار من ديوانة مزوجة.[315]

منذ 1905 سيبرز لنا دور جديد قامت به قلعة سلوان وهو استقبال الزرهوني للفرنسين بها في اطار التحضير لإنشاء الوكالة المحمدية بمنطقة الريستينكا[316]، وقد أنشئت هذه الوكالة في

312-المنهال في كفاح أبطال الشمال، م. س . ص 37

313- الكشف والبيان، م. س، ص 89

314- إسبانيا والريف والشريف محمد أمزيان، م. س. ص 70

315- إسبانيا والريف والشريف محمد أمزيان، م. س. ص 356

316- هي المنطقة المعروفة حاليا بالجزيرة والفاصلة بين بحيرة مارتشيكا والساحل المتوسطي.

البداية " **باعتبارها مؤسسة تجارية بحته، والتي تحولت إلى مركز للذخائر لقوات الزرهوني، لعبت نتيجة لذلك دورا اقتصاديا بالغ الأهمية لفائدة سلطنة الزرهوني. كما أصبحت بمثابة العاصمة الاقتصادية له"**[317]، هكذا شكلت هذه العاصمة الاقتصادية نقطة لانفتاح سلطنة الروكي على الخارج خاصة في ما يتعلق بمسألة التهريب، كما أننا نتصور بأنها كانت في اتصال مستمر مع العاصمة السياسية (سلوان)، التي كانت تصدر منها الأوامر والقرارات. إلا أن أهداف بوحمارة لن تستمر في التحقق بفعل تدمير هذه الوكالة من قبل الجيش العزيزي الذي أرسل الباخرة المسماة "التركي"، وتمكنت مدفعيتها من تدمير الوكالة بشكل نهائي في 28 شتنبر 1909م، لكن بعد ذلك ستسيطر إسبانيا على المنطقة وتجعل منها معسكر لقواتها.

ثانيا: سلوان خلال مرحلة مقاومة الشريف محمد أمزيان

تمكن رجال قبائل الريف من استعادة سلوان بعد توحيد صفوفهم بقيادة الشريف محمد أمزيان ورفيقه في الكفاح عمر المطالسي، من يد الفتان بوحمارة في سنة 1908، إلا أن فرحتهم لم تدوم طويلا بعدما بدأت إسبانيا هي الأخرى تستهدف السيطرة على بعض مناطق الريف، فوجهت أنظارها نحو تراب قبيلة قلعية ومعها منطقة سلوان، وفي هذه الأثناء كانت قصبة هذه الأخيرة تلعب دور جد مهم، حيث استغلت من قبل حركة المقاومة كمركز لتنظيم المقاومة ضد المشروع الاستعماري الرامي إلى التقدم في اتجاه قلعية، انطلاقا من معسكر الريستينكا ورأس الماء بسبب عجز الإسبان عن تجاوز أراضي مزوجة[318] لقوة المقاومة، مما جعل إسبانيا تتبع من أجل الوصول إلى مبتغاها "**خطا حربيا دائري مجزأ إلى معقوفتين: يبدأ الجزأ الأول من المخطط باجتماع قوات مركز الريستينكا فكبدانة وأولاد ستوت، بالجنوب والجنوب الشرقي، رأسه متجه نحو قصبة سلوان من جهة الجنوب الشرقي، مرورا بقرية أربعاء أركمام"**[319].

تفطنت حركة المقاومة لهذا المشروع الاستعماري، مما جعلها تستعد بقصبة سلوان لدفاع عنها ودفع الخطر الإسباني الذي يهددها، ومن أجل ذلك حشدت بالقصبة" **فرقة من المشاة بلغ عددها 1500. ومن القصبة أشرفت على تنظيم مقاومة شمال قلعية من محرس عين**

317- إسبانيا والريف والشريف محمد أمزيان، م. س. ص 98

318- حسن الفكيكي: الشريف محمد أمزيان شهيد الوعي، شهيد الوعي الوطني (1908-1912).مطبعة ربا نيت، الرباط، 2008. ص 194

319- نفسه ،ص 181-182

برحال[320،321]، وهكذا أصبحت القلعة مركزا لتنظيم المقاومة في منطقة كبدانة، ومراقبة زحف قوات الإحتلال الإسباني في اتجاه سلوان انطلاقا من معسكر الريستينكا مرورا بأربعاء أركمام.

رغم هذا التنظيم والخطة الإستباقية للمقاومة لوقف القوات الإسبانية، إلا أن هـــذه الأخـــيرة تمكنت من التقدم نحو سلوان، ويرجع اهتمام الإسبان بها لموقعها المتميز الذي يمثل حلقة وصل بين بني بويفرور من جهة وأولاد ستوت من جهة ثانية، وكذلك الشأن بين سبخة بوعرك وبني بويحي، إضافة إلى عامل حصانة قلعة سلوان ورغبة الإسبان في استغلالها، وهذا ما جعلهم يولون اهتمـــام بالغ الأهمية لإحتلالها، وتمكنوا من السيطرة عليها فعلا في 27 شتنبر 1909. وتم احتلالهـــا **"لأن الريفين لم يقدروا على طردهم منها رغم الحملات الجهادية التي قاموا بها تحت قيادة الشـــرف محمد أمزيان"**[322]. ومنذ هذا الوقت أصبحت سلوان خاضعة للإســـبان، واتخـــذت قاعـــدة في توسعاتهم في اتجاه باقي المناطق الأخرى، مثل ثنيمرت (تاويمة حاليا) وبني بويفرور... وخاصة جبل أكسان الذي كان الهدف الأهم لقوات الاحتلال.

صورة تؤرخ لاحتلال الإسبان لقلعة سلوان واتخاذها قاعدة لهم
بعد التغلب على المقاومة الريفية خلال شتنبر 1909



320-محرس عين برحال يقع جنوب قصبة سلوان على بعد 4 كيلومترات منها، وهو يوجد بالقرب من الموقع الحالي لكلية الناظور. : الشريف محمد أمزيان، م. س. ص 194

321- الشريف محمد أمزيان، م. س. ص 193

322- بوحمارة من الجهاد إلى التآمر، م. س. ص 45

كنا قد تحدثنا سابقا عن أهمية تل بويغنجاين المجاور للقلعة، وأن المتحكم فيه سيجعل القلعة تحت سيطرته، كما كان الشأن عندما حاصرت القبائل بوحمارة بسلوان في أواخر 1908م، فتفطنت القوات الإسبانية لهذا الأمر لذلك **"تسابق الغزاة إلى السيطرة على تل بويغنجاين"**[323]، حتى لا يستغله المجاهدون في قصف القلعة خاصة وأنه لا يبعد سوى مسافة ثلاث كيلومترات، فكانت القذائف التي ترسل منه تصل إلى غاية القلعة.

عملت حركة المقاومة في الفترة ما بين 1910-1912 على استعادة السيطرة على المناطق المحيطة بسلوان، سواء في اتجاه الناظور أو في اتجاه أزغنغان، وفي الطرف الثاني وجهت إسبانيا أنظارها اتجاه قبيلة بني بويحي، وفي 17 يناير 1912 انطلق الجيش الإسباني المكون من 20819 جندي، من سوق خميس بني بويفرور وقصبة سلوان وتمكنت من السيطرة على كدية عروات[324]، التي كانت إلى غاية هذا اليوم تحت سيطرة قبيلة بني بويحي.

ثالثا: سلوان خلال ثورة الريف الثانية

بعد استشهاد الشريف محمد أمزيان تمكنت إسبانيا من فرض سيطرتها على مناطق جديدة من الريف، ومن أجل تسهيل سيطرتها على مناطق الريف، ستقوم بإنشاء مطار بمحاذاة القصبة **"احتضن بدءا من منتصف شهر ماي 1914 طائرات من طراز نيوبور ف.اي. ام (nieuport V.I.M) والتي حولت من مطار تطوان"**[325]، وأصبحت سلوان خلال هذه المرحلة قاعدة خلفية للجيوش الإسبانية، وكان دورها الأساسي بعد إنشاء المطار يكمن في قصف مواقع المجاهدون بإستعمال الطائرات انطلاقا من مطارها لإضعاف قبائل الريف، وكذلك حتى لا تخسر اعدادا كبيرة من جنودها في المواجهات المباشرة مع الريفين. فعلى سبيل المثال تم **"يوم السبت الثالث**

323- الشريف محمد أمزيان، م. س، ص 200

324- كدية عروات وكانت تعرف بالاسم المحلي "تاعرورت ن ينسي" واسم عروات محول من اللفظ الأمازيغي المفرد تاعرورت، واقتبسه الإسبان وحولوه إلى جبل العروي Monte Arruit. الشريف محمد أمزيان، م. س، ص 359

325- إسبانيا والريف والشريف محمد أمزيان، م. س، ص 342

والعشرين [يوليوز **1921**] وفي عملية جمعت كل الطائرات الموجودة بادر فرنانديث موليرو[326] **بقصف ابن طيب**"[327]، هكذا حاولت إسبانيا إذا إضعاف أبناء الريف.

ولحماية المطار من أي هجوم محتمل "**خصصت إسبانيا ثلاث نواب و ثلاثة وأربعون جنديا انضاف اليهم ثلاثون فارسا من فرقة الكانطرا علاوة على ثلاث من الضباط وهم: الملازم مارتينيث بيبانكوس** vivancos Martinez، **الملازم الثاني ماروطو** Maroto، **ومارتينيث كانياداس** cañadas Martinez"[328]. وبالفعل فقد تعرض المطار عشية نفس يوم قصب بن طيب لهجوم من قبل الريفين للحد من القصف الجوي الذي تتعرض له مواقعهم، كما أنهم تقدموا في اتجاه الناظور ومليلية واستعادوا السيطرة على كوروكو (في 26 يوليوز) و فرضوا سيطرتهم على الناظور مرة ثانية، ثم على مطار سلوان بعد ذلك في 2 غشت مستغلين نقص الزاد والماء لدى الجنود الإسبان، وتمكنت المقاومة من وضع يدها على ما كان بالمطار، وخاصة الطائرات الخمس الموجودة به، أما القصبة فقد سيطروا عليها في اليوم الموالي الثالث من غشت بعد أن فقد الإسبان أكثر من 100 جندي.[329]

أدت هذه الهزائم المتتالية للإسبان موجة من التمردات في صفوف الشرطة الأهلية والمتعاونين مع الإسبان، وتحولوا إلى المشاركة مع المجاهدون في الدفاع عن وطنهم، بعد أن ولدت لديهم هذه الإنتصارات الريفية نوع من الحماس في نفوسهم وقوت لديهم شعور الدفاع عن وطنهم ودينهم، وكان هؤلاء "**الفارين من صفوف الجندية المنتمين للقوات النظامية المنحدرين من الجهة الشرقية**

326- فرنانديث موليرو: كان هو المهندس المسؤول عن الطائرات بمطار سلوان.

327- خوان باندو: التاريخ السري لحرب الريف (المغرب.. الحلم المزعج)، ترجمة سناء الشعيري. منشورات الزمن، مطبعة النجاح، الدارالبيضاء، الطبعة الأولى، 2008. ص 293

328- نفسه، ص 292

329- التاريخ السري لحرب الريف، م. س، ص 306

كانوا كثرا، لكن هروبهم هذا لم يكن من أجل العودة إلى دواويرهم، بل بهدف الإنضمام إلى الحركة التي تحارب الإسبان"[330]، والمقصود هنا بالحركة هو حركة المقاومة.

لم تكن سلوان في منأى عن هذه الأحداث التي ما فتئت تتزايد سواء في صفوف الشرطة الأهلية أو في الجنود النظامين، فمن "**بين سرايا الجنود النظامين المتمركزين في سلوان، تمردت السرية الثالثة يوم 24 يوليوز[1921]وفر منها حوالي مائة رجل بالخيول والسلاح"**[331]،وبهذا التمرد ستساهم سلوان في تقوية حركة المقاومة بالرجال وكذلك بالسلاح و الخيول، فأصبحت إسبانيا تحارب "برجالها" وأسلحتها، و لم يكن هذا التمرد مقتصر على سلك الجندية فقط، بل انتقل حتى إلى صفوف رجال التربية والتعليم، حيث تمرد "**فقيهين أحدهما ملحق بالمدرسة الأهلية بسلوان"**[332].

وفي الجهة المقابلة أثارت هذه الهزائم سخطا كبيرا جدا لدى الإسبان، مما جعلهم يعيدون تنظيم صفوفهم بسرعة ويعملون على استعادة الأراضي والمواقع التي فقدوها، فتم استعادة الناظور في 17 شتنبر ، ثم تنيمرت في 23 من نفس الشهر، وكوروكو في 10 أكتوبر، ثم بعد ذلك سلوان في 1923. وبسبب استعادة الإسبان "**السيطرة على سلوان عمت الفرحة بشكل كبير كل أرجاء إسبانيا. ولم تكن مليلية في منأى عن هذه البهجة التي عمت البلاد"**[333]، وفرحة الإسبان باستعادة سلوان دليل أخر على مدى أهميتها مقارنة مع باقي المواقع الأخرى، بالنسبة للإسبان ومشروعهم الاستعماري في شمال المغرب.

وبالعودة إلى الطائرات التي استحوذ عليها الريفيون بمطار سلوان، والتي كان عددها أربع طائرات في حالة جيدة وطائرة واحدة لم تكن جاهزة للاستعمال، فقد قام الريفيون بإحراقها

330- ماريا روسا ذي مادارياكا: محمد بن عبد الكريم الخطابي والكفاح من اجل الاستقلال، ترجمة وتقديم: محمد أونيا، عبد المجيد عزوزي، عبد الحميد الرايس. منشورات تيفراز، مطبعة النجاح الجديدة، الطبعة الأولى 2012. ص 223

331- المكان نفسه،ص223

332- نفسه، ص 222

333- التاريخ السري لحرب الريف، م. س. ص 378

بسبب بقاءها بدون طيارين[334]، وأحرقوها حتى يحرموا الإسبان من إعادة استعمالها مرة أخرى ضدهم، ولا نعلم إن كانوا قد الحقوا أي ضرر بالمطار.

بدءا من 1923 ستلجأ إسبانيا إلى أسلوب جديد في مواجهتها للريفين بسبب عجزها في تحقيق انتصارات مهمة أمامهم، ويتمثل هذا الأسلوب في اللجوء إلى استعمال الغازات السامة لتعويض هذا العجز ولإيقاف الريفين، وكذلك لإخراج الجنود الإسبان من حالة اليأس التي أصابتهم بعد الإنهزام في العديد من الواقع: جبل العروي، الكبداني، الناظور، أنوال، سلوان،... على الرغم من أن الاتفاقيات والمواثيق الدولية تحرم استعمال هذه الغازات (مثل اتفاقية لاهاي الموقعة ما بين 1899-1907، ومعاهدة فرساي 1919 والتي وقعت عليها إسبانيا)، فمباشرة بعد الهزائم التي تلقاها الجيش الإسباني في1921 بعد ملحمة أنوال، سيتم التفكير في استعمالها، إذ في **"يوم الثاني عشر من غشت [1921] جرى اتصال تلغرافي أخر بين كل من الوزير ايزا و برنكر[المقيم العام]"**[335]واتفق الطرفان على استعمال الغازات السامة، وإن لم تستعمل في حينها بل إلى غاية 1923.

وخلال " **يوليوز 1926 كان المطار الوحيد المعتمد لتلك العمليات [القصف الجوي لمواقع المجاهدون]في منطقة سلوان"**[336]، فقد ساهمت سلوان بواسطة مطارها في قصف قبائل الريف خلال 1926، بل كان مطارها هو الوحيد المستعمل من الإسبان في ذلك الأمر بعد مطار مليلية.

رابعا: أهمية سلوان في المشروع الاستعماري الإسباني

احتلت سلوان مكانة جد هامة في المشروع الاستعماري الإسباني بمنطقة الريف، نظرا لموقعا المتميز وسط كنفدرالية قلعية من ناحية ومن ناحية أخرى قبيلة بني بويحي وأولاد ستوت، فبادرة

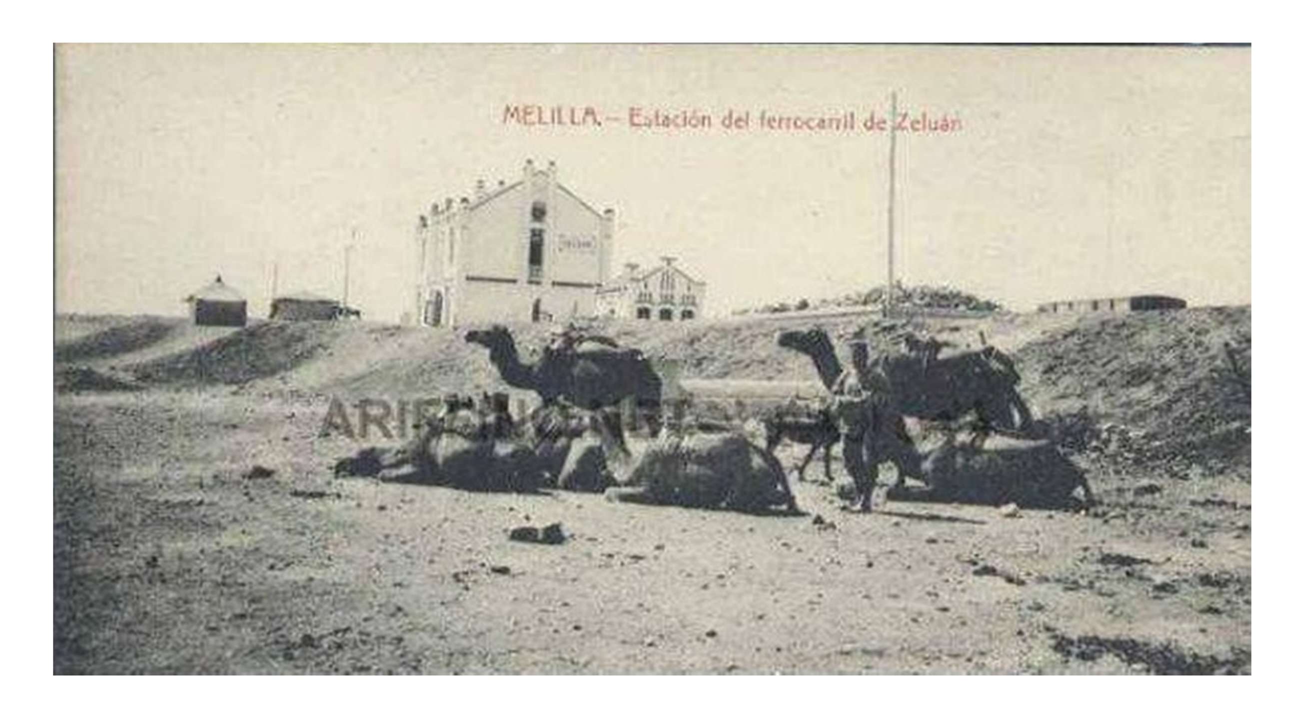
334- نفسه. ص294

335- أرشيف مؤسسة انطونيو ماورا: المجموعة442/9، نقلا عن: التاريخ السري لحرب الريف، م. س ،ص319

336- ماريا روسا دي مادارياغا: مغاربة في خدمة فرانكو، ترجمة: كنزة الغالي. منشورات الزمن، مطبعة النجاح الجديدة، الدارالبيضاء،2006. ص 37

الإدارة الاستعمارية إلى وضع بعض البنيات والتجهيزات الأساسية، بإنشاء محطة للقطار بسلوان بدءا من سنة 1911 ومثلت نقطة وصل بين الناظور وجبل العروي.

صورة لمحطة القطار بسلوان



ومن أجل تدريس أبناء الموظفين الإسبان بالمراكز التي كان يستقر بها عدد مهم منهم إضافة إلى أبناء الأعيان، بادرة إسبانيا إلى توفير المؤسسات التعليمية بهذه المراكز " **فإلى حدود سنة 1916، أنشأت الحماية الإسبانية بالمغرب الخليفي مدارس إسبانية بأحد عشر منطقة مختلفة: العرائش وأصيلة وتطوان والقصر الكبير والحد بني شكار، وجبل العروي والناظور والمضيق وسلوان وواد مرتين وجامع الطلبة"**[337]، وإنشاء إسبانيا لمدرسة بسلوان دليل أخر على الأهمية التي احتلتها سلوان لدى الإسبان، وكذا على حجم الإسبان القاطنين بها من موظفين وعمال ومتعاونين معهم.

337- خالد بويقران: الاستعمار الإسباني بالمنطقة الخليفية: بين اليات التدخل ومخطط الهيمنة 1912- 1956.مطبعة الرباط نت،2015. ص 124

وبدون شك فإن التوفر على هذه المنشآت سيؤدي إلى ظهور نواة مركز حضري بسلوان، الذي سيصبح من أهم المراكز في إقليم كرط خلال فترة ما بعد 1926، متفوقا في ذلك على مراكز أخرى مثل قرية أكمان، وزايوا، وجبل العروي، كما هو واضح من خلال الجدول التالي:

حجم الساكنة ببعض المراكز الحضرية خلال سنة 1940[338]

المركز الحضري	مجموع السكان	الإسبان	المغاربة المسلمون	المغاربة اليهود
الناظور	8826	5978	2367	457
ازغنغان	975	773	117	66
سلوان	557	398	156	3
زايوا	365	222	33	110
جبل العروي	501	319	148	26

يتضح لنا انطلاقا من هذا الجدول ارتفاع عدد سكان سلوان مقارنة مع باقي المراكز ، فلم يتفوق عليه سوى الناظور وازغنغان، كما يتضح أيضا حجم الإسبان القاطنين بها، حيث مثلوا حوالي 71 % من مجموع ساكنة سلوان، وهو ما يفسر إقدام الإدارة الإسبانية على إنشاء مدرسة بهذا المركز.

خلاصة

كان لسلوان وقصبتها إسهام كبير في تاريخ الريف والمغرب بشكل عام منذ تأسيسها، ولعبت أدوارا متعددة اختلفت من مرحلة إلى أخرى حسب ظروف ومميزات كل مرحلة، لكـــن يبقـــى الدور العسكري هو البارز أكثر من بين هذه الأدوار، خاصة في بداية القرن العشرين حينما كانت عاصمة لجيلالي الزرهوني أثناء تمرده، وستسمر هذه الأهمية بعد ذلك في فترة مقاومة الشريف محمد أمزيان وأيضا خلال مرحلة الحماية الإسبانية، لذلك منحت إسبانيا أهمية بالغة لسلوان في سياستها

[338] - Mimoun aziza : la sociedad rifeña frente al protectorado español de marruecos[1912-19156] ; Edicions bellaterra ; barcelona ;2003. P207

التوسعية، لموقعها الجغرافي وكذلك لاستغلال قلعتها الحصينة، إلا أن هذه القلعة والمنطقة ككل ستتأثر بهذه الأحداث، كما أثرت هي الأخرى في مجرياتها، وهو ما سيترتب عنه بداية تشكل نواة حضرية مع نهاية فترة الحماية الإسبانية.

بـبـلـيـوغـرافـيـا

- بويقران خالد: الاستعمار الإسباني بالمنطقة الخليفية: بين اليات التدخل ومخطط الهيمنة 1912-1956.مطبعة الرباط نت،2015.
- باندو خوان: التاريخ السري لحرب الريف (المغرب.. الحلم المزعج)، ترجمة سناء الشعيري. منشورات الزمن، مطبعة النجاح، الدارالبيضاء، الطبعة الأولى، 2008.
- الخلوفي محمد الصغير: بوحمارة من الجهاد إلى التآمر: المغرب الشرقي والريف من 1900 إلى 1909م.دار المعرفة، الرباط، 1993.
- ذي مادارياكا ماريا روسا: محمد بن عبد الكريم الخطابي والكفاح من اجل الاستقلال، ترجمة وتقديم: محمد أونيا، عبد المجيد عزوزي، عبد الحميد الرايس. منشورات تيفراز، مطبعة النجاح الجديدة، الطبعة الأولى 2012.
- ذي مادارياغا ماريا روسا: مغاربة في خدمة فرانكو، ترجمة: كنزة الغالي. منشورات الزمن، مطبعة النجاح الجديدة، الدارالبيضاء،2006.
- الفكيكي حسن: الشريف محمد أمزيان شهيد الوعي، شهيد الوعي الوطني (1908-1912).مطبعة ربا نيت، الرباط، 2008.
- اللوه العربي: المنهال في كفاح أبطال الشمال، مطبعة ديسبريس، تطوان،1982.
- الورياشي العربي: الكشف والبيان عن سيرة بطل الريف الأول سيدي محمد أمزيان. مطبعة المهدية، الطبعة الأولى، تطوان 1976.
- اليشوتي رشيد: إسبانيا والريف والشريف محمد أمزيان 1909-1912. منشورات المعهد الجامعي للبحث العلمي، الرباط،2011.
- Aziza Mimoun : la sociedad rifea frente al protectorado español de marruecos[1912-19156] ; Edicions bellaterra ; barcelona ;2003.

قضايا التاريخ البحري





التاريخ البحري



عمر عمالكي

باحث في التاريخ المعاصر

تبعا لمشروعنا الفكري في حقل التاريخ الذي يتمحور حول السياسة البحرية للمغرب عبر التاريخ، هذا المشروع الذي انطلق منذ سنة 2006/2003 برحاب جامعة محمد الخامس، تماهيا مع محاضرات الاستاذ عبد الاله الدحاني، هذه المحاضرات التي ألقيت على مسامع طلبة وحدة البحث والتكوين؛ المغرب وأوروبا التي انشأها الاستاذ الكبير عبد المجيد القدوري. شدتني إليها شدا وحملتني وانا ابن الجنوب الشرقي للمغرب الذي نافح أفق عيني منذ الصغر الاطلس الكبير، ولم تكن لي من صلة بالأمواج وهدير البحر ولا سابقة عوم فيه. إلا ما كان من مشاهد تلفزيونية أو عبر أحاديث تروى التي يسمر بها قومي. وأعلم تحديد أن أول لقاء لي بالبحر إنما كان سنة 1992

كأول خروج لي جهة الساحل وكان ذلك على ساحل الرباط المحيط وسلا . ثم بحر الدار البيضاء في نفس العطلة. ولما انتهينا من الدراسة الثانوية وحملتنا الاقدار إلى جامعة ابن زهر باكادير كان البحر أفضل أماكن اللعب والاسترواح لي . ومنه حاولت الاطلاع على بعض الكتابات خاصة ابن خلدون الذي مجد البحرية المرابطية و الموحدية، وجهادهما في الاندلس. صحيح أن البحر ظل مهمشا ضمن اهتمامات المجتمع المغربي، وكانت علاقة المغاربة بالبحر محدودة حتى في زمن توفر السلطة المركزية على أسطول حربي. وقد أمنت أنه "لا يمكن الحديث عن تطور علاقة المغاربة بالبحر في غياب إدماج هؤلاء في المجال البحري، وانخراطهم في التطورات التي لحقت بالمنافع التي يوفرها هذا المجال"[339]. مما يجعل التأريخ للبحر وأنشطته المتسلسلة ضربا من ضروب اقتحام المجهول الذي لا يستقيم على خط واضح مسلكه. بل هو خوض في مواضيع بلا مواطن أو بتعبير ابراهيم حركات" إن من يتحدث عن البحر يفكر في الصراع وفي التحدي حيث يجب النضال من أجل الخير والتحدي من اجل النجاح"[340].

وإذا ما توسلنا بالمعرفة الموسوعية، فإننا نجد في المعجم الفرنسي تعريف للتاريخ البحري على أنه : التاريخ البحري يعني تاريخ كل ما له علاقة بالبحر والبحرية والبحارة، وعادات الشعوب تجاه البحر، والطقوس الغرائبية ، هو تاريخ كل ما يلامس وما له علاقة بالبحر وقد ظهر الاهتمام به خلال القرن19م وولد في وسط جذاب من الربابنة والضباب مختلفي الأهواء، والارتباط بتاريخ السفينة والطرق البحرية، وقد عرف تاريخ البحر نهضة جديدة بإشكاليات جديدة ناقشها الاقتصاديين وعلماء الاجتماع والانثربولجيا، والعقليات. وتاريخ البحر هو حقل واسع للبحث، وهو فرع من فروع التاريخ العام[341] . ويبدو أن التطورات المتلاحقة في الفضاء البحري للمغرب تحمل الكثير من الاحداث الوازنة نظر لموقعه في خطوط الملاحة الدولية وتواجده على رأس متقدم وحيوي بالنسبة للقارة الافريقية في علاقتها مع الاوربيين .الذين اراد التغلب على الملاحة والبحرية المتوسطة، حتى عاكستهم فيه الارادة الاسلامية، ويمكن الحديث عن هذا التنافس على اساس تكوين الامبراطوريات واستعراض القوة، خاصة وان العثمانيين على خلاف سابقيهم من المسلمين العرب والبربر الذين كانوا مهتمين بالدرجة الاولى بالحصول على اراضي المسيحيين

[339] محمد المهناوي، المغاربة والبحر خلال القرن السادس عشر،(ص ص 19-33) في، البحر في تاريخ المغرب، تنسيق رقية بلمقدم، جامعة الحسن الثاني المحمدية. سلسلة الندوات رقم 7..سنة 1999، ص29 .

340) ابراهيم حركات ، والمغاربة والبحر، طبعة عكاظ.1998، ص7

[341]) André burguier ; **Dictionnaire des sciences historiques**, presses universitaires de France. Paris 1986, p438/439.

على الشواطئ المقابلة للبحر الابيض المتوسط .لما اعتمد بني عثمان القضية الدينية كمحرك يغلف القضايا والاطماع الاخرى ورفعوا لواءه. إذ الواجب العثماني كان يتضمن في المقام الاول استرجاع موانئ الشمال الافريقي المحتلة من طرف اسبانيا كأجزاء من بلاد الاحلام التقليدية ومثلها الجزر الحامية مثل جربة وكان تشكيل جيش بحري فعال ليضاهي في البحر النجاح المطرد لجيوش البر العثمانية[342]. بالنسبة للمغاربة يشكل البحر ثروة ثقافية بالإضافة إلى موارده المادية فالمغامرات التي وصفها الرحالة وأغاني الصيادين في غمار البحر والشعر المستوحى من الحروب البحرية ومن حركة الاساطيل كلها شهادات تعبر عن دور البحر في التكوين الثقافي والعلمي والذي لا يخلو من اثر نفسي واخلاقي على الفئات المعنية[343]. يغطي التاريخ البحري جميع جوانب العلاقة البشرية مع البحر بروابط أوسع من التاريخ الاقتصادي والسياسي والثقافي والاجتماعي، وتشمل جوانب كثير منها:

الشحن وبناء السفن، سواء الحربية والتجارية؛ والتبادل التجاري؛ الصيد؛ الصناعة البحرية؛ وقوى العمل؛ وتشيد الموانئ واستكشاف حياة المجتمعات الساحلية والحصول على أكبر قدر من " انتاجهم و سلوكاتهم وعاداتهم ودينهم وسياستهم ولغتهم"[344] ومرامي السياسة البحرية المتبعة من قبل القوى الاوربية لاختراق الافاق وسبر أغوار الحضارات والشعوب؛ بما يحقق لها التفوق أو مراقبة نوع التقنيات التي تمتلكها شعوب السواحل في افريقيا والشرق الاقصى، ووضعت نصب عينيها الحرب الاستباقية والتجسس. دون الاستخفاف بالأخر. الذي وجب رصد تحركاته ومعرفة جميع مقومات قد تبعثه من جديد، ووظفت سربا من الباحثين الذي راموا "إغناء بلدهم الاصلية بقدر من المعرفة المحصل عليها من اولئك الذين لم يتم التعرف عليهم إلا حد الآن[345]. وعلى خلافها لن نبلغ مبلغ التاريخ البحري الأوربي ما لم نتصالح مع الماضي ونبعث فكرة الانطلاق والتفوق واستعادة أحقية وسبق الاهتمام بالبحر[346]. ويركز هذا المقال على التاريخ البحري منذ القرن 17 إلى منتصف الفرق 19، بهدف التركيز على فكرة اهتمام الجانب المغربي بالتاريخ والشؤون البحرية، كما يسعى إلى تطوير مهارات الجامعيين في البحث التاريخي. لا سيما تلك التي

342) وليم سيبنسر، الجزائر في عهد رياس البحر. ترجمة عبد القادر زيادية. دار القصبة للنشر. الجزائر. ص 9.مقدمة المترجم

343) ابراهيم حركات . المغاربة والبحر ،مطبعة عكاظ.الرباط1998،ص3.

[344]) Captain Cooks, Voyages, 1768-1779(later voyages) selected and introduced by Glyndwr Williams. ed ‹Williams‹ London ,folio society,1997 . p 3.

[345]) Captain Cooks, Voyages, 1768-1779(later voyages) op cit, p2.

[346]) عمر عمالكي، الكتابة التاريخية بالمغرب، عبد المجيد القدوري نموذجا. مقالة في الكتابة التاريخية بالمغرب.

لها كبير الأثر على مصلحة الوطن أو ابراز العلاقات والادوار والوسائل الموجودة في الماضي؛ وتشكلت حولها بنمطية القابليات الأكثر حداثة في الأنشطة البحرية اليوم، ومدى تنبه المرتفقين والمدبرين ثم الباحثون المهتمون بتعميق وتوسيع معارفهم والتحقيق في المشاكل من خلال البحوث الفردية أو التي أنجزت في الجامعة المغربية. بل لمسعى المقاربة السياسة للأنشطة البحرية والتي بلغت درجة قصوى في الانضباط تاريخيا. أو تمتعت بصلة واسهمت في تطوير الخبرات البحرية اليوم، وقد ينفتح المجال أمامنا إذا ولينا وجهتنا نحو الحاضنة التاريخية. إذ يعتبر الفكر التاريخي جزء اساسي من ثقافة أية أمة حريصة على بناء مستقبلها ضمن قيمها الخاصة. ولا يكون ذلك إلا باستحضار مجريات الماضي في المقاربة الآنية والمستقبلية ولها نستحضر قول سارتر عن التاريخ فهو "الفعل المعتمد في إعادة خلق الماضي عن طريق الحاضر"[347]. هذا هو العلاج اللصيق بالوعي التاريخي الذي يدخل فكرة الزمن في دراسة المبادئ فيتضح التمايز بين المثل و المثال. والمقومات والوسائل باعتبارها مجرد عناصر تخدم القضية المركزية للامة وتوسع مدركاتها العقلية والمعرفية فتنفتح ابواب التقييم الصحيح للماضي[348]. وبالمقارنة تظهر الصور. فمن الواضح أن البحار تكتسي أهمية كبيرة في حياة وذهنية الانسان الاوربي. وقد استخدمت اوروبا البحر كوسيلة لإقلاعها الاقتصادي والاجتماعي حيث عملت على نمو صناعتها المدنية والعسكرية المرتبطة بمجال البحر[349]. فالعثمانيون استعملوا القوة ليملكوا الزعامة في العالم الاسلامي وليكسبوا ولاء وخدمات ضباط البحر المسلمين من جميع اطراف البحر الابيض المتوسط. وإنه من خلال تدخل مادة عقيدة هي الجهاد فإن مهمة القرصنة الشريفة في القديم قد أصبغ عليها طابع شرعي[350] بينما عد البحر عند الاوربي قضية معرفية واقتصادية ثم سياسية وطرح السؤال في الاوساط اوربية عن ما هو البحر ليخلصوا إلى الجواب التالي: " البحر هو المصدر الاول للكون وللحياة وهو بمثابة الحاضنة الكريمة (السخية) فوق الارض بكل المنافع ما دام الانسان لم يؤثر في توازن هذا الاخير"[351].

هذه النبذة عن البحرية المغربية قد تسمو إلى معرفة مستقلة لدراسة أكثر اتساعا- ودون ان نغفل بعض مظاهر التطور القائمة والمرتقبة- نشير بإيجاز الى بعض التحولات الصعبة التي عرفها تاريخ

---

[347]) Jean Paul Sartre, literary and philosophical essays, new York, collier books1962.p206.

[348])عمر عمالكي، ميناء طنجة من سنة 1684-1856، خاتمة الأطروحة.

[349]) عبد المجيد القدوري، البحر في المتخيل المغربي، منشورات عكاظ الرباط، 1998،ص5.

[350])وليم سيبنسر، الجزائر في عهد رياس البحر، نفسه ، ص 11.

[351]) Michelet (J). la mer qui commença la vie sur le globe en Serait Encore la bienfaisante nourrice si l'homme savait seulement Respecter l'ordre qui Règne et s'abstenir de la Troubler.

المغرب البحري، هذا التطور الكبير في التصورات المغربية والتي جعلت البحر والسواحل متاهة من المتاهات الاجتماعية وسياسية. اخت تتراءى من افق بعيد متجاوزة نظرة بحر الظلمات إلى مجال التواصل مع النصارى أعداء الدين. إلى سوق للتزود بالمؤن والحاجيات وطريق الحج السهل. وفضاء التلاقي ثم مكان استعراض القوة ورفع التحدي. ثم فضاء بخصوصيات محددة وسلوكات جديدة. ولقد شكل البحر منطلق الالهام عند المؤرخ الفرنسي فرناند بروديل وهو أحد العناصر التي غيرت بعمق اساس تفكيره كما يقر بذلك "لم اتمكن إذن الا في وقت متأخر من أن أشق طريقي نحو التاريخ الجديد المنفصل عن التاريخ التقليدي. أظن أن مشهد البحر الابيض المتوسط كنظرة من الضفة الاخرى(الجزائر) من الخلف قد ساهم إلى حد بعيد في بلورة تصوري للتاريخ"[352] وتفتقت الافكار بالخروج عن المألوف إلى ما وراء أوربا. التي تشهد حوادث وترتبط بمظاهر غريبة وبطقوس وعادات شكلت محط تساءل للمؤرخين، هذه السلوكات والتطورات الطارئة احتضنتها أماكن حساسة. فالميناء يؤشر على الدينامية الوطنية وتفاعلها مع المجال البحري، وتعززت هذه الحركية والحيوية عبر الزمان والمكان والذي يحدد بنفسه مجموعة من العلاقات والخدمات والوظائف التي صنفت في الرتبة الثانية أو الثالثة وأضحت اليوم في الواجهة كخدمات أولية. بل إن هذه الخدمات نقلت النشاط الهامشي الذي قبع فيه المجال البحري إلى أرحب الافق وادمجه في قلب التحولات الدولية والمحلية[353]. ويبدو أن هذه الاهمية لم يكسبها من فراغ بل تأتت له بعدما اعترف له كل المرتفقين والساسة بها، لما له من ايجابيات واستظهر به السلاطين في معاركه والتجار لتنمية الارصدة المالية وانقذت به البلدان من عوائص الازمات. "يعتبر البحر من أهم اسباب التنقل ومن افضلها للاتصال بين الشعوب والحضارات منه نستخرج ثروات متنوعة دون أن نبذل جهد الحرث أو البذر او الغرس"[354]. لكن منافع البحر وأدواره وتدبيراته أخذت في النمو المتواصل جيلا بعد جيل وبرزت عندما شرعت أوربا في غزو البحار والمحيطات وتسببت هذه الحركية والسيطرة على العقليات بالمجال البحري المغاربي والمغربي على وجه الخصوص. فانبرى ثلة من الرياس السلاطين والفقهاء في التنظير وسن اوفاق لمواكبة التطورات البحرية وتنظيم السواحل[355] إذ حتى أن ابراهيم التادلي قدم نصائح للمغاربة المتوجهين عبر البحر. " إذا سافرت

---

[352])Fernand braudel. Ma formation d'historien. In Ecrits Sur l'histoire **II**. paris edition. Arthaud.1990.pp 9.19.

[353]) عمر عمالكي، ميناء طنجة، ما بين 1684-1856، م س، راهنية العمل.

[354]) نجم الدين الهنتاتي، البحر وشؤونه في نظر علماء المالكية بافريقية وفي نظر زهادها إلى منتصف القرن 5 والحادي عشر الهجري. البحث العلمي مجلة العلوم الانسانية والاجتماعية ، البحر والبيئة في الثرات الاسلامي والمسيحي، ع 46،سنة 1999. ص ص 48-66.

[355]) ساهمنا بمقال الواجهات البحرية المغربية ، دور الرياس والرحالة في التعريف بأهمية هذه المجالات، في العدد الثاني من هذه المجلة.

في البحر اليوم لا تركب البابور حتى تأخذ من وكيله في البلد الذي أنت فيه ورقة مكتوب فيها بالقلم العجمي اسمك وقبض كرائك ومنزلك فيه[...] وقد تسمى تلك الورقة بالعجمي بصبرط أو بلس"[356].

ينبغي تقييم كل الملاحظات التي تدرس التاريخ البحري استنباطا من الأصول وبدايات محاولة المأسسة انطلاقا من الاشباه والنظائر من الغرب والشرق، بما يتأتى معه تنويع المعرفة وتوسيع دائرته نحو ميادين عدة، رغم أن ظاهرة البحرية العسكرية تطغى عليها باعتبارها مؤشر دخول المغرب إلى التاريخ المعاصر عنفا وقهرا، أو ظواهر لم يُعهد لها مثيل فيما قبل ولا بعد؛ ستُقرر مصيره المستقبلي المليء بالنكسات والانكسارات. حيث سيعرف المغرب عهد الاحتلال الشامل لأراضيه والاستلاب الثقافي والاقتصادي والحضاري لمعظم ضفافه بصفة عامة، فضلا عن اقتطاع أراضيه الشرقية والجنوبية، وضمها إلى مستعمرات فرنسا بالجزائر ظلما وعدوانا. وسيؤثر كل ذلك على بنيته الاجتماعية، وتنظيماته السياسية، واستقراره الجيو- سياسي، وعلاقاته بدول الجوار...إلخ. وأفرز هذا الوضع وبالملموس، فرقا شاسعا بين ضفتي البحر الأبيض المتوسط على جميع المستويات التقدمية الحضارية. وهو الفرق الذي مازال عميقا إلى الزمن الراهن. هذه الاحداث والظواهر الحتمية ستأتي تباعا في هذه الدراسة ضمن سياق التاريخ البحري المغربي عبر النبش في الموروث الثقافي الفقهي والمجتمعي ثم العسكري وفي مذكرات الرحالة والاستكشافيين أو عبر المقارنة التي تضع نصب عينيها نموذج البحريات الاوربية والصراع حول التجارة وتجارة البشر. هذا الامتداد المعرفي وتفرعاته التي ضمت عدة ميادين وتخصصات يعسر على المجهود المنفرد لأي باحث أن يستوعبها بدقة؛ بل لما تتكاثف جهود عدة باحثين يخوضون في شِعَبِ البحر حينها فقط ستنهض الثقافة والعلوم البحرية بهذه الربوع. فالبحر "نموذج منهجي في التحليل وخاصة المتصوفة والشيعة والسنة (الخفي أو المحفوف بالمخاطر أو المنطوي على الكنوز واللآلئ"[357] هذه المقولات التي تمت صياغتها والتوصل إليها قبل قليل جعلت المنظومة البحرية تخضع لعنصر التفكير الديني عند المسلمين ومادة في المسانيد والاصول الفكرية فهناك " أبواب كثيرة في كتب الحديث المتنوعة يحضر في سياقها كلمة بحر[...] مثل ما ورد في سنن الترمذي، باب ما جاء في غزو البحر. وباب غزو المرأة

---

[356]) ابراهيم التادلي الرباطي، زينة النحر بعلوم البحر، مجلة المناهل ع 52السنة 21 جمادى الاولى 1417- شتنبر 1997، وزارة الشؤون الثقافية. الرباط حسان. (ص ص 211-236) ص216

[357]) مهدية امنوح، البحر في التصور الاسلامي، البحث العلمي مجلة العلوم الانسانية والاجتماعية.ع46، سنة1999، ص ص،73-78.

في البحر"[358]. استطيع المضي قدما في ذكر مزيد من التفاصيل ولكني أود الان أن أضع امام الباحث جملة من التصورات و المواقف الغربية عن البحرية المغربية " المغاربة يديرون ظهورهم للبحر لأنهم يتجهون في صلاتهم نحو القبلة. خوفهم من البحر ظاهرة ثقافية و بعد ذهني...كان الأجانب هم الذين يتكلفون بكل ما يتعلق بالبحر". هذه المقولات استنفرت الاستاذ عبد المجيد القدوري لدحضها والبناء المتزن والتأصيل من أجل هدم هذه المواقف فاعتمد "مؤلفات مغربية ذات دلالات بين من خلالها ان المتخيل المغربي يتنوع ويتعدد بتنوع الظرفيات والمراحل ويختلف باختلاف تجارب الاشخاص والجماعات"[359] فالمتتبع للأنشطة البحرية وسياسة المغرب تجاه القوى البحرية، لا يمكنه سوى الاقرار بحقيقة اعتبار التاريخ البحري مبتدأ – الاحداث التي صنعت الكيان المغربي رغم هيمنت مدن الداخل والطرق الصحراوية كتافيلالت[360] مع استشراء نشاط القرصنة بقوة مباشرة بعد سقوط الحكومة المركزية، وتغلب قواد السواحل والأسر البحرية الثائرة وهذه جملة مؤشرات أو بواعث التاريخي. وسط الأمواج المتلاطمة من الأنباء والتحليلات حول القرصنة في السواحل المغربية، كتعبير عن ذلك النشاط الخارج على القانون والاقتصادي بامتياز، تختفي مجموعة من الحقائق والأحداث المتراكمة في ابعادها الزمنية الثلاثة، الماضية والحاضرة والمستقبلية، لكن ما يبعث على القلق تلك الدراسات والتقارير الدبلوماسية والتغطيات الإخبارية، والتحليلية منها، هو اللهاث المستمر خلف الضجة التي يحملها سوق الفداء والاسر الاوربي في المغرب، وحالات الاستنفار المصطنعة التي ما فتئ العالم الاوربي وحتى الامريكي، يتعامل بها مع أحداث الشأن البحري المغربي، بدءاً بالأزمة السياسية، أو الكارثة الأمنية، وما ترتب عنها في انتقال السلطة بين السلاطين المؤسسون –أحمد المنصور ومولاي اسماعيل- وما يرافقها من فراغ سياسي وتحكم الرياس وقواد المناطق البحرية في مجريات البحرية التي تمخضت عنه مآسي إنسانية، كخلافات سياسية واثنية و دينية وقرصنة[361].

الموضوع الذي نحن بصدده أشمل من الوصف إذ نروم فحصا دقيقا لمجريات العمليات التجارية، والسياسية، والأخلاقية، والذهنية، ثم العسكرية، والثقافة التنظيمية، وتفسير تأثير البحر فيها وفي تاريخ البلد كله. ونريد أن نظهر الأساليب التنظيمية تطور الحداثة الأوربية[362]. إذ لا

[358]) نفسه، ص 75.

359) إدريس بن صاري، تقديم كتيب.البحر في المتخيل المغربي، للاستاذ عبد المجيد القدوري، مطبعة عكاظ 1998.

360) حسن أملي، الغاربة والمجال البحري خلال القرنين 18/17. أطروحة الدكتوراه ،جامعة الحسن الثاني المحمدية 2002/2001.

[361]) على سبيل المثال، انظر ، وقائع طنجة، لابن دولوق، مخ، قدمه لوي مييج، في مجلة المغرب واوربا، قمت بترجمته، في انتظار نشره.

[362]) عمر عمالكي، ميناء طنجة ما بين 1648-1856. أطروحة الدكتوراه، جامعة محمد الخامس، كلية الاداب اكدال الرباط ، م س، ص 11.

مناص لأي باحث يتغيا تفسير ما كان إلا أن يتساءل عن ماذا كان بالإمكان أن يكون عليه الأمر[363]، وهو ما سميناه الإمكان التاريخي. وهو على حد تعبير ليوبوند رنكه محاولة " وصف ما كان كما كان"[364]

ولا بد لدارس تاريخ المجال البحري من الانتباه إلى تداخل ميادين وحقول معرفية كثيرة في مجاله، ما بين التاريخ السياسي والديني والحربي ثم الثقافي والذهنيات ناهيك عن التاريخ الاجتماعي والاقتصادي والتقني. مواضيع ذات منطلقات متباينة ومتفاوتة تتحد في الفضاء الواحد المنقلب باستمرار، يحتم استخلاص نتائج بمفارقات عجيبة. هذا التغيير المطرد يزيد في تفرع المعرفة واتساع ميادين الاشتغال على الباحث الواحد بمعاناة، تدفعنا إلى المطالبة بالاجتهاد في البحث والتنقيب لبناء صورة دقيقة لما حدث وكيف حدث، وليس تخمينا لما يحدث في البحرية المغربية، لكونها ظاهرة لا تزال تلقي بظلالها على الأمة حتى اليوم. فالباحث في هذا المجال أقرب إلى علماء الآثار الذين يدرسون أطلالا دارسة عبثت بها أيدي الزمان[365].

فقد كانت العلاقة التجارية البحرية المغربية العنصر الحاسم والحياض الذي تسير عليه باقي الانشطة منذ القديم مع الاندلس والجنوب الاوربي مضربًا للمثل في انتظامها و ضخامة حجمها، إلى فرض الحماية، وكانت العلاقة بين الاسر الشمالية وبين المخزن تتراوح بين المنافسة والتكامل، في نقل البضائع الافريقية والمحلية ثم الاوربية وهداياهم بل حتى بعض البهارات الهندية والشرقية عمومًا، من البلد حتى مصر وبلاد الحجاز والشام، والعراق على ضفاف الخليج[366].

وعد استمرار التجارة البحرية جزءًا مهمًا من مصادر الدخل للشعب المغربي، فيذكر المؤرخون، مقدار ما بلغه المغاربة من الثراء، من تجارتهم بين شرق أفريقيا والهند من ناحية، وشبه الجزيرة العربية والعراق ومصر من ناحية اخرى، بل وكانت تلك التجارة سببًا في دخول المغاربة واستقرارهم بمصر[367]، وانتشار اسواقهم في طول البلاد وعرضها، دون الحاجة للخضوع لأي سلطة مباشرة، على مدى طويل، حتى بدء الهجمة الغربية على التجارة البحرية والبلاد العربية عموما.

---

363) عمر عمالكي، ميناء طنجة ، م س ، ص 11.

364) كاترين كوليو- تيلين، ماكس فيبر والتاريخ، ترجمة جورج كتورة المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، لبنان 1994، ص11.

365) عمر عمالكي، ميناء طنجة، مقدمات الاطروحة.

366) Oman in history By Peter Vine Page 324.وانظر ايضا على سبيل الاستئناس ما كتب عن التجارة بين الهند والرومان
E. H. Warmington, The Commerce Between the Roman Empire and India, (South Asia Books,1995) p p54, 94 .186.

367) عبد الرحيم عبد الرحمان عبد الرحيم، المغاربة في مصر، في العهد العثماني1517-1798دراسة في تأثير الجالية المغربية من خلال وثائق المحاكم الشرعية المصرية، المجلة التاريخية المغربية، تونس1982، من الصفحة 63 فما فوق.

قد نجح البحارة والتجار المغاربة في إقامة مستعمرات لهم بعيدًا عن بلادهم، كما في مصر والشام حيث كانوا يسيطرون على أحياء واسواق الذهب والتوابل والالبسة، ويكونوا بذلك روادًا للتجارة التي شاركهم فيها العرب والفرس والاتراك لاحقًا، ودورهم الرائد في التجارة مع العوالم الاخرى، وإرسال السفراء المقيمين هناك، هذا وقد كانت لهم تجارة مع البنادقة والاسبان في أوروبا، وقد بقيت موانئ كثيرة، الملجأ الآمن للتجارة والملاحة حتى استعر الصراع بين القوى الاوربية[368].

يمكن استحضار هيبة ورهبة البحر من خلال الاساطير والخرافات المتداولة بين الشعوب حول المجالات المائية أو كونها محطات لصناعة الاسطورة التي تستمد من المعجزة رمزية وقداسة أو فضاء للكرامات[369] والبطولات التي لا تنتهي كما قد تظهر المجالات البحرية كمحطات معجزة عند بعض الشعوب والثقافات أو تقدمها النظرة الغيبية معطى حيوي يجسد العظمة الربانية وسعة رحمته وملكوته[370] كما حمل هذا المجال قصصا عدة زاحم فيها الخيالي المشوق المنطقي المؤسس على قواعد عقلية .كالوقوف على الماء والمشي عليه من قبل أولياء كثر أو توقيف اللصوص (القراصنة) من قبل قوة ولي مغربي كما أن له عدة أوجه تظهر عنيفة حينا وسلمية أحيانا أخرى وتلع هذه المجالات دور أساسي في خلق شبكة من التواصل[371] الاقتصادي والاجتماعي والسياسي عبر العصور . وقد حاولت الاشارة في الهامش العشرين من عملنا أطروحة ميناء طنجة: إلى أن التاريخ البحري يعني تاريخ كل ما له علاقة بالبحر والبحرية والبحارة، وعادات الشعوب تجاه البحر، والطقوس الغرائبية ، وقد ظهر الاهتمام به خلال القرن19م وولد في وسط جذاب من الربابنة والضباط بمختلفي الأهواء، والارتباط بتاريخ السفينة والطرق البحرية، وقد عرف تاريخ البحر نهضة جديدة بإشكاليات جديدة من قبيل الاقتصاد والمجتمع والأنثروبولوجيا والعقليات. وتاريخ البحر هو حقل واسع للبحث[372]،يتميز بتشعب الميادين والتقنيات.

---

[368]) Helaine Selin, Encyclopedia of the history of science, technology, and medicine in non-western cultures. P.761.

369) Allaoua Amara. The Sea and the Mystic Circles According to the Hagiographic Production of the Western Maghreb (XII-XVth Century) about. Revue des Mondes Musulmans Et de la Méditerranée. fevrier.2012.pp 33-52.

[370]) عمر عمالكي، البحر في ذهنية فقهاء المغرب، رسالة السلك الثالث، نوقشت في رحابة كلية الاداب والعلوم الانسانية أكدال الرباط. وحدة البحث والتكوين، المغرب وأوربا، يونيو 2006.

[371]) Allaoua Amara. **The Sea and the Mystic** Circles According to the Hagiographic Production of the Western Maghreb (XII-XVth Century) about. Revue des Mondes Musulmans Et de la Méditerranée. fevrier.2012.p 33.

[372])André burguier ; Dictionnaire des sciences historiques, presses universitaires de France. Paris .1986, p438/439.

لقد استرعى انتباهي في دراسة التاريخ البحري رغبة جامحة في إبراز دور البحر[373] والذي كان وراء العديد من الوقائع كموطن لإنسان شجاع مستقل ومتحضر[374]، وفي محاولة تسليط الضوء على ما هو معرفي وتجاري وثقافي ودبلوماسي، بغية مجاراة التيارات الغربية التي أبرزت إسهامات بحريتها في النهضة وقيادة الاختراق الخارجي وجلب المصالح لها[375]. واستمدادا من إنتاجات مدرسة التاريخ الجديد والحوليات، مثل بيير شوني في"إشبيلية والأطلنتي" أو كتّاب مدن قادس وبرشلونة[376] والشرق الأقصى والمحيط الهادي وأمريكا اللاتينية[377]،وإنتاجات الفرنسيين[378] حول العلوم المرتبطة بالظاهرة البحرية عموما[379]، والتي شملت: السفن، والصيادين، والبحارة، ثم القرصنة والحروب، وأما سبق الباحثون الإنجليز في هذا المجال وذلك لارتباط معظم إنجازاتهم الوطنية بالهوية البحرية؛ كالمخلدة للنصر في حرب الارمادا، والمانش والأراضي المنخفضة، والرحلة إلى أمريكا والعالم الجديد، كما أرخت البرتغال[380] لبحريتها على سبيل المثال:

le Port de Lisbonne, Portugal, Administracao, general do porto de lisbonne1926

وإذا ما توجهنا ببحثنا نحو امريكا فنجد أن جون هافر[381] Jean Heffer، كتب"ميناء نيويورك والتجارة الخارجية لأمريكا le Port de New York et Commerce Extérieur Américain1860-1900. " الذي صدر سنة1986عن منشورات السوربون بفرنسا. وتعد الدراسات الأوربية حول المدن الساحلية و"المتربول الدولي" الذي شغلوه سابقا نموذجا يحتذى به، وربما يعود هذا الاهتمام إلى اختلاف مستمدات الشعوب المرجعية وتحكم الجغرافية في الفكر[382]. ولا يخفى على المشتغلين

373) عمر عمالكي ،اطروحة ميناء طنجة، (ص ص 7-8)

374) Joaquin Costa, les Hemos extraido.de Jose Luis Gonzalez Hidalgo. Tanger y la diplomacia Espanola. Cuadernos. Maonograficos.de l'Asociacion Espaniola d'Africanistos. A.E.A. num2 Madrid1997. PP 61.96.

375) Brocard M «Les relations fonctionnelles entre le port et la ville», p. 69 in Villes et Ports, Actes du Forum. Le Havre: Association Internationale Villes et Ports,1988. p 154.

376) Tòfol Tobal , EL Terciario portuario Como Indicator de Innovacion ,Scripta Nova, Revista Electrónica de Geografía y Ciencias Sociales. Universidad de Barcelona [ISSN 1138-9788] Nº 69 (66), 1 de agosto de 2000.

377) Hayuth, Y. (Coor.) The dynamics and dimensions of Port-City Interrelationships. Geoforum, nº 20, nº 4. London, Pergamon Press 1989.

378) Pierre Lacour Oliver," Le Port de bordeaux, Histoire d'un Tableau" , le Bihan bordeaux France, musée des beaux art .le festin2007. Et Voir aussi (jacques Léotard) "le port de Marseille. les grand ports français ",Ed, dunod1922.

379) Voir les ouvrages de , Eugène Pacini et Morel-Fatio, **la Marine.** Curmer Editeur ;Paris.
Voir aussi - les impact du Monde Atlantique Sur « **les Anciens Mondes**» Africin et Européen du XVe au XIXème siècle. Colloque internationa. universite de Nante.le 7-8-9juin2010.
- Histoire d'une Navire, ch.vinont .Paris, Hachette.1955.

380) García Pérez, F. Los estudios de impacto económico. El punto de vista de un puerto. Association International Villes et Ports. Lisbonne, 1998.

381) كتب عن الاقتصاد البحري وتأثيره على الولايات المتحدة الأمريكية ، و**الولايات المتحدة والمحيط الهادي** و أطروحة Le Port de New York et Commerce Extérieur Américain1860-1900.

382) Richard,E. Nisbett .The Geography Of Thought,How Asians And Westerners Think Differently And Why ! free press, New York2003.

بالإنتاج التاريخي مدى المسؤولية الملقاة على عاتق الباحثين والتقنيين الزمنيين[383] الجدد الذين تتمحور مهمتهم في إذكاء جذوة البحث واستعادة الذاكرة الوطنية، والثقافة البحرية بنوع من التخصص. وعلى المستوى المغربي استوجب الأمر القيام بمبادرة لدراسة وإحياء الإرث البحري وإبراز مكانة المدن المراسي في تاريخ المغرب الذي اشتغل حوله مجموعة من الباحثين[384].

التاريخ البحري من اواخر القرن السابع عشر إلى منتصف القرن التاسع عشر. كأنه نشاط يهدف برنامجه لإبراز تعمق الحداثة البحرية في الساحل المغربي. بل يدفعنا إلى توسيع معارفنا والتحقق في المشاكل الملحة الموجودة في الماضي. ويربط الصلة بدرجة أولى بتاريخ المراسي أو ما له صلة بتطوير خبرات التاريخ البحري ككل، بما هو سلسلة من التواريخ المتصلة، إذ أن دراسة الترددات والحركات التجارية أو دراسة تاريخ الجمارك[385]، يعطينا نظرة عن المحتوى الكلي ومن اجل استنباط المزيد فالإشارات تستوجب إعمال النظر في الحركية المجتمعية بدراسة أنثروبولوجيا المجتمعات الساحلية، إلى جانب رصد المؤثرات السياسية الداخلية والخارجية ومعرفة طريقة تدبير المجال والخبرات المغربية في هذه الفترة من التاريخ الحديث[386]. وقد شكلت هذه الخصوصية محط إلهام وموطن المناقشة والتمحيص للباحثين، نحن لا نستبعد أن تكون تلك التصورات أكثر حدة وغموضا في التعامل مع أنشطة البحر. وسنبين بصماتها في المدينة المينائية[387] التي كان قوام وجودها على مخر عباب البحر والاستفادة من خيرات جذبت فوائده فئات لتشكيل قرى بل مدن مترامية الاطراف بعادات ومجتمعها المتميز، ولا يمكن حصر أهمية المراسي والأنشطة البحرية المغربية ما لم نستفد من كل الكتابات التي ستساعدنا على الجرد والتقييم[388] هذه المحطات التي يتم النظر إليها الآن وهي تشكل خصائص طبيعية لتاريخ الأمة، وكأنها رجل ذكي يبدأ اتباع مسيرته، وما يتوافق بدوره مع ممارسة السلطة وسلوك الحكومة، ويتصرف وفقها لأنه يتصف بالحكمة والحيوية والمثابرة أو العكس. وهذه كلها اسباب النجاح أو الفشل في حياة وفي تاريخ الأمة. علما أن الخاصية

---

[383]) سمى هنري مارو,Henri Marrou المؤرخون " تقنيو الزمن". انظر **محمد جادور**، **الخطاب التاريخي بين امتدادات الذاكرة وحدود التأويل**، مجلة بصمات،ع.3، س.2006، جامعة الحسن الثاني، بنمسيك سيدي عثمان، الدار البيضاء، ص ص35-41.

[384]) حمل عبد المجيد القدوري وأحمد بوشراب عبد القادر تيمول ليلى مزيان ومحمد حجي رحمه الله وعبد الاله الدحاني وحسن أملي وغيرهم.عبء إخراج الموضوع البحري في الدراسات التاريخية حملوا على عاتقهم تأطير طلبة في هذا الجانب من الدراسات. واقتحمه عدد من الاجانب وعلى رأسهم جان لوي مييج و كواندروا مونطاني و برينو...إلخ .

[385]) Huguet et pierre .**Chaunu, Séville et l'atlantique**, **V1**,p94.

[386]) عمر عمالكي، ميناء طنجة ، ص 14

[387]) عمر عمالكي ميناء طنجة ، م س، ص 22.

[388]) Picard Christophe, « L'inventaire des ports de la navigation au Maghreb d'après les relations des auteurs arabes et médiévaux », *Comptes-rendus des séances de l'année. Académie des inscriptions et belles-lettres* 147-1, Paris, 2003, p. 227-251

المرتبطة بالبحرية المغربية تظل تيمة القرصنة الاسرى والمساجين الاوربيين بالمغرب، كمحصلة اشتغل حولها النظراء الاوربيين عن علاقتنا بالبحر؛ وهو ما سنتطرق إليه في بيع الاسرى والقرصنة، إلى جانب البعد الذهني المرتبط بعلاقة اولياء الساحل والصوفية بالبحر؛ هذا المقال الأول الخاص بالتاريخ البحري، في انتظار توسيع الدراسة في مقالات اخرى.

في ظل ظروف الصراع الديني والعسكري بين المغرب والايبريين، كان لابدّ أن يُثير الوجود الموريسكي على أرض المغرب إشكالية تفرعت عنها جملة من الأسئلة والاستفهامات. نستحضر منها: كيف تعامل المدبر المغربي، مع ظاهرة الهجرة الاندلسية، والوجود البرتغالي والاسباني في السواحل ؟ وما هو موقفه منها ؟ وكيف فسّرها؟ وما هو الموقف الذي تبناه بعض الفقهاء والرياس من هذه الظاهرة؟ وإذا كان للطرفين المتخاصمين المذكورين موقف و مخططات ما، وقد تعبّر عنها الوثائق والكتابات التاريخية، فكيف كانت بالمقابل، مواقف الاهالي، إزاء الحروب المفتعلة على المغرب والتي ادت إلى احتلاله، وما كرسه وما خلفوه من كتابات تؤشر على مدى تأثرهم بالقضية البحرية.

وفي الاتجاه المقابل نتساءل عن نظرة الآنا، ونعني به كُتاب المغرب في تلك العصور، و كيف فسّرو، مفاهيم البحر والجهاد والقرصنة والتجارة ثم الهجرة كما مارسها الاندلسيون، عندما حطوا رحالهم، في مدن وسواحل المغرب من سنة 1610م، وما بعدها؟ وكيف حاولوا توظيفها لتحقيق مصالح فئاتهم ورغبة الافراد والسلطة المركزية، وبثّ الرعب في صفوف الاخر الاوربي والتي مازالت آثاره تؤثر سلبا في سياسات حكام السواحل إلى وقت قريب؟

فللعمل البحري منطلقات كثيرة يمكنها ان تقدم النشاط والسياسة البحرية على أنها جزء من الكل الغيبي المعجز. فكل حركة بحرية مغربية خاصة إذا كان الابحار في الواجهة المحيطية أو البحر المتوسط بذيولهما الكثيرة. محط عناية كبيرة في خضم الصراع بين المسلمين والنصارى، وبين تصرف التجار والموردين، وبين تبادل المنافع والمصالح للأطراف التي اتخذت البحر منبع وجودها. فالصراع والمخالف الديني شكلا طرفان أضفيا على الوقائع البحرية طابعا اورثاها نشاطا قرصانيا وانتقاما دمويا. كأن البحرية في المغرب لم يكن لها من مساهمة إنسانية ومعرفية[389]. أو أنها لم

[389]) اهتم المغاربة بتدوين العلوم البحرية بما يخالف التوجه الحربي.انظر القسم الثالث"فصل الحياة الثقافية على السفن" في عملنا ، ميناء طنجة. م س.

ترتبط بأبعاد أكثر شمولية من التخطيط للحروب والمثاغرة. وسنخصص هذا العمل للتصورات الفقهية ولجانب من القرصنة وفداء الاسرى بين المغرب والاوربيين.

عندنا نحن المسلمون اهتمام خاص بشؤون البحر يتوافق مع معتقداتنا الروحية ويستمد منها مادته الاولية من سيرهم واعمال تظهرهم في صورة عجائبية تعلق بما هو مرتبط بالمعتقد المسير للعقل الجمعي للمغاربة[390]. بل إن للبحر رجاله وسادته من العامة والخاصة التي تحفل كتب المناقب بهم ، وكمحطة ثراء فكري. وتعد مصدرا حافلا بالتصورات والمواقف البحرية المغربية التي يختلط فيها المنطق بالمتخيل والاسطوري، من أفعال وحوادث تغطي جانبا كبيرا من المصادر الفقهية وسير المتصوفة وكراماتهم[391] ويمكن على سبيل الفحص أن تقدم أولى القراءات في هذا النوع من المصادر للكتابة عن البحر والبحرية المغربية على العموم. وكلما ارتكز البحث في المسائل التي تهم المجتمع تكون الإحاطة أوسع واشمل وهو ما يدعونا إلى استحضار كتب النوازل التي حملت أجوبة عن تساؤلات عديدة[392].

فعملية التأريخ للبحرية لا يمكن فصلها عن التفكير النخبوي الذي تقوده وتؤسس له ثلاث فئات أساسية : وهي العلماء والفقهاء كمشرع ديني يقعد للمسائل الاقتصادية والاخلاقية ويفصل بين المتنازعين[393]. وفئة الحكام /السلاطين كرأس حكومة تنفيذية للعمليات والمراقب الوحيد للثغور وأنشطتها[394]، ثم فئة الرياس والبحارة ومن لف لفهم من أمناء وأطقم البحرية[395]. هذه الثلاثية التي لا يمكن الخروج عنها في التدوين والاستقصاء للسياسة البحرية عبر تاريخ المغرب كله. وربما نوضح الامور ببعض النماذج، فما عبر عنه أبو عبد الله محمد بن القاسم التميمي الفاسي(1207/603) في كتابه المستفاد في مناقب العباد في مدينة فاس وما إليها من البلاد[396]. ومنها كتاب التشوف إلى رجال التصوف، لابن الزيات التادلي[397](ت627ه/1229م) والذي تناول قدسية

[390])Picard Christophe, « Récits merveilleux et réalité d'une navigation en Océan Atlantique chez les auteurs musulmans », *Actes des congrès de la Société des historiens médiévistes de l'enseignement supérieur public*, Orléans, 1994p. 75-87.

[391]) ابو القاسم العبيدي(القرن 5 هـ/11م) افريقيا للحديث عن ابو اسحاق الجبنيني المتوفى(ت369/979) وطبع سنة 1959.

[392]) خصصت لهذا النوع من المصادر بحثا ، في رسالة السلك الثالث، في جامعة محمد الخامس كلية الاداب أكدال،2006

393) ابن ابي فراس ابو القاسم بن خلاف، كتاب اكرية السفن والنزاع بين أهلها. مصطفى انور ، دفاتر تونس، عدد 123-124 طبعة تونس 1983.ص ص، 5-52. وقد اعتمدت على هذه القواعد النوازلية في تطعيم بحثنا في البحر في ذهنية فقهاء المغرب. م س.

[394] انظر ، ابن السماك العاملي ، رونق التبحير في السياسة ، مخطوط المكتبة الوطنية، الرباط.

[395] انظر عمر عمالكي ، رسالة السلك الثالث، البحر في ذهنية فقهاء المغرب، م س.

[396]) قد نعتبر، كتاب ابو القاسم العبيدي(ق5ه/11م) من اوائل الكتب التي اهتمت بالمادة البحرية للتمكين للاولياء. انظر محمد الشريف، التميمي ابو عبد الله محمد الفاسي، المستفاد في مناقب العباد في مدينة فاس وما يليها من البلاد، نشر كلية الاداب والعلوم الانسانية 2002تطوان.

[397] ابن الزيات التادلي .التشوف إلى رجال التصوف واخبار ابي العباس السبتي، تحقيق احمد توفيق 1984. الرباط كلية الاداب والعلوم الانسانية.

ورمزية اولياء الساحل ما بين سبتة والاندلس وماسة[398]. كما أشار ابو القاسم العبيدي الذي عاش خلال القرن 5 ه و11م في كرامات شيخه أبو اسحاق الجبنيي(ت 369هـــ 979م) وكتابه طبع سنة 1959 وينضاف إلى هذا النوع من الكتابات ما خطه عبد الحق اسماعيل الباديسي(ت7ه/13م) في كتابه، المقصد الشريف والمترع الأليف في التعريف بعلماء الريف الذي تناول الحياة البحرية وحياة البحارة في شواطئ الريف المغربي من سبتة إلى تلمسان التي اقيمت فيها عدة رباطات. وإلى هذا الجيش العرمرم من المناقب نضيف ، روضة النسرين في التعريف بالاشياخ الاربعة المتأخرين. الذي يحمل كرامات أربعة اولياء من أولياء الساحل وهم: "محمد بن عمر الهواري الحسن ابرقان ابراهيم التازي واحمد الغماري" وسيرة ابن مرزوق[399] التي تحمل بعدا بحريا خاصة كتابه الديوان الذي شكل جزءا من كتاب ابي العباس العزفي (ت 633ه 1235م) دعامة اليقين في زعامة المتقين التي حوت كثير من المناقب لأبي يعزى وابن النقسيس محمد سعيد بن عثمان الصنهاجي الازموري(ت 795ه-1392م)، "كتر الاسرار ولواقح وسلفة الابرار ورحبة الاخيار " واخذ هذا الفقيه في تفصيل السير في البحر الخاصة بالمازوني في احدى مسيراته البحرية لما توقفت سفينته على الماء واصل قطع البحر مشيا على الارجل[400] حيث قال أن البحر هو مناطق منها الطوق الازرق الذي يتقاسمه المسلمون والنصارى ثم البحر المسلم في اشارة إلى المحيط[401]. ويلح على ضرورة مرافقة السفن بمجموعة من رجال القلم لتدوين المعارف، ومن هو ملم بمعارف وعلوم البحر. وقد اورد فيه عدة كرامات بحرية للأولياء ، كما يتحدث عن كرامات ابي يعزى 572ه/1177م[402] وهو ما اورده ابن قنفذة في ترجمة للشيخ ابو مدين وعلى غراره كتب عن ابن سبعين كأول رجل من الاولياء الذين اسسوا للقلع البحرية لما بنى اول زاوية بحرية في سبتة لتسهيل التواصل مع الاندلس[403] وقد حدا هذا البناء الذي يكاد يغطي كل المراسي المغربية منذ العصر الوسيط إلى الحالي إلى تعميم الملاحظة من قبل بعض الدارسين الاوربيين الذين تسالوا عن دورها أو يحاولون استكناه اسرارها ومنهم من سماها مدن الرب أو حاول ايجاد العلاقة بين بناء الزوايا أو الاضرحة على أبواب المراسي والمنشئات البحرية[404] . ومن المؤرخين المغاربة من استحضر وقوف اولياء الساحل كظاهرة نمطية بالمجال

---

[398]) التشوف إلى رجال التصوف،م س ...

[399]) كتاب ابن مرزوق الهبطي (ت 781هـ 1371م).

[400]) ابن النقسيس كنز الاسرار ولواقح وسلفة الابرار ورحبة الاخيار طبع، ليون،2006 ص108 .

401) ابن النقسيس الصنهاجي. كنز الاسرار .م س، ص ص،380.381.

[402]) ابن قنفذة، ابو العباس احمد القسنطيني. أنس الفقير وعز الحقير، طبعة ساحل النجاح.القاهرة دار المقطم 2002.ص35.

[403]) عبد الحق الباديسي ، المقصد الشريف والمنزع الاليف،م س. 1993، ص 69 وايضا ص 106.

[404]) Kerrou (s.d. M.) «Saints et pouvoir au Moyen Âge du Maghreb, entre le refus et la tentation»,*Perspectives historiques et socio-anthropologiques en Méditerranée occidentale*, Paris,1998, p. 239-247.

المتوسطي[405] ومنهم من عد البحرية المغربية تتلخص في ممارسة الجهاد البحري والاعمال التجارية[406] أو ربطها بالاعمال اللصوصية المثيرة للجدل في المغرب وخارجه[407].

هذا العمل المرتبط بالتاريخ البحري تناوله مؤرخون كثر من وجهات نظر مختلفة بوثقتها المركزية هي البحر والبحرية وما تقدم عليه من أنشطة: كالقرصنة[408] والرحلات الحجية أو الافتداء واعتبار محيطها بمثابة أسواق لبيع البشر وظهور شركات أو وكالات لهذا الغرض التجاري.[409] أو ما يمكن أن نسميه اقتصاد الفداء الاستخلاص[410] . بل إن نشاط البحر شكل عوضا عن الحرمان والفقدان ولوعة الفراق لكثير من الاسر الاندلسية المغربية منذ سنة 1609التي امتهنت حرفة القرصنة واسر الايبيريين انتقاما من الطرد من منازها في الاندلس وبرزت كثير من الاسر[411] بالساحل المغربي وحاولت في جميع خرجاتها البحرية الحصول على اكبر عدد ممكن من الاسرى412 وواصلت هذه الجولات البحرية ليس فقط في السواحل المغربية بل حتى في السواحل الاسبانية[413] . وفي جل الاعمال القرصنية التي اقدم عليها الموريسكيون لم تستثن الجنسيات الاوربية من الاسر وهو ما وقع للسفينة الفرنسية سنة 1674 [414]

- Valerian Dominique, *Bougie, port maghrébin, 1067-1510*, Rome, Ecole française de Rome, 2006, p 795.
- Ephrat Daphna, 2002, « In Quest an Ideal Type of Saint : Some Observations on the First Generation of Maroccan *Awliyâ' Allâh* in *Kitâb al-tashawwuf* », *Studia Islamica* , Paris1994, p. 67-84.
- Faure Adolphe, 1957, « Le *tashawwuf* et l'école ascétique marocaine des XIe –XIIe –XIIIesiècles de l'ère chrétienne », *Mélanges Louis Massignon*, Damas, Institut français de Damas, II, p. 119-131.
- « Frugalité soufie et banquets de zaouyas : l'éclairage des *sources hagiographiques* », *Médiévales 33, Vincennes, 1997, pp. 69-79.*

[405]) محمد حجي ، أولياء الساحل ، مطبعة عكاظ 1998.

[406]) M'barek Zaki, Le Maroc Et Méditerranée, Etudes d'ehistoire.pub ;université Mohammed V (IURS)Rabat2003.

[407]) لكل من الباحث(Aznar Vallejo, 1995, p. 61-74) الذي ركز على اللصوصية أو انشطة القرصنة المغربية في اعماله التاريخية le Maghreb al-Aq□â à la fin du Moyen âge (Valérian, 2006,pp,421-501). أو انتاجات (Picard, 1997.pp, 357-360).

[408]) Michel Fontenay, « Le Maghreb barbaresque et l'esclavage méditerranéen aux xvie et xviie siècles », Cahiers de Tunisie, t. XLIV, no 157-158, 3e trimestre 1991, p. 7-43 ; Jean-Claude Laborie, « Les ordres rédempteurs et l'instrumentalisation du récit de captivité : l'exemple des trinitaires, entre 1630 et 1650 », dans François Moureau (dir.), Captifs en Méditerranée(xvi□e-xviii□e siècles) : Histoires, récits et légendes, Paris, PUPS, 2008, p. 93-94.

409) Jean Mathiex,« Trafic et prix de l'homme en Méditerranée aux xviie et xviiie siècles », Annales. Économies, Sociétés, Civilisations, vol. 9, n° 2, 1954, p. 157-164.

[410]) Wolfgang Kaiser, « L'économie de la rançon en Méditerranée occidentale (xvie-xviie siècle) », Hypothèses, 2006/1, p. 359-368.

[411]) ابن عزوز حكيم ، اولاد النقسيس، حكام تطوان، مطبعة الخليج العربي، 2002،ص30.

[412]) Les Sources inédites de l'Histoire du Maroc (SIHM), Paris, Paul Geuthner, 1953, 1re série, Portugal, t. IV, p. 269 ; Bernard Vincent, « Procédures et réseaux de rachat des captifs dans l'Espagne des XVIe XVIIe siècles », dans Wolfgang Kaiser (dir.), Le commerce des captifs. Les intermédiaires dans l'échange et le rachat des prisonniers en Méditerranée, xv□e-xviii□e siècle, Rome, École française de Rome, 2008, p. 123.

[413]) Leila Maziane, Salé et ses corsaires (1666-1727), un port de course marocain du du xvii□e siècle, Caen, PUC, 2007, p. 224.

[414]) SIHM, op. cit., 2e série, France, t. I, p. 451-457.

ويمكن الحديث عن الارتباط الوثيقة بين القراصنة وتجار البشر في السواحل البحرية المغربية حتى اشتهرت بعض الاسر والحكام كأكبر المستفيدين من هذه الانشطة برمتها، وخلقت[415] شبكات من التواصل مع السواحل المتوسطية المغاربية والاوربية ثم الاطلنتية[416] دون الاهتمام بما هو اخلاقي أو ديني إذ أن ما يهم القرصان هو المال الذي يأتي برفقه وصول المفديين في المدن والاسواق المنصوبة لهذه العمليات[417]

وفوق كل التوقعات فالبحر استوجب كثيرا من المراقبة والامن[418] وحفظ الملكيات من الضياع. والسرقة مما سيولد نشوء شركات التأمين والتعويض.وطرق توصيل الاموال وحفظها عبر بريد متنقل يسهم في نمو الظاهرة البنكية. إضافة إلى الوسائل المالية . والتفتيش القرصني الذي سيتم النظر إليه كمهمة اجتماعية ومخزنية على قدم المساواة، وتحظى بعض العائلات بكثير من الحظوة والمكانة الاجتماعية المرفوقة بالمبادرة والمحصلة السياسية فهي القادرة على تحديد الاسعار والافراد ذو الاولوية في الفداء وعلى سبيل المثال يورد ابن عزوز حكيم أن القراصنة طالبوا عن ابن حاكم سبتة سنة 1640 مبالغ في عمليات الفداء وقيمته حيث أن 32000بيزوس ووصل سعر القبطان إلى 14072 ريو فضي[419] وكذلك يصنفون بين فئات الاسرى ما بين النبيل والوضيع[420] من العامة.

وقد نتج عن معارك القراصنة امتزاج الاسلوب العثماني مع المغربي الساذج- بشمال افريقيا- والاوروبي. سواء فيما يتعلق بالأنماط الاجتماعية أو الهندسة المعمارية و المهارات اليدوية. بالإضافة إلى الفوائد التي كان يجلبها القرصان للإيالة كل ذلك أدى إلى وجود مستوى عال للمعيشة[421]. في مدن السواحل والمراسي. وقادت هذه الانشطة ولوج المغرب مواطن الحداثة والتغيير المتدفق في شتى النواحي. واشتغل بما يجري في هذه المناطق الامناء والسلاطين والبحارة والتجار .ثم المتصوفة والزهاد وحمل كثير من العلماء والفقهاء انفسهم بالحديث عن مسائل واحكام الغصب والهجرة والتهجير، قبل سنوات من صدور قرار الطرد الاخير[422] كتصوير يفصل تفاصيل الحياة الاندلسية

---

[415]) Leila Maziane, Salé et ses corsaires..., op. cit., p. 227.art. cit., p. 133

[416]) محمد بن عزوز حكيم ، اولاد النقسيس، م س، ص ص ، 57.58 .

[417]) SIHM, op. cit., 1re série, France, t. III, p. 561. p. 670.

[418]) Louis-Augustin Boiteux, La fortune de la mer, le besoin de sécurité et les débuts de l'assurance ,op cit.

[419]) قطعة نقد إسبانية كانت تساوي ربع بيزيتا

[420]) محمد بن عزوز حكيم ، اولاد النقسيس، م س، صص 59-60.

[421]) وليم سبينسر، الجزائر في عهد رياس البحر، مقدمة المؤلف، ص 15.

[422]) أحمد بن بوجمعة المغراوي، مفتي وهران رحمه الله .فتوى في 6 رجب 910 هجرية الموافق لـ 18-11-1504 ميلادية فتوى إلى المورسكيين. وقد عثر عليها الاستاذ محمد عبدالله عنان خلال بحوثه في مكتبة الفاتيكان.

ومعاناة المسلمين بين يدي القشتاليين والارغونيين وما والها من حروب الاسترداد ومحاكم التفتيش السيئة الذكر. والتي دفعت بالعديد من فقهاء المغرب إلى اصدار الفتاوى حول أحوالهم في بلاد النصارى والمغرب. وكانت مصدرا للمعرفة التاريخية ومحور الكتابة التاريخية للموريسكيين[423].

تبعها تحول الجاليات بين دول المغارب مرفوقة بالنشاط السياسي لهذه الجنسيات في السواحل المغربية وشكل هذه الفئات من المهاجرين، جماعات وأفراد، هذه الموجات، كانت حينئذ من أهم ظواهر وحوادث البحر، بما ترتّب عنها من انعكاسات وتداعيات، ليس على صعيد المغرب فحسب، وإنما على صعيد البحر المحيط قاطبة. فقد كانت هذه الترددات، والانشطة التجارية وحوادث أخرى مواكبة لها ومتعاقبة، منها: اختراق القراصنة وتجارة البشر ، وهزيمة المغرب في مواجهة الاوربيين في السواحل والمدن المحتلة فانضافت إليها هزيمة حرب إيسلي (1260ه/1844) أمام القوات الفرنسية، وحرب تطوان (1276ه/1859 ـ 1860م) في مواجهة الإسبان، لكون النشاط البحري من بين اسباب مركزية البحر في صياغة التواريخ المفصلية للمغرب . بينما اخذت ثغوره ومراسيه تتشكل على ايقاعات سريعة اجبرتها على التكييف المستمر.

خاتمة:

إن اهم خلاصة يمكن الخروج بها هي اعتبار تنظيم الحياة المرفئية والانشطة البحرية عامة، رغم ما يتخللها من فوارق مصطلحية مجرد صورة واحدة متعددة موضوعيا لهيكل ومادة قارة تدور حلقاتها حول المعنى العام اسما ووصفا تجاه المحطات البحرية ومردوديتها الانتاجية كمعطى سياسي واقتصادي واجتماعي. انتج سلسلة من الاحداث صارت تاريخا للبحر. فالبحرية المغربية، ستعرف ولادة تنظيم النشاط البحري في إطارات مرهونة بالتواصل المبرر تجاريا وعسكريا، وحمولات ذات أبعاد ثقافية وحضارية في مجال متناقض من حيث الطقوس، والديانات، وأساليب العيش والعقلية المتحكمة، علاوة على القصور التقني وتراجع ربحية المغامرات البحرية وسطوة السلطة الانشطة والمردود عوض الممتهن والتأثير على الإغتناء من عائداته أو استقلالية قراراته، وما شهده البحر من عوامل جديدة طارئة وحتميات دولية حولت المغرب إلى مفعول به، فكانت موانئ البحر المتوسط والمحيط الأطلنتي بإيبيريا والمغرب مفاتيح الرحلات الاستكشافية والتجارية نحو مناطق أبعد، بمحاذاتها مضيق جبل طارق الذي يعد بوابة الباحثين عن الاغتناء والتموين من

---

[423]) قضية المسلمين المسمون اليوم بالبلديين، يتحدث عن التجار الاندلسيون بفاس. وما لحقهم من منع وحصار. وصدرت عدة فتاوى .

الحبوب و العملة الذهبية فجعلوا من البحر مجال المغامرة وملك للجميع مما فتح شهية المغامرين، والصيادين، والتجار[424].

ولقد أنشئت البحرية المباشرة والرائعة في بعض الأحيان على سواعد تجارة البحر الكبير لاستفادتها من الحركية الشاملة في مسارات أكبر مما يمكن أن تصل إليها في المجال الضيق، وما الصعوبة في الحالة الأخيرة إلا بعد بطء العمليات التي تضمن المثابرة بعد وفاة حاكم معين. أريد من خلال العمل كتابة نموذج ومناقشة تصرف المغربي في زمن الطفرة البحرية العالمية المعاصرة له، وما كان موقفه من المستجدات البحرية التقنية والاقتصادية والمجتمع[425].لذلك جاء تنظيم النشاط البحري المغربي كمحصلة تراكم عدة أوفاق دولية، وقعها المخزن منذ القرن17م، مع ما صاحبها من تشريعات خاصة في النصف الثاني من القرن 19م، فولد نشاط بحري محكوم بها، (كأولى خطوات الاهتمام الأوربي بالمغرب) وكل الاتفاقيات والتشريعات، انتهت مجتمعة إلى تقعيد انفتاح المراسي المغربية، في إطار الوصاية الأجنبية وبشكل غير قابل للتراجع[426] لإرادة المخزن المحضة بل اثرت فيها تشريعات واقتراحات الاوربية.

ثم اتى زمان لم يبق من كل ذلك المجد، سوى الحديث عن أنشطة غير قانونية، يقوم بها بحارة ورياس وصيادوا أسماك سابقون، اعترضوا بخبراتهم وشجاعتهم الذاتية أو بتواطؤ مع سلطات المراسي السفن الأجنبية لاستخلاص الارزاق او الدفع بدولهم إلى تقديم الهدايا أو الاستجابة لمتطلبات المغاربة الذي اعتبر بعضهم هذه الممارسات مصدر رزقهم، أو دودا عن حمى الوطن وحراسة خيراته بعد ان أعملت تلك السفن صيدًا جائرًا، وعبثًا في البيئة البحرية عبر ما تنهبه من خيرات في المياه الإقليمية، دون أن أستبعد وجودًا لكثير من المرتزقة الاجانب الذين عزموا على عرقلة سفن بلدانهم الاصلية أو خصومهم بشكل حيث كان سببا في استشراء حالة الفلتان الأمني في الممرات البحرية الأهم في البحر الابيض المتوسط والمحيط الاطلنتي[427]، ندرك أنها في نهاية الأمر عادت بالكوارث على شعب أصبح التطاول عليه باسم محاربة القرصنة، بل الاستهتار به من القوى الغربية في عدة مؤتمرات.

[424])عمر عمالكي ، ميناء طنجة، م س، خاتمة وتوجهات العمل، ص ص 370-371.
[425]) عمر عمالكي، ميناء طنجة. م س ، 22.
[426]) توجهات عملنا في، ميناء طنجة ، م س ،ص ص 370-371.
[427] Barendse (R. J.) The Arabian Seas, The Indian Ocean World of the Seventeenth Century pg.30.

إن رد الاعتبار للتاريخ البحري للمغرب، مهمة ثقيلة ملقاة على عاتق مؤرخي عالم البحر المغاربة، خاصة أن تغطيات كل تلك الحقب والمراحل والفترات البحرية التي ملئت أسماع العالم بمآسي الاعتقال البحري والجشع القرصني سد الأفق غيوما تأبى الانقشاع بالنسبة للأخر، قد أصبحت مدعاة للسأم والشعور بالمرارة أو تدفع للانطواء وراء التبرير غير المجدي أمام وجود مدرسة بحرية في حقل التاريخ بالجامعات المغربية وما راكمته من ابحاث.

ومهما حاولت الاحاطة بالموضوع البحري عبر التاريخ ستظل هذه مجرد دراسة استقصائية تقويمية تسبر أغوار الظاهرة بكل تجلياتها ومقوماتها الاساس، وقد نتجاوز مضاعفاتها التي لاتزال تتحكم في فكر ووقائع الامة اليوم. ومع ذلك ستظل صفحات من التاريخ البحري يلفها الغموض أو تهمل بين الكمائن والخزانات العلمية الخاصة، كما يقول بروديل[428] وامام الباحث عدة خيارات للبحث والتوثيق خاصة في ما يتعلق ب:

- ✓ اقتصاديات النقل البحري الدولي
- ✓ التاريخ البحري الدولي في بداية القرن 20
- ✓ رصد جذور التشريعات و القانون البحري العام
- ✓ مناهج البحث في السياسة البحرية
- ✓ طرق، مشاكل وقضايا في السياسة البحرية الدفاع والأمن
- ✓ دراسات حالة السياسات الجمركية البحرية

يُمكن إيجاز أهداف المقال ، فضلا عن ما ذُكر في ثنياه :

ـــ المساهمة في دراسة التاريخ البحري للمغرب من خلال مقاربته مقاربة تاريخية عبر الاحاطة بالمؤشرات الاقتصادية والاجتماعي لمدن ومراسي الساحل المغربي من نهاية التاريخ الوسيط إلى بداية المعاصر بتتبع تداعيات القرصنة واسواق النخاسة والتي شكلت نشاط قائم بذاته وسط شريحة اجتماعية من السماسرة والاسر والدبلوماسية ورجال الدين والضباط على اختلاف مهماتهم تنضاف إلى الشرائح الأخرى، المكوّنة للمجتمع البحري واساليبها . هذا الجانب من الدراسة، نعدُّه جانبا أساسيا من جوانب تاريخ البحر المنسيّ، والذي لم يُدرس بعناية، وافتحاص، ونقد

[428]) انظر مقدمة عملنا، ميناء طنجة،1684-1856، م س، ص 15.
[Elle contient quelques-unes des plus belles pages d’histoire maritime Jamais écrite]

حتى الآن، رغم الآثار المُختلفة الأبعاد، التي خلفتها هذه الشرائح الاجتماعية، على المستوى المحلي والوطني.

ـ مناقشة و تفنيد الأطروحة الغربية ومواقفها من البحرية المغربية ومواجهة الاستوغرافية الاستعمارية بمفاهيم، مغربية مستوحاة من الموروث البحري والدبلوماسي والنوازلي حيث أوّل بفقهاء المغرب اهمية لكل ما له علاقة بالبحر ، بناء على معطيات ووثائق المرحلة المدروسة. وهي المفاهيم التي مازالت رغم مرور زمن على بثها ولفثها سارية المفعول و تؤثر في فكر بعض الباحثين بصورة أو بأخرى.

ـ تبيان بعض أنساق الفكر الساسة بالمغرب، في تدبير المراسي والقلاع البحرية. وهو الفكر الذي كان يستلهم التجربة الأوربية في التسير، وفي كيفية التعامل مع المستجدات التقنية والعسكرية.

ـ تبيان رؤى النخبة المغربية (الفقهاء والسلاطين والرياس)، حول القضايا البحرية؛ حيث بدا لنا أن ما يجمع هذه الفئات أكثر ما يُفرّقها، وأنها متضامنة وموحدة في التوجهات والمرامي الكبرى، وأن ما يُفرّقها هو الاستحواذ على المغانم والانفراد بالتسير

وتجدر الإشارة، إلى أننا تصرفنا في المادة المصدرية وفق توجهات العمل واحتراما لرغبة المجلة العلمية وتجنيبا لها من الاطالة حتى لا يقع السأم للقارئ الكريم بما لا يمس جوهر المقال من النص الأصلي شكلا ومضمونا. وارجأنا الحديث عن التاريخ البحري الاقتصادي والتقني. ودراسة الموانئ والمراسي. إلى مقالات اخرى.

وأملنا أن يُثير هذا المقال فضول الباحثين الجدد، ويقود نقاشا جدّيا بين المؤرخين، لمزيد نبش في التراث ويضع خريطة طريق واضحة المعالم. بما يُفضي إلى إغناء الساحة العلمية والفكرية بمضامين جديدة، تعين على تصويب الماضي الفكري وتصحح هفواته، ويشحذ العقل الجمعي وصقله عبر اسهامات تكون قاطرة في بلورة أفكار تُقرّب بين دول حوض البحر الابيض المتوسط.









وليد موحن
باحث في التاريخ

خضع المغرب بداية القرن العشرين للحماية الاسبانية والفرنسية بعد جهود مضنية وضغوط عسكرية واقتصادية وسياسية فرضتها الدول الأوربية على المغرب منذ هزيمته المذلة في معركة ايسلي يوم 14غشت من عام 1844 مرورا بحرب تطوان 1859 /1860 وحرب مليللية 1894 ،ومؤتمر مدريد 1880،ومؤتمر الجزيرة الخضراء 1906، ناهيك عن مجموعة من المعاهدات[429] والاتفاقيات والتسويات،[430] التي عملت على الحد من السيادة المغربية ،وهيبة السلطة الحاكمة ،وأدخلت المغرب في دوامة الدول الدائنة لدول الأوربية .لتأتي محطة 30مارس 1912م التي دقت أخر نعش في مقاومة المد الامبريالي الأوربي الجارف، برغم من الجهود الكبيرة

---

[429] نقصد هنا أساسا المعاهدة التجارية المغربية–الانجليزية التي نصت بنودها على حرية التجارة والمساواة بين المغاربة والانجليز في حق الاتجار والسكنى والبيع واالشراء في جميع المراسي المغربي واسقاط الكنطرادات ، لمزيد من التفصيل انظر خالد بن الصغير المغرب وبريطانيا العظمى في القرن التاسع عشر (1856 – 1886)الفصل الآول.

[430] مجموعة من التسويات والاتفاقيات أبرمتها فرنسا مع الدول الاوربية من أجل انفرادها بالمغرب ،انطلاقا من الاتفاق مع ايطاليا سنة 1902، ،والاتفاق الودي 1904 بين فرنسا وانجلترا، والاتفاق الالماني الفرنسي سنة 1911.

التي قام السلطان عبد الحفيظ خلال فترة حكمه 1908/1912 غير أن الخرق اتسع على الراتق حسب تعبيره في كتابه المعنون "داء العطب قديم".

لم يكن مغرب القرن التاسع عشر مهيئا لآي صدام عسكري مع قوى الغرب المتقدم، خاصة بعد أن انكشف أمر ضعفه الكبير في واقعة ايسلي ضد الفرنسيين ،في أول صدام له مع أوروبا منذ معركة وادي المخازن.وقد فتح انهزام الجيش المغربي في الواقعة المذكورة باب الأطماع الأوربية في البلد على مصراعيه، ودفع بالقوى الغربية المتصارعة حول مصالحها بالمغرب إلى تجاذب دراماتيكي طويل سينتهي بإنهاك البلد وما استتبع ذلك من إعلان الحماية الفرنسية الاسبانية عليه . بعدما أخد الأوربيين يتحكمون تدريجيا في المسار التاريخي للمغرب أكثر مما يتحكم فيه أهله[431]،فأصبحت الأمم الغربية كبريطانيا وفرنسا واسبانيا تبحث لها عن مواقع نفوذ في المغرب

بواسطة المبادلات التجارية ومعاهدات الصلح التي ضمنت الحماية لهذه المبادلات ولمصالح التجار عموما بسواحل البلاد ومراسيها.

و لم يزد الطين بله في مطلع الفرن العشرين سوي تلك القروض التي منحتها فرنسا للمغرب، والتي كانت البداية الأولى لفرض نظام الحماية على المغرب.ناهيك عن تلك الثورات التي أشعلها الثائر بوحمارة في شرق المغرب ما بين 1902 و 1909.وخير من يصف حالت المغرب المترهلة والسائرة في طريق فقدان السيادة الوطنية هو محمد بن الآعرج السليماني في مخطوطه "زبدة التاريخ وزهرة الشماريخ " بقوله"خراب العمران وهلاك الرجال ونفاذ الأموال وارتباك الأحوال"[432]

ظروف خضوع شمال المغرب للحماية الاسبانية :

ان تبلور المصالح الاسبانية في المغرب بصورة واضحة تزامن مع ظروف فقدان اسبانيا لآخر مستعمراتها في سنة 1898.إذ بسبب ذلك اضطربت الكثير من القطاعات الاقتصادية المرتبطة بالتجارة مع المستعمرات وافتقدت الدولة الكثير من الموارد

التي كانت تحقق بواسطتها توازنا ماليا،فدخل الاستعمار والامبريالية الاسبانية مرحلة حرجة جدا بسبب التنافس الشديد بين الدول الاستعمارية حول ما تبقى على المائدة الاستعمارية.433

وقد كان موقف اسبانيا متميزا من عدة جوانب ونواحي نجملها :

---

[431] بيدرو أنطونيو دي الاركون،يوميات شاهد على حرب تطوان ،ترجمة محمد عبد السلام المرابط،منشورات ليتغراف،ط 1 ،مطبعة ليتوغراف،طنجة،2011،ص11.

[432] نفسه ،ص 503

[433] عبد الرحيم برادة،اسبانيا والمنطقة الشمالية المغربية 1956-1931،الجزء الأول، دار افريقيا الشرق،الدار البيضاء، 2007،ص 99

-لا يمكن اعتبار اسبانيا بالدولة الامبريالية ذلك أنها كانت تعيش على إيقاع مشاكل داخلية ،وصعوبات اقتصادية، وغليان اجتماعي. وهو ما يفسر الثورات والانقلابات التي كانت تعيش على إيقاعها الدولة الاسبانية وتغيرها المستمر من الملكية إلى الجمهورية.

- عدم امتلاكها نفس مقومات ومؤهلات الدول الاستعمارية لفرض نفسها حتى تتمكن من تحقيق المكاسب الاستعمارية التي قد تحققها الأطراف الأخرى.434

-كانت أقل الدول المنافسة على المغرب قوة وتنظيما وزاد عسكريا ودبلوماسية من نظيراتها الانجليزية أو الفرنسية .وهو ما يفسره الاتفاق الودي التي أعطى لاسبانيا شمال المغرب لسبب أساسي هو قربه من مضيق جبل طارق بوابة المستعمرات الانجليزية كما أسلفنا الذكر.

- عملت على استغلال الفرص من أجل الانقضاض على المغرب دون رؤية مستقبلية ولا خطط محكمة ،عكس انجلترا التي نهجت المسار الدبلوماسي بقيادة جون دراموند هاي435 ،وفرنسا التي أشهرت ورقة الإصلاحات وعملت على التغلغل في المغرب من الجهة الشرقية.

وقد كانت اسبانيا نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين تعاني من تمزق سياسي وانهيار اقتصادي وتراجع اجتماعي وثقافي ،حتى أضحى بلادهم خارج التحولات التي كانت تعرفها أوربا والساحة الدولية آنذاك.فقد كانت اسبانيا مع نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين مثقلة ومتعبة تقلصت إمبراطوريتها وضعف حالها وأمامها التاريخ يجري والعالم حولها يتقدم ولا بد لها من مسايرة الركب إن أرادت العيش والبقاء436 .لذلك وجهت أنظارها للمغرب باعتباره بلدا جارا،ومجموعة من جزره ومدنه تحت سيطرتها،وتدعي أن لها تاريخ مشتركا يجمعها بالمغاربة.

وقد خضعت المنطقة الشمالية لاحتلال الاسباني الجاثم سنة 1912م بعد الاتفاق انجليزي-فرنسي في الاتفاق الودي سنة 1904م بأن تكون المنطقة الشمالية من نصيب الدولة الاسبانية كما نص على ذلك البند الثامن من هذا الاتفاق. وذلك لدواع جيواستراتيجية أملتها المصالح الانجليزية بسبب قرب المنطقة الشمالية لمضيق جبل طارق بوابة المستعمرات الانجليزية ، وهذا ما يفسر أيضا وضع مدينة طنجة الدولي في فترة الاستعمار الأوربي غلى المغرب.

---

[434] نفسه الصفحة 99

[435] ينحدر من ارستقراطية السكوتلندية،لعب دورا طلائعيا في تاريخ مغرب القرن التاسع عشر،بكونه ممثل بريطانيا بالمغرب خلال فترة تربو عن نصف قرن 1845-1886 .للمزيد من التفصيل أنظر ،خالد بن الصغير،المغرب وبريطانيا العظمى ،الصفحات 50-58

[436] على بولربح،الخطاب الاستعماري الاسباني حول شمال المغرب (1850-1950) اشكالات أولية ،مجلة المناهل ،العدد 89-90،رجب -1432يونيو 2011،ص 88.

وقد اخترقت الجيوش الاسبانية مدينة تطوان المتوسطية في سنة 1913 للمرة الثانية بعد الاحتلال الأول إبان حرب تطوان 1860/1859.

وقد جُبها الاستعمار الاسباني بمقاومة ضارية وقوية من طرف الساكنة المحلية والقبائل الشمالية بقيادة كل من شريف محمد أمزيان والأمير محمد بن عبد الكريم الخطابي الذي أذاق الأسبان ويلات الهزيمة في معركة أنوال سنة 1921م وفي الحرب الريفية التي استنفرت القوتين الاسبانيا والفرنسية في تحالف من أجل إسكات بنادق الريفين وتبين الأرقام استنفار 325ألف جندي وأنه كان على خط النار 32فرقة عسكرية و 44سربا على رأسها 60جينرالا بقيادة الماريشال بيتان، كما أن هذا الجيش يعد مدرسة في الجندية ،هذا ،وقد دعمته أربعة أخماس من السكان المغاربة الذي قدموا 400ألف جندي إضافي .إضافة إلى 360ألف جندي اسباني .مع العلم أن سكان منطقة الريف الجغرافي كانوا يقدرون يومذاك بحوالي 750000نسمة فقط .437

وان نجح الاستعمار في إسكات صوت البنادق المغربية بحلول بدايات الثلاثينيات ،فقد ظهر على الساحة السياسية شباب متنور طامح للحرية ،كله أمل في حصول المغرب على استقلاله بوسائل سلمية وعن طريق التعليم والدراسة وإرسال البعثات العلمية إلى الدول الأوربية والمشرق العربي .خاصة من المنطقة الخليفية التي عملت على إرسال ثلة من أبنائها إلي القاهرة ونابلس لدراسة ،وهؤلاء من سيصبحون عمدة النضال الوطني في المنطقة الشمالية (بن عبود ، الحمامي ،الطوريس)التي وجدت في السلفية إيديولوجية مناسبة لها ،إذ هي عقيدة إصلاحية دينية تدعو إلى العودة إلى الإسلام الأصلي،أي إسلام "السلف الصالح". وتفسر السلفية تقهقر العالم الإسلامي بالعامل الديني،معتبرة أن النهضة تمر عبر تصفية المعتقدات مما علق بها من بدع وانحرافات 438.

وقد قاد نضال الحركة الوطنية في المنطقة الشمالية شخصيات مهمة وفذة قدمت الغالي والنفيس في سبيل استقلال المنطقة والمغرب بشكل عام ،من أبرزهم وأكثرهم تأثيرا نذكر أب الحركة الوطنية عبد السلام بنونة 439 وعبد الخالق الطوريس ، محمد داود ،محمد طنانة وغيرهم الكثير من رعيل المقاومين والمناضلين في هذه المنطقة سواء بأفكارهم أو ببنادقهم. وقد كان رواد الحركة الوطنية

[437] علي الادريسي،في مقاومة ثقافة النسيان محمد بن عبد الكريم الخطابي نموذجا،ضمن ندوة "المقاومة المغربية عبر التاريخ ،منشورات المعهد الملكي للثقافة الامازيغية،الرباط ،2005،ص 203.

[438] تاريخ المغرب تحيين وتركيب ،مرجع سابق،ص 587.

[439] ولد بتطوان في أبريل من عام 1988، وبها تعلم القرآن الكريم في الكتاب،ومبادئ العلوم اللغوية والشرعية في الزوايا والجامع الكبير،وقاد نضال الحركة الوطنية في بداياتها ، وأنشأ المدرسة الأهلية ،كما أرسل مجموعة من البعثات العلمية إلى المنطقة المشرقية ،لقب بأب الحركة الوطنية ،ووافته المنية في مدينة رندة الاسبانية في عام 1935م .للمزيد من التفاصيل انظر معلمة المغرب الجزء الخامس الصفحة 1493مادة عبد السلام بنونة تحرير محمد ابن عزوز حكيم .

بالمنطقة الخليفية على صلة وثيقة بالمنطقة المشرقية وذلك من خلال الاطلاع على الصحف المشرقية التي كان يجلبها البريد الانجليزي إلى غاية 1936، أو من خلال تلك الصلات المتينة التي كانت تجمع الوطنيين بزعيم العروبة والإسلام وأمير البيان شكيب أرسلان قائد القومية العربية ، والموجه والمحرك لخطوات ونضال الوطنيين بالمنطقة الشمالية ،وهو ما يتضح بصفة جلية في تلك المرسلات بين عبد السلام بنونة وشكيب أرسلان والتي نصت في مجملها على تعبئة الوطنيين لمواجهة الاستعمار ،أو من خلال زيارة ارسلان إلى حاضرة تطوان في عام 1930م إبان صدور الظهير البربري .وقد خص مؤرخ المنطقة الشمالية الرحل محمد ابن عزوز حكيم كتاب خاص لهذه الزيارة تحت عنوان "وثائق سرية حول زيارة الأمير شكيب أرسلان للمغرب أسبابها ، أهدافها ، نتائجها، مطابع الشويخ _ تطوان1980م عدد الصفحات 120 صفحة".

وقد كانت اسبانيا تعيش على إيقاع أوضاع داخلية جد متردية كان من أهم سماتها سقوط نظام ألفنصو الثالث عشر في أبريل من عام 1931، وقيام الجمهورية الثانية الاسبانية بقيادة ألكالا زامورا ALCALA ZAMOURA وما رافق هذا التحول السياسي الاسباني في تحسين أوضاع شمال المغرب ، حيت من المعروف على الأنظمة الاشتراكية دعم ومساندة كل الشعوب التواقة للحرية .كما إن الاتجاه العام في المنطقة الخليفية كان يميل إلى التيارات الاشتراكية الاسبانية وهذا ما يتضح بصفة جلية في مساندة أهل تطوان للمسيرة التي قام بها الاشتراكيون الاسبان بالمدينة غداة إعلان قيام النظام الجمهوري يوم 14أبريل من سنة 1931.وقد كانت أوضاع المنطقة الخليفية شديدة الارتباط بما يقع في الدواليب الداخلية الاسبانية .حيت كانت تشكل المنطقة وقودا وقاعدة انطلاق لكل الخطط والتيارات الطامحة للحكم في مدريد .وهذا ما يتضح في الحرب الأهلية التي اشتعلت في اسبانيا في عام 1936م .لتعلن نهاية النظام الجمهوري .

وقد شكلت الحرب الأهلية الاسبانية 1936م بقيادة الجنرال فرنسيسكوا فرنكوا Francisco Franco فرصة مواتية للرواد الحركة الوطنية في المنطقة الخليفية من أجل استغلال الأوضاع وإخراج الأحزاب السياسية م وتقديم مجموعة من العرائض الإصلاحية مشتغلين تهدئة الأوضاع من طرف السلطات الاسبانية من أجل جلب المغاربة إلى صف فرانكو لمواجهة الجمهوريين ، حيت تشير الكتابات الى تجنيد الآلاف من المغاربة في صفوف الانقلابين، كما تشير لذلك الباحثة الاسبانية ماريا روسا ذي ماذرياغا María Rosa de Madariaga في كتابها المعنون"مغاربة في خدمة

فرانكوا" والدكتور مصطفى المرون في أطروحته المعنونة "الجيش المغربي في الحرب الأهلية الاسبانية 1936-1939".

وقد وجها نقد لاذع للرواد الحركة الوطنية في المنطقة الشمالية التي عملت هي ألآخري على تجنيد المغاربة في صفوف جيش فرانكو.حيت اعتبرت تلك الانتقادات دماء المغاربة التي أهدرت بغزارة في اسبانيا ومعاناهم الطويلة هناك هي الثمن الذي تم دفعه مقابل ما تمتعت به الحركة الوطنية من حريات وامتيازات خلال الفترة التي استغرقتها الحرب (1936-1939) 440 .ومهما يكن في الآمر فأن المغاربة لعبوا أدوار طلائعية في الحرب الأهلية الاسبانية ،وكانوا في مقدمة الفيالق العسكرية،خاصة بعد الوعود المعسولة التي قدمها الجنرال فرانكوا FARNCO ، ومقيمه في تطوان خوان لويس بيكبدر Juan Luis Beigbeder.

وقد كان المغاربة دائما هما رماد الحرب ،وهذا ما يتضح بصفة جلية في مشاركتهم في الحروب العالمية إلى جانب الدولة الفرنسية،وفي الحرب الأهلية الاسبانية ، وغيرها من التراعات الدولية في الفترة التي كان المغرب فيها يرزح تحت نير الاستعماريين الاسباني والفرنسي.

1-التجربة الحزبية في المنطقة الخليفية ودورها في النضال السياسي في المنطقة الخليفية:

إن الحديث عن التجربة الحزبية في المنطقة الخليفية يقودنا للحديث أساسا عن حزبين طبعا المنطقة .حزب الإصلاح الوطني بقيادة الشخصية الميكيافلية عبد الخالق الطور يس، وكانت قيادة الحزب مؤلفة من أعضاء"كتلة العمل الوطني"وكانت مبادئه تقوم على الأحكام الإسلامية واللغة العربية،ومبدأ الحزب الوحيد،واستشارات القاعدة في اتحاد كل القرارات.وقد اندمج حزب الإصلاح الوطني في حزب الاستقلال في فجر عهد الاستقلال441. وحزب الوحدة المغربي تحت رئاسة محمد المكي الناصري الذي قدما من المنطقة السلطانية هربا من السلطات الفرنسية. بعد أحداث بوفكران المعروفة. وأسس بإيعاز من اسبانيا من أجل إحداث نوع من التوازن الجماهيري بين الحزبين ،وان لا يستولي حزب الطوريس على القاعدة الشعبية .وان كانت الصراعات والحزازات هي التي طبعت العلاقة بين الحزبين حيت إن حزب الإصلاح الوطني لم يستسغ فكرة

[440] بوهادي بوبكر،الحركة الوطنية بشمال المغرب والحرب الأهلية الاسبانية :ملاحظات عامة،ندوة "تطوان في عهد الحماية"،منشورات المجلس البلدي لمدينة تطوان،تطوان،1992م،ص 46.

[441] عبد الحق المريني،محطات في تاريخ المغرب المعاصر 1894-1956،منشورات الزمن،مطبع النجاح الجديدة ،الدار البيضاء،2011، ص 117.

حزب موازي ومنافس له في المنطقة.و في نهاية الثلاثينيات اندلعت مواجهات واشتباكات دامية بين الطرفين من أجل الانفراد بالقاعدة الجماهيرية في المنطقة الشمالية .

وفي فترة الأربعينيات ستسير إدارة الحماية الاسبانية في سياسة تكوين وإخراج وإنشاء أحزاب جنينية تمجد السياسة والأجندة الاسبانية.وتقف في صفها.وتنفذ خططها .

ونتيجة جملة من المعطيات الدولية،والعوامل الإقليمية،والأحداث الداخلية ،بدأت تظهر معالم معادلة جديدة لذا الوطنيين في شمال كما في الجنوب .هي معادلة "الاستقلال" بدل المطالبة بالإصلاحات كمعادلة تقليدية سار على نهجها الوطنيين منذ مطلع الثلاثينيات .ومن جمله هذه العوامل نذكر ظروف الحرب العالمية الثانية 1939-1945 حيت يمكن القول إن الحرب العالمية الثانية كان لها تأثير كبيير على خلق هذه المعادلة الجديدة نظرا لتحولات التي صحبتها على الصعيد الدولي وتركت انعكاساتها على العمل الوطني في المغرب بصفة عامة وعلى برنامج الأحزاب السياسية في الشمال[442] بصفة خاصة.ناهيك عن صدور الميثاق الأطلسيAtlantic Charter [443].وغيرها من الأحداث التي طغت على المحيط الدولي والإقليمي التي كان يعيش على إيقاع حركية وديناميكية كبيرة بداية الأربعينات، اغتنمتها الحركات التحررية في مختلف أرجاء المعمور .ناهيك عن مساندة القصر بقيادة محمد الخامس لمطالب الاستقلال والوطنين .بعد التغيير الجدري الذي وقع في شخصية السلطان محمد الخامس من شخصية مترِوية قليلة التجربة،اختارتها الإقامة الفرنسية من أجل تنفيذ خططها المستقبلية بإيعاز من رائد مكتب الاستعلامات الفرنسية Michaux-Bellaire, Édouard (1857-1930)[444] يقول [445]روبير مونطاني Robert Montagne على شخصيته" ان السلطان الذي اعتلى العرش بعد أبيه مولاي يوسف كان على درجة كبيرة من الخجل وانعدام التجربة بحيث لم يكن بوسعه اتخاذ أي قرار في أي موضوع[446].لكن بعد ذلك أضحى السلطان يعمل مع

---

[442] عبد الحفيظ حمان، الآحزاب الوطنية بالشمال :من المطالبة بالإصلاح الى المطالبة بالاستقلال (1936-1953،ندوة تطوان في عهد الحماية،منشورات المجلس البلدي لمينة تطوان،تطوان، 1992.ص 174.

[443] ميثاق أصدرته كل من الولايات المتحدة الآميركية وبريطانيا في 14غشت من عام 1941، ونص أساسا على حق الشعوب في تقرير مصيرها،وأن الدولتين لا تطمعان في التوسع الاقليمي...

[444] أحد رواد الفكر الاستعماري بالمغرب،كان ملما بمختلف خبايا الشعب المغربي ،من مدنه ولغاته وأهم مكوناته،وقد تحمل مسؤولية ادارة البعثة العلمية الفرنسية بالمغرب حيث كانت جهوده الشخصية ذات قيمة جوهرية في المشروع الكولونيالي خصوصا على مستوى إعداد المونوغرافيات. وقد عرفت البعثة تحت إدارته غزارة في الإنتاج، ويتعلق الأمر هنا بإعداد جملة من المصنفات والمحفوظات من قبيل LA MISSION SCINTIFIQUE :

[445] Robert Montagne 1893-1953 est un orientaliste, ethnologue et anthropologue français, LES Livres de Robert Montagne Très importants dans l histoire de maroc - Les Berbères et le Makhzen dans le sud du Maroc- Villages et kasbas berbères, Tableau de la vie sociale des Berbères sédentaires dans le sud du Maroc .. etc

[446] Robert Montagne.Révolution au Maroc.ed France Empire.1953.pp 187 .

رجال الحركة الوطنية خفية من أجل رسم الخطط لتحرير البلاد من قبضة الاستعمار،وتزويدهم بنصائحه الغالية وأرائه السديدة. من أجل السير بالبلاد الى الاستقلال .

في بداية الأربعينيات عملا كل من عبد الخالق الطوريس والمكي الناصري على رأب الصراع الدائر بينهما،وإنهاء خلافاتهما وأعلنا عن جبهة تضم حزبيهما،أي حزب الإصلاح الوطني وحزب الوحدة المغربية، وقد سميت بالجبهة القومية المغربية،وذلك يوم 18دجنبر 1942،وبعد شهرين من هذا الإعلان أي في 14فبراير 1943، استغلت الجبهة القومية بعد الظروف وتقدمت الجبهة المذكورة للسلطات الاسبانية وبعض المفاوضيات الدولية بوثيقة تطالب فيها باستقلال المغرب ووحدت ترابه وأقاليمه وبإلغاء معاهدة الحماية.وذلك إبان مؤتمر أنفا447.

ولعل لسائل أن يتساءل ولقائل أن يقول لماذا لم تعطى لهذه الوثيقة قيمتها التاريخية، على عكس وثيقة المطالبة بالاستقلال بالمنطقة السلطانية، التي يحتفل بذكرها سنويا، وتعتبر يوم عطلة رسمية، ومن الأعياد الوطنية، وتدرس في المناهج التعليمية.

إن السبب وراء ذلك يرجع بالأساس إلى انه دائما كان يعتبر الاستعمار الاسباني مجرد فرع لاستعمار الفرنسي،لذلك ينبغي محاربة ومجابهة الأصل لكي يسقط الفرع ،زد على ذلك أن الوثيقة قدمت بموازاة مؤتمر أنفا التاريخي بمدينة الدار البيضاء،ناهيك عن الخطأ الجسيم الذي وقعت قيادات الجبهة القومية المغربية المكونة من حزبي الطوريس والناصري،وهو اعتبار التراب الوطني بجميع أطرافه وجدوده وشواطئه ومياهه وأجوائه أرض حياد تام مطلق عند قيام أي نزاع دولي مسلح وبالنسبة لكافة المتحاربين حاضرا ومستقبلا448 مع العلم أن المغرب وعلى لسان سلطان يقوم بدعم دول الحلفاء بقواعده وأرضه ضد المحور بقيادة النازية الألمانية وهذا ما تشير إليه بوضوح وثيقة الاستقلال بالمنطقة السلطانية في11 يناير من سنة 1944م.لذلك تكتسي أهمية قصوى عكس وثيقة المنطقة الخليفية التي ظلت مهمشة وشبه مغيبة.

---

[447] انعقد يوم 14 يناير 1943 بمدينة الدار البيضاء حضره الرئيس الاميركي فرانكلين روزفلت، والوزير الأول البريطاني ونستون تشرشل، والملك الراحل محمد الخامس رفقة ولي عهده الأمير مولاي الحسن، والجنرال ايزنهاور قائد قوات الحلفاء.وفي هذا اللقاء أعطى الرئيس الاميركي روزفلت التزاماً أميركيا بالعمل على مساندة استقلال المغرب بعد الحرب وتعويض الدعم المغربي بمساعدات اقتصادية وتكنولوجية هامة واستعادة وحدة المملكة الشريفة . وكان هذا اللقاء أول لقاء - منذ فرض الحماية - لملك مغربي مع رئيس دولة دون وساطة المقيم العام، وقد ساهم كل ذلك في تقوية الأمل عند المغاربة ودفعهم للمطالبة بالاستقلال.

2-الحركة الوطنية في الشمال على درب الاستقلال

عرفت الحركة الوطنية في المنطقة الشمالية بعد أفول الحرب العالمية الثانية حركية ودينامية سياسية كبيرة . ووقعت أحداث جسام ،ونضالات بالموزاة مع الوطنيين في المنطقة السلطانية من أجل الاستقلال والحرية . ومن الأحداث الكبرى التي طبعت مسار الكفاح في سبيل الاستقلال ، زيارة المغفور له السلطان محمد الخامس إلى منطقة طنجة الدولية في تحد للسلطات الاسبانية والفرنسية ،وتكريس للسيادة الوطنية ،وتأكيدا على وحدة المغربية الترابية ،وانه لا يعترف بالحدود الوهمية التي رسمها الاستعمار . يقول شارل أندري جوليان في كتابه "المغرب في مواجهات الأمبرياليات" قد حاول ما أمكن تبرير هذه الزيارة قائلا: "أراد سيدي محمد أن يؤكد وحدة مملكته بالذهاب إلى طنجة التي لم يسبق أن زارها أي سلطان منذ نصف قرن".كان خطاب محمد الخامس الرنان ،وطموحه من أجل الاستقلال فاتحة لبداية الكفاح لنيل المراد وإخراج الاستعمار.

في هذه الآونة نهجت إدارة الحماية الاسبانية سياسة عنيفة اتجه المناضلين في منطقة الشمال ,حيت عمد المندوب السامي خوسي باريلا josé Varela إلى منع الصحافة الوطنية وإغلاق مقرات الأحزاب،ورفض دخول كل من الطريس وبنونة وابن عبود إلى تطوان بعد عودتهم من مهامهم بالخارج في فبراير 1948،مما اضطرهم إلى الاستقرار بمدينة طنجة.449

لتأتي محطة 20غشت 1953 والمؤامرة الفرنسية بنفي السلطان الشرعي محمد الخامس إلى كورسيكا ومدغشقر ، أو الاعتداء على العرش على حد تعبير محمد ابن عزوز حكيم .فما هو موقف شمال المغرب من هذا الاعتداء على المؤسسة السلطانية. وما هي أبرز ردود الفعل من الوطنين في المنطقة الخليفية.

على عكس التوقعات سارت إدارة الحماية الاسبانية إلى جانب الوطنيين ،وساندهم في احتجاجاتهم،وقدمت لهم يد العون والمساعدة لمجموعة من الأسباب منها :

-اعتبرت اسبانيا من جرى في المنطقة الخليفية اهانة لها وازدراء بها كشريك في احتلال المغرب.لذلك شجعت الوطنيين على الوقوف في وجه السلطات الفرنسية.450

---

[449] تاريخ المغرب تحيين وتركيب،مرجع سابق ،ص

[450] نفسه،ص 603

-وجدت اسبانيا الفرصة سانحة من أجل انسلاخها من التبعية الفرنسية ،فلطالما اعتبار الاستعمار الفرنسي هو الأصلي.والاسباني هامشي.حيت وجدت اسبانيا في هذه الخطوة فرصة ذهبية لإبراز استقلاليتها عن المنطقة الفرنسية.

وهكذا سارت اسبانيا في دعم الوطنيين وتنظيم لقاءات جماهيريا ،تندد بالخطوة الفرنسية ،وتجلب إلى صفها تعاطف المغاربة في المنطقة الخليفية.حيت نظم المقيم بالينيو يوم 21يناير 1954تجمعا جماهيريا حاشدا بحضور الخليفة السلطاني،تعبيرا من سكان المنطقة عن امتنانهم لموقف اسبانيا وزعيمها فرانكو من عزل السلطان.كما أصدر حزب الإصلاح الوطني يوم 5يونيو 1954 بيانا أشاد فيه بمساندة الحكومة الاسبانية لسكان المنطقة في تشبثهم ببيعة سلطانهم الشرعي.ومما ترتب عن هذا التجاوب بين السلطات الاسبانية والوطنيين قبول الطوريس المشاركة في الحكومة الخليفية كوزير للشؤون الاجتماعية في يناير 1955.

لكن كما يقال ان دوما الحال من المحال . فسرعان ما تحولت سياسة اسبانية إلى سابق عهدها من قمع وترهيب ومنع اتجاه الوطنيين.خاصة بعد تلك الإرهاصات الأولى لاستقلال المنطقة السلطانية بعد دخول المغرب في المفاوضات المعروفة ب ايكس ليبان [451] Aix-les-bains ما بين 22 و 27غشت 1955م .تمهيدا للخروج من المأزق الذي وقعت فيه فرنسا بعد خلع جلالة محمد الخامس ونفيه إلى كورسيكا ومدغشقر.وبعد الانفضاض من المؤتمر تم الاتفاق على إزاحة بن عرفة عن العرش وتنصيب مجلس بدله،ودخول في محادثات مع محمد الخامس في منفاه.قبل أن تعود المشروعية إلى نصابها بعودة محمد الخامس يوم 16نوفمبر 1955إلى عرشه حاملا معه الاستقلال الذي كافح هو وشعبه في سبيله[452].

أمام هذه الأحداث والوقائع أخذن مدريد تهدد بفصل المنطقة الخليفية حيت مارست ضغوطا على الخليفة ليعلن نفسه سلطانا بها.وقد أثارت هذه المناورات الاسبانية غضب الوطنيين ،وأدت بالطريس إلى تقديم استقالته من الحكومة الخليفية.جاعلا بذلك حدا لتجربة التعاون مع السلطات الاسبانية.أمام هذه الأوضاع ومع تزايد وتيرة الاحتجاجات في المنطقة السلطانية خاصة بعد شهر مارس الدموي بمدينة تطوان ، لم تجد إدارة الحماية الاسبانية بدا سوى الاعتراف باستقلال المغرب

[451] منتجع سياحي فرنسي دارت فيها جلسات بين الوطنيين المغاربة وممثلين عن السلطة والحكومة الفرنسية من أجل التمهيد لآستقلال المغرب.

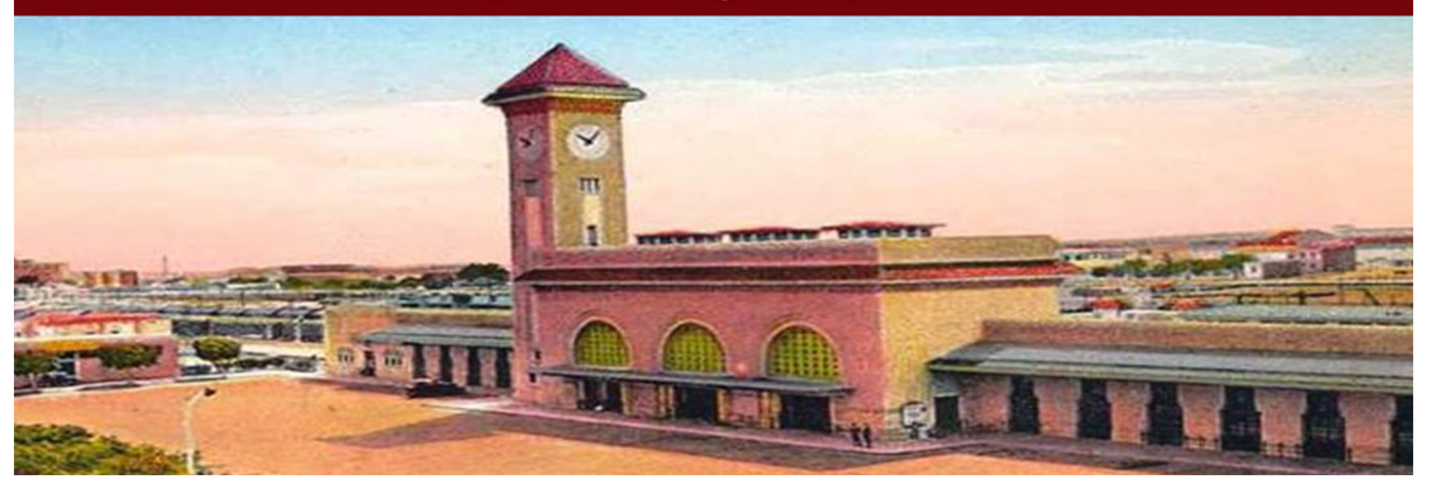
[452] مؤلف جماعي،معلمة المغرب،منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر،الجزء 11 ،2000 ،ص 3568.

في أبريل من عام 1956م.453 في يوم 7 أبريل وفي طريق رجوع محمد الخامس إلى المغرب استقبله أهل تطوان استقبالا يصعب وصفه ،وفي 29 أكتوبر سنة 1956م انتهي النظام الدولي بطنجة. لكن العديد من الجيوب والثغور المغربية المحتلة ظلت تحت السيطرة الاسبانية مثلا سبتة ومليلية والصحراء المغربية.454 حيت ستنطلق عملية استكمال الوحدة الترابية انطلاقا من استرجاع طرفاية عام 1958 إلي المسيرة الخضراء عام 1975وواد الذهب عام 1979.

[453] عبد الحق المريني ،تاريخ المغرب تحيين وتركيب،مرجع سابق ، ص 604.

[454]معلمة المغرب ، مرجع سابق ، ،الجزء 11، مادة الحماية الاسبانية،صفحة 3568

ذاكرة مدن من خلال صور



مدينة الصويرة


MOGADOR. - Arrivée de Chameliers à Bab-Sebaah.





Florez38 www.delcampe.net



